

مدخل إلى خلق الكون والعالم
ونهاية التاريخ
في المنظور القرآني

أ.د. عماد الدين خليل

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تقديم

هذا ما يريد كتاب الله أن يحدثنا به عن ثلاثية خلق الكون والعالم ونهاية التاريخ بعلمه المطلق الذي لا تغيب عنه - وحاشاه - شاردة ولا واردة... قد تلتقي معطياته مع بعض كشوف العلم الغربي ونتائج الفيزيائيين والرياضيين والكوزمولوجيين ، وقد تفترق عنها بزوايا مائة وثمانين درجة... ذلك أن الفارق بين علم الله الأزلي الذي لا تحدّه حدود وعلم عباده ، فارق كبير كبير يصعب حسابه على الحاسبين.

ولقد قيل في هذا المجال الكثير وكتب الكثير ، منذ عهد افلاطون وأرسطو وسقراط وحتى عهد فلاسفة العلم المعاصرين وعلمائه الكبار من الفيزيائيين والرياضيين والكوزمولوجيين... اينشتاين وبور وهايزنبرغ وأغروس وسوليفان وكاريل وستانسيو وهويل ، مروراً بكبلر وغاليليو ونيوتن... الخ فوضعت النقاط على الحروف في جانب من الحقائق ، وطاشت سهام في جانب آخر... ولا يزال كبار العلماء يشتغلون ويكتشفون ويتحدثون بجملة من الكشوف المتعاقبة... لكنهم ، وبعبارة أكثر دقة ، أن الحدائين من فلاسفة العلم أدركوا أن علمهم هذا علم ظني لا يمكن أن يحقق المطابقة المطلقة مع الحقائق الكونية (Not Exact Science) ولا يمكن أن يقدم وصفاً دقيقاً لماهيات الظواهر الكبرى كالطاقة والضوء والحركة... الخ إنما يقفون عند حافاتها التي تحدثهم عن طريقة عملها ، أما ما وراء ذلك فهو من الغيب المجهول الذي لا يعلمه إلا الله (سبحانه وتعالى)!

منذ فجر التاريخ تحدثت الفلاسفة والعلماء عن خلق الكون والعالم ، وجاء من بعدهم لكي يحدثنا عن نهاية التاريخ... تراهم هل وصلوا إلى جواب قاطع حول هذه المسائل الثلاث ، أم أنها مجرد محاولات للاقتراب من حقائق الأشياء ، وليس مطابقتها بحالٍ من الأحوال...

في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه نتلقى الجواب... العلم اليقيني القاطع الذي لا مجال فيه لغيب أو احتمال... إنه علم الله الأزلي الذي خلق الكون ، وأعطى العالم مواصفاته الأساسية ، وتحدثت عن نهاية التاريخ ، فلنتابع في هذا البحث ، الذي اسميته مدخلاً ، جانباً مما يقوله كتاب الله ، لعلّه يخفف من حدة الوهج الذي أعمى عيون الكثيرين ممن راحوا يلهثون بما يقوله الغربيون عن قصة الخليقة ، وبناء العالم ، ونهاية التاريخ ،

فيما لا يعدو أن يكون - مرةً أخرى - نوعاً من مقارنة الحقائق وليس مطابقتها بحالٍ من الأحوال
... فها هنا في كتاب الله نلتقي المطابقة التي لا مجال فيها للظن والتخمين !
وإلى الله وحده نتوجه بالكلمات والأعمال ...

الموصل في ١/٩/٢٠٢٠م

الفصل الأول

خلق الكون

ابتداءً ، فان الله (سبحانه وتعالى) هو الذي خلق السماوات الأرض ، وهو مالکها القیوم علیها ، المتصرف بمقدراتها ، وبالتالي فهو أدری بخلقه وملکة : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك : الآية ١٤) ، ولطالما ترددت في كتاب الله هذه (النیمة) التي تؤكد حقيقة الخلق وموجده (جلّ في علاه) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة التوبة : الآية ١١٦) . ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة یونس : الآية ٥٥) . ﴿ ... لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ (سورة یونس : الآية ٦٨) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ١٩) . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٢) . ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ... ﴾ (سورة النحل : الآية ٣) . ﴿ وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة النحل : الآية ٥٢) . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ (سورة طه : الآية ٦) . ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٤٤) . ﴿ وَ كَئِیِّن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٥) . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ (سورة سبأ : الآية ١) . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ١) . ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة یاسین : الآية ٨٣) . ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ٦٢ ﴿ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الزمر : الآيتان ٦٢-٦٣) . ﴿ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الشوری : الآية ١٢) . ﴿ وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ... ﴾ (سورة الزخرف : الآية ٨٥) . ﴿ وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ (سورة النجم : الآية ٣١) . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة الملك : الآية ١) . ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ ... ﴾ (سورة النبأ : الآية ٣٧) . ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي

الأمراض... ﴿سورة الأنعام : الآية ٣﴾. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾ (سورة الزمر : الآية ٥).

ويلفت نظرنا في هذه الآيات تكرر كلمة أن خلق السماوات والأرض انما جاء موافقاً لنواميس الحق التي قامت عليها بنية السماوات والأرض ... ولهذا دلالاته ولا ريب ، فان الأمر جد ، وأن خلق السماوات والأرض يعكس حقيقة هذا الجدّ الذي يضبط ويضع الأمور في أماكنها تماماً ، حيث لا شذوذ ولا انحراف باي معيار من المعايير. وهو الجدّ الذي يكتسح كل تصورات الغربيين الضالة التي حولت الكون إلى ساحة عبثية تقوم على الفوضى واللاجدوى والاصطراع بين الآلهة المدّعاة منذ عصر الميثولوجيا اليونانية ، وصخرة سيزيف ، واسطورة النار المقدسة لبروميثيوس ، إلى عصر المذاهب العبثية والوجوديات الفاجرة التي صورت الكون حالة من القهر الذي لا يجد الإنسان في ساحته أيما فرصة على الاطلاق لتجاوز هزيمته والخروج منتصراً !

ها هم كَتَّاب المسرح الطليعيون ، رواد الرؤية العبثية للكون والعالم والوجود ، ومن قبلهم الوجوديون في جناحهم الكافر ، يؤكدون لا جدوى الوجود البشري ، ولا معنى للحياة الإنسانية (فما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى) ، والحياة تمضي على غير هدى ، تلفها فوضى تمسك بخناقها فلا تدعها تعثر على الهدف من خلق الكون والعالم ، والضياح يلف الدنيا والأشياء والخلائق ، فلا يسمح لأحد وسط دوامة غبشه بأن يرى ولو بصيص أمل في مغزى وجوده ... أليس هذا كله نقيضاً للجد الذي خلقت به السماوات والأرض كما يؤكد كتاب الله !؟

ثم ها هم علماء الكوزمولوجي المحدثون يؤكدون يوماً بعد يوم مبدأ غائية الحياة ، فيجعلون لخلق الكون والعالم هدفاً تقف قبله وبعده إرادة الله الواحد الذي لا يعجزه شيء في السماوات والأرض ، وأن الحياة لم تخلق عبثاً وأن المسعى البشري لا يتحرك فوضى وعلى غير هدى ، وانما هنالك غايات يسعى للتحقق بها فيما ينقض كل مقولات الفلاسفة والعلماء الذين ضلوا وأضلوا بمقولاتهم الفاجرة عبر قرون الإلحاد المعتمدة.

كما يلفت نظرنا أن الإقرار من قبل الكفرة والمشككين بحقيقة الألوهية لا يكفي ، لأنهم يقفون عند حافات الظواهر والأشياء ولا يعلمون حقيقة خلقها وغايتها ... وتلفت نظرنا - كذلك - عبارة (بيده ملكوت كل شيء) لكي ما نلبث أن نسلّم بالحقيقة الكبرى التي تشهد بأن خلق الكون انما يجيئ بإرادة الله وحده الذي يملك (كل شيء) والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : (كن فيكون) ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (سورة النحل : الآية ٤٠).

تبدأ واقعة الخليفة وتنتهي بآيات ثلاث تختزل الرحلة الطويلة ، التي ربما تمتد لمليارات السنين ، والقرآن الكريم ينبهنا ، بل يأمرنا أن ننظر كيف بدأ الخلق ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ... ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٢٠) ولهذا دلالاته ولا ريب.

في البدء كانت السماوات والأرض نقطة شديدة الكثافة ، ويجيئ الأمر الإلهي بتفكيكها وتحويلها إلى منظومة هائلة من السدم والمجرات والنجوم والكواكب والأقمار : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣٠). وقد جاءت أكثر بحوث الكوزمولوجيين حداثةً لكي تؤكد بنظرية الـ (Big Bang) (الانفجار الكوني العظيم) هذا الذي ذهب إليه كتاب الله ... ومن ثم ندرك دلالة الخطاب القرآني الموجه إلى الذين كفروا ، لأنهم هم الذين سيقدر لهم اكتشاف هذه الحقيقة عن بدايات الخلق الكوني.

" إن معظم علماء الكونيات والفلك يدعمون نظرية وجود خلق في الواقع لدى انفجار الكون المادي إلى حيّز الوجود منذ حوالي ثمانية عشر بليون سنة مضت إثر انفجار أعظم يعرف عادةً بالانفجار الكبير - big bang ، وثمة خيوط لأدلة عديدة تدعم هذه النظرية المذهلة ، وسواء قبلنا كافة التفاصيل أم لم نقبل ، فالفرضيات الأساسية بوجود نوع من خلق ما ، تبدو قاهرةً من وجهة نظر العلم. ويعود الفضل مباشرةً إلى مجموعة كبيرة من البراهين تعود إلى أكثر قوانين الفيزياء شهرةً ، ذلك المعروف - بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية. ويوضح هذا القانون بالمعنى العام ، أن الكون يصبح يوماً بعد يوم أكثر اضطراباً فثمة نوع من الانحدار التدريجي والعنيد ينزع إلى الفوضى ، والأمثلة على صحة القانون الثاني واضحة للعيان. ففي كل مكان : بنايات تنهار ، بشر يتقدمون في العمر ، جبال وسواحل تتآكل ، وموارد طبيعية تنضب ... ولقد قام

فيزيائيون باختراع مقياس كم رياضي دعوه أنتروبي Entropy لتحديد كمية الاضطراب أو الفوضى ، وقد أثبتت تجارب دقيقة عديدة أن الكمية الكلية للاضطراب في نظام ما لا تنخفض أبداً. وإذا كان النظام معزولاً عن محيطه ، فأى تغييرات تحدث داخله سوف ترفع الانتروبي أي الاضطراب بحدّةٍ بالغة حتى لا يمكنه بعدها الوصول إلى أعلى ، وحينها لن يحدث المزيد من التغيير. حيث يكون النظام قد وصل إلى حالة توازن الديناميكا الحرارية. وإذا كان لدى الكون مخزون محدود من نظام أخذ في تغيير لا محيد عنه ، نحو الفوضى - أي إلى درجة في توازن الديناميكا الجارية النهائية ، فهذا يعني مباشرةً الخروج باستدلاليين عميقين : الأول موت الكون في النهاية ، ومن ثم تخبطه في الفوضى الأولى. ويعرف الفيزيائيون ذلك بـ (الموت الحراري) للكون ، والثاني عدم امكانية استمرار الكون إلى الأبد ، وألا يكون قد وصل إلى حالة توازنه النهائي ، في زمن لا نهائي مضي. والمحصلة أن الكون لم يكن موجوداً دائماً ...

" لقد رأينا القانون الثاني للديناميكا الحرارية أثناء عمله في كافة النظم المألوفة لدينا ، فالأرض مثلاً لا يمكن أن تكون قد وجدت لتبقى إلى الأبد ، والا سوف يبرد قلبها ، ويمكن إعادة تاريخ عمر الأرض بواسطة دراسة نشاطها الاشعاعي إلى أربعة بلايين ونصف بليون سنة ، أي ما يقارب عمر القمر والنيازك المختلفة. أما بالنسبة للشمس ، فمن الواضح عدم امكانية استمرارها في الاحتراق إلى ما لانهاية ، لأن مخزونها من الوقود ينخفض سنةً بعد أخرى ، مما يؤدي - في النهاية - إلى برودتها وخفوتها ، ووفقاً لذلك فلا بدّ أن نيرانها قد اشتعلت في وقت محدد مضي "(1).

" وبالنظر إلى استمرار احتراق النجوم وتشكل أخرى محلها ، فهل يمكن لهذه الدورة من مولد النجوم وموتها أن تستمر إلى ما لا نهاية ؟ للأسف هذا غير ممكن وفقاً لما يؤكدته القانون الثاني للديناميكا الحرارية ، فالمواد الناجمة عن احتراق النجوم لا يمكن إعادة تدويرها بشكل كامل ، حيث تتبدد الطاقة المطلوبة بعيداً في الفضاء كشعاع نجمي ضوئي فوق آيوني ، وهكذا تضيع إلى الأبد بعض مواد النجوم داخل الثقوب السوداء. مع ذلك ولسبب مباشر يعتقد بأن النظام الكوني برمته لم يعد تدويره على نحو مستمر منذ الأزل. فقد أثبت اسحق نيوتن ، أحد

(1) بول دافيز : الله والفيزياء الحديثة ، ترجمة : هالة العودي ، صفحات للدراسة والنشر ، الطبعة الثالثة ، (دمشق-٢٠١٩م) ، ص ٢٢-٢٤.

أشهر مؤسسي العلم الحديث ، أن الجاذبية قوة كونية تعمل في الفضاء بين كل الأجسام المادية، حيث يجذب كل نجم وكل مجرة بعضها بعضاً بفعل قوتها ، ولأن الأجسام الفضائية تطفو بحرية في الفضاء ، فليس هناك من سبب يمنع سقوطها معاً ، نتيجة لقوة الجاذبية المنتشرة في كل مكان. لكن تأثيرات الطرد المركزي للكواكب في النظام الشمسي يمنع انهيار جاذبية الكواكب التي تدور حول الشمس ، وبالتالي سقوطها عليها : فالكواكب تدور حول الشمس وكذلك المجرة ، ولا يوجد دليل يفيد أن الكون يدور أيضاً. ومن الواضح أن المجرات لا يمكنها البقاء معلقةً هناك إلى الأبد. ولهذا فالكون لا يمكنه التمتع دائماً بترتيبه الحالي" (١).

" لو أن نظرية الانفجار الكبير قد استقرت على عاتق هابل وأينشتاين ، لما حصدت كل ذلك الدعم الواسع ، ولحسن الطالع فثمة برهان مؤكد ... إن الهيدروجين والهيليوم يكونان أكثر من ٩٩% من المادة في الكون ، ويمنحنا هذا الاتفاق المذهل الثقة في صحة الفكرة الأساسية في نظرية الانفجار الكبير" (٢).

" إن هذا النظام المميز طبيعياً قد حدث أثناء الثانية الأولى لانفجار الكون وخروجه إلى حيز الوجود. بواسطة الانفجار الكبير ، حين تجاوزت درجة الحرارة في ذلك الوقت بليون بليون درجة ، بما يعادل الطاقة الضخمة اللازمة لإخراج نظام البساطة ، ويعرف الفيزيائيون هذه الفترة بعصر جي يوني Gut لأنه كان مهيمناً عليه فيزيائياً ، من قبل عمليات تشملها النظرية الموحدة الكبرى للقوى الأساسية ، وتأسس عندها عدم التوازن الحاسم الذي قاد إلى زيادة طفيفة للمادة على المادة المضادة" (٣).

" كيف يمكن لمجموعة من الذرات غير الحية أن تكون حية ؟ وقد جادل البعض باستحالة بناء حياة من الأرض. وإنما ينبغي وجود عنصر إضافي غير مادي داخل كل شيء حي : قوة حياة ، أو جوهر روحي يرجع أساساً بأصله إلى الإله. وثمة حجة استخدمت على نحو متكرر لدعم هذا المذهب تتعلق بالسلوك ، حيث يشكل التصرف بأسلوب يبدو هادفاً نحو غائية خاصة

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٥-٣٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩٠ .

السمة المميزة للأشياء الحية. إن وجهة الهدف هذه ، أو (الغائية) واضحة تماماً في أشكال الحياة العليا ... " (١).

" وكم آثار فساد الاختزالية المتفشية من انتقادات حادة ، حيث أشار آرثر كوستلر : (إن انكار مكانة القيم والمعنى والهدف في تفاعل القوى العمياء ، قد سمح للتوجه الاختزالي بإلقاء ظلاله إلى ما وراء حدود العلم ، ليؤثر على مناخنا الثقافي وحتى السياسي). وقد تدمر نقاد كثر من محاولات تفسير الكائنات الحية ، بأنها لا شيء سوى تلال من الذرات تخلو من المغزى ، تشكلت بأسلوب عديم الجدوى نتيجة لمصادفات عشوائية. وهذا في الحقيقة انتقاص جدي لوجودنا " (٢).

" في حالة النظم الحية لا أحد ينكر أن الكائن الحي هو مجموعة من الذرات. لكن من الخطأ افتراض أن لا شيء هنا سوى مجموعة ذرات. إن هذا الزعم بالغ السخف ، شأنه شأن التأكيد أن سيمفونية بتهوفن ليست سوى علامات. أو أن رواية ديكنز لا تعدو مجموعة كلمات. إن خاصية الحياة والنعمة أو حبكة الرواية هي ما ندعوه بالتنوع الناشئة التي تظهر فقط على المستوى الجمعي للبناء ، رغم أنها تبدو مفترقة إلى المعنى على مستوى المكونات. مع ذلك لا يتعارض وصف المكونات مع الوصف الشامل ، فوجهتا النظر متكاملتان ، وكل منهما مضبوط في مستواه " (٣).

" أحد أقوى الحجج للدلالة على وجود الإله قدمها وليم بالي (١٧٤٣-١٨٠٥ م) في كتابه (علم اللاهوت الطبيعي) قال : " نفترض أنني تعثرت بحجر لدى عبوري على عشب ، وسألني البعض كيف وصل الحجر إلى هنا ؟ من المحتمل أن أجيب بعكس أي شيء أعرفه : (إنه ملقى هناك منذ الأبد ، وربما أوضح بسهولة سخف جواب كهذا. لكن بفرض أنني وجدت ساعة على الأرض فينبغي التساؤل عندها : كيف يمكن وجود الساعة في ذلك المكان ؟ اعتقد

(١) بول دافيز : المرجع السابق ، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٨-٧٩.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٩.

أنه من الصعب التفكير في جواب كالذي أعطيته من قبل ، فكل ما أعلم انها ربما كانت هناك دائماً. لكن لماذا لم تصلح هذه الاجابة عن الساعة ، وكذلك عن الحجر ؟ "(١).

" إن التنظيم المعقد والمرهف للسعة بمكوناتها المتداخلة بدقة ، دليل دامغ على التصميم ، فإذا رأى الإنسان ساعة للمرة الأولى في حياته ، سيخلص إلى أنها آلة ، صنعها رجل ذكي لغرض ما. ويمضي بالي في جداله ، بأن الكون يشبه الساعة تنظيمياً وتعقيداً ، لكن على نطاق أعظم بكثير ، لذا فمن المؤكد وجود مصمم كوني رتب العالم على هذا النسق لغاية ما : ان ابداعات الطبيعة تفوق ابتكارات الفن تعقيداً ودقةً وبراعة تقنية. جاءت هذه الحجة من التصميم ، ومن ارتباطها بمفهوم الغائية. إن فكرة برمجة الكون كي يتطور باتجاه هدف نهائي ليست بالجديدة فالغائية أحاطت بدرجة واسعة بكل من نظام البساطة والتعقيد معاً. وقد كتب الاكوييني : من الملاحظ أن تنظيم الأفعال يمضي إلى نهاية ، حيث تطبع جميع الأجسام قوانين الطبيعة ، حتى وان افتقرت إلى الوعي ، الأمر الذي يوضح أنها تتجه إلى هدفٍ ما ، وهذا ليس محض مصادفة ، ورغم أن الاكوييني لم يكن يعلم شيئاً عن بساطة رياضيات قوانين الفيزياء الأساسية ، فانه رصد الحقيقة المذهلة في إذعان الأجسام المادية وانصياعها إلى قوانين منظمة ، واستخدمها دليلاً على وجود الإله المنظم "(٢).

لقد اسقط العلم النظريات التخمينية التي تقول بأزلية الكون ، وأكد حقيقة أن العالم ليس قديماً. فهناك نقطة معينة بدأ فيها الزمن ، وبدأت فيها تكات الساعة وبدأ فيها الكون كله. وقبل أن يتم تحديد عمر هذا الكون قدمت فيزياء الديناميكا الحرارية (التيرمو داينامكس) في قانونها الثاني الدليل على أن الكون ليس أزلياً. وينصّ هذا القانون على أن الانتروبي الكلية لنظام معزول (حيث لا تدخل الطاقة أو المادة لهذا النظام ولا تخرج منه) يمكنها أن تزداد مع الوقت ، في حين أنها تظل ثابتة في حالة مثالية (حالة توازن) أو تمر بعملية انعكاسية Irreversible Process. فزيادة الانتروبي تعبر عن المرور بعملية لا انعكاسية Irreversible Process. وهذا القانون كان نتيجة تجريبية (Empirical Finding) في البداية ، لكنه أصبح لاحقاً من مسلمات فيزياء الديناميكا الحرارية. ويتضمن هذا القانون ، ضمن ما يتضمنه من نتائج أن

(١) المرجع نفسه ، ص ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩٥-١٩٦.

الطاقة المستخدمة في الكون تقل باستمرار ، فمع كل لحظة يستهلك الكون جزءاً من هذه الطاقة كما تستهلك السيارة الوقود الذي فيها. فما علاقة هذا بعمر الكون وبدايته أو أزلته ؟

القانون الأول من الديناميكا الحرارية بنص على أن الطاقة في الكون محددة ، والقانون الثاني يقول أن الطاقة تقل باستمرار (كما يقل الوقود في السيارة ما دامت تعمل) وهذا يجعلنا نصل إلى هذا السؤال : هل كانت السيارة ستعمل حتى الآن لو أنها كانت تعمل منذ الأزل ؟ لقد كان وقودها سينفذ منذ زمنٍ طويل ، لكنه يقل ولم ينفذ بعد ، وهذا يعني أن السيارة لم تعمل منذ الأزل ، كان هناك وقت ما بدأت فيه هذه السيارة بالعمل ، وكذلك الكون ، ما دام يستهلك طاقته باستمرار ، وما دامت طاقته محددة وليست لا نهائية ، فهذا يعني أنه كان ثمة وقت بدأ فيه كل هذا. ولنتذكر أن هذه القوانين مسلمات فيزيائية ، وليس نظريات تقدم تفسيرات معينة لظواهر كونية ، ولا ملاحظات قابلة للتعديل ، فهي مسلمات مبنية على ملاحظات مختبرية لقد اعتبر الموضوع بديهياً ، لكن قد لا يتفق الكل على ذلك ، فجاء العلم ليثبت البدهية.

بعد عدة عقود من إعلان القانون الثاني للديناميكا الحرارية ، حدثت عدة فتوحات علمية جعلت العلم قادراً على تحديد متى بدأ الكون ، وليس فقط قادراً على الاجابة عن سؤال : هل كانت له بداية ؟

بدأ الأمر في عام (١٩١٥م) عندما قدم البرت اينشتاين النظرية العامة في النسبية ، وهنا صار يمكن الحديث لأول مرة - عبر هذه النظرية - عن الزمن بطريقة مختلفة عن كل ما سبق، حيث يختلط الزمان والمكان في بعدٍ جديد مختلف أطلق عليه : " الزمكان ".

النظرية العام تضمنت عشر معادلات رياضية تصف مداخلات الجاذبية والزمكان والكتلة والطاقة. وخلال سنوات عمل كل من الكساندر فريدمان وجورج ليمتر (وهو أول من اقترح ما أطلق عليه لاحقاً نظرية الانفجار العظيم) على معادلات اينشتاين ووصلا إلى نتيجة مؤداها أن لو صدقت نظرية اينشتاين فان الكون سيكون في حالة تمدد مستمر. وفي عام (١٩٢٩م) اكتشف أدوين هابل عبر التلسكوب ، صحة هذا التنبؤ ، فان الكون يتمدد فعلاً ، المجرات كانت تبتعد عنا (أي عن مجرة درب التبانة) بسرعة تتناسب طردياً مع بعدها عنا. الآن لم يعد الأمر نظرياً ، وعبر معادلات رياضية ، أصبح بالتلسكوب وبالتجربة والقياس أمراً مؤكداً ، ولقد كان التمدد المستمر للكون يعني بالضرورة أنه كان ثمة بدايةً له ، في نقطةٍ ما محددة. وقد جعل هذا

من النموذج الكوني الذي قدمه جورج ليتمر ، والذي سمي أولاً نموذج الذرة الأولى ، ومن ثم نموذج الانفجار العظيم (Big Bang) هو النموذج الأكثر قبولاً وصموداً في تفسير نشوء الكون، وهو النموذج الذي يقترح أن الكون قد بدأ من نقطة شديدة الكثافة (يقال أنها لا نهائية الكثافة)، ضمت كل كتلة الكون وكل الزمكان ، ثم حدث ما يعرف بالانفجار العظيم وبدأ عداد الزمن بالعمل منذ تلك اللحظة.

كان ذلك منذ ١٤ مليار سنة تقريباً ، ولقد تم تحديد هذا الرقم والتأكد منه عبر قياسات علمية مخبرية مباشرة (صور من أقمار صناعية ، من تلسكوبات عملاقة ، من قياس درجات حرارة ، اشعاع كوني ...) تتناسق هذه المعطيات وتدعم النموذج الكوني الذي تقدمه نظرية الانفجار العظيم. وهي على العموم ليست النظرية الوحيدة ، ولا نموذجها هو الوحيد لتفسير نشوء الكون ، هناك نماذج أخرى كثيرة من ضمنها نماذج تقول إن الكون كان دوماً هناك ، لكن هذه النماذج لم تصمد مع الوقت ، ولم تستطع أن تقدم تفسيراً لكثير من المعطيات المعارضة. فقد تتغير النظريات أو تتعرض إلى تغيير أو تحديث ، أو حتى إلى بعض الدحض في أجزائها ، لكن هذا لن يغير من حقيقة أن الكون قد بدأ من نقطة متناهية في الصغر وأن ثمة بداية لكل هذا.

في عام (٢٠٠٣م) قدم ثلاثة علماء مهمون هم : آرفند بورد ، الكساندر فليكين ، ولأن غوث ، دراسة مهمة عرضت لاحقاً بأسمائهم مجتمعين B.V.G Theorum. وقد خلصت الدراسة إلى أن أي نموذج كوني أزلي (غير تمّدي ، بلا بداية) يحتاج في تفسيره إلى فيزياء أخرى غير الفيزياء الحالية.

حتى الآن فإن كل ما يقوله العلم يتفق مع أن للكون بداية ، ولا يوجد أي دليل يدعم فكرة أزلية الكون ، أو أنه كان دوماً هناك. كل الأدلة تقول أن للكون بداية^(١).

إن قصة خلق الكون ، بحسابات علمية ورياضية ، في كيفية الانفجار العظيم ، هي أن الكون قد انطلق من نقطة ، كانت تحتوي على عدد هائل من الجسيمات الأولية في درجة حرارة

(١) أحمد خيرى العمري : ليظمنن عقلي ، عصير الكتب ، بدون مكان ، (٢٠١٩م) ، ص ٨٠-٨٢ عن

Second Law of wikipedia, thermodynamics.

Stephen Hawking: The Beginning of Time.

عالية جداً : بالمليون مليون درجة. ثم مر الكون بمرحلة التبريد ، ثم اجتاز مراحل عديدة ، وعندها تراكبت وتشكلت أولى الذرات في هذا الكون ، وهذه الذرات تجمعت وتفاعلت مع بعضها، وعند اجتماع الجسيم ومضاده تحوّل إلى شعاع ضوئي ، ثم تعود هذه الجسيمات للتخلص من الطاقة الموجودة عند التبريد ، فحافظت على نفسها ، واجتمعت الالكترونات مع البروتونات ، وهذه اجتمعت مع النيوترونات. ومن كل ذرة من الذرات التي تكونت نتج : بروتون + الكترون = هيدروجين ، وبروتون ٢ + نيوترون ٢ في نواة من الذرة + الكترون = هيليوم. فتحول الكون من حالة العتمة إلى الشفافية ... ثم تكاثفت سحب كبيرة جداً من غاز الهيدروجين ٧٦% ، وغاز الهيليوم ٢٣% و ١% عناصر أخرى ، فتشكلت منها النجوم الأولى وكانت كبيرة ، وأصبحت هذه النجوم تحرق وتدمج الهيدروجين مع بعضه وتولّف من ذلك غاز الهيليوم. واستمرت النجوم الأولى بعملية طبخ العناصر ... أي يتكون داخل النجم غاز الهيليوم ، وإذا كان النجم كبيراً فسيندمج الهيليوم مع بعضه ليتشكل الكربون ، والكربون يندمج ليتشكل الأوكسجين والنيوتروجين.

هكذا بدأ الخلق ، ولذلك يقول الله (عزّ وجل) : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ

وَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٧)^(١).

وثمة ثوابت فيزيائية أساسية ، دقيقة جداً ، سهلت نشوء الكون ، وسهلت ايضاً نشوء الحياة كما نعرفها ... وهذه الثوابت دقيقة جداً ، لو كان هناك فارق طفيف فيها ، طفيف لدرجة غير محسوبة بمقاييس تعاملنا مع الأرقام ، لما كان من الممكن أن ينشأ هذا الكون ، ولا كانت الحياة قد نشأت. وما تقود إليه هذه الأرقام الدقيقة واستحالة تكون الحياة في الكون كله في حالة تغييرها، هو أن هذا الكون الذي نعيش فيه مضبوط على تردد معين ، ثمة توليف دقيق جداً يجعل هذا الكون قابلاً لتكون الحياة واستمرارها فيه^(٢).

والحديث هنا لم يعد عن كوكب الأرض فقط ، بل عن الكون بأسره ، أي أننا لا نتحدث عن تنظيم ذاتي لجزء بسيط من فوضى عارمة ، بل عن ثوابت كونية بدأت مع بداية الكون عبر

(١) هافال عارف برواري : إشارات كونية من القرآن ، مجلة الحوار ، العدد ١٠٨ ، أبريل ، (صيف ٢٠١٩) ، ص ٨٨-٨٩.

(٢) العمري ، المرجع السابق ، ص ١٢٠.

الانفجار العظيم ، ومن خلال أجزاء من أول ثانية من بداية الزمن. هذا الضبط الدقيق للكون المعروف اليوم على نطاق واسع بأل (Fine-tuning Universe) يشمل حقائق رقمية لم تعد موضع نقاش أو شك ، ولا يشترط فيمن يؤيد فكرة " الضبط الدقيق للكون " أن يكون مؤمناً بأي خالق ، فقد تحدث عن المفهوم وايده علماء ملحدون معروفون^(١).

ويمكن أن يعتبر مفهوم " الضبط الدقيق للكون " تحديثاً معاصراً على برهان النظم الذي استعمل في النقاش حول وجود الله منذ أن كان هناك نقاش حول الأمر ، ولكنه أصبح مدعوماً بحقائق علمية رقمية منذ بداية القرن العشرين تقريباً ، حيث قدم لورنس هندرسن في عام (١٩١٣م) كتاباً عن " لياقة البيئة " يعتبر فيه أول من تحدّث عن معايير معينة لضبط الكون ، شملت الماء والبيئة من حيث كونها مناسبين جداً لنشوء الحياة.

في عام (١٩٦٣م) قدّم روبرت ديك مقالاً علمياً في مجلة Nature قال فيه إن بعض القوى الفيزيائية (مثل الجاذبية والكهرومغناطيسية) يجب أن تكون " مضبوطة بدقة " لتسمح بالحياة في أي مكان في الكون. وفي عام (١٩٨٤م) قدم السير فريد هويل في كتابه (الكون الذكي) مقارنة قال فيها إن احتمالية تكون بروتين واحد عشوائياً ، يشبه تخيل مجموعة شمسية مليئة بعميان يجلسون جنباً إلى جنب بينما هم يحاولون حل لغز مكعب روبيك ذي الأبعاد الثلاثية ، وتوقع أنهم سيتمكنون من حلها جميعاً في نفس الوقت تحديداً^(٢).

يقول ستيفن هوكينغ في " موجز تاريخ الزمن " : قوانين العلم ، كما نعرفها اليوم تحتوي على عدد الأرقام الأساسية ، مثل حجم شحنة الإلكترون ، ونسبة كتلة البروتون والالكترون. والمدهش في الأمر أن قيم هذه الأرقام تبدو كما لو أنها قد عدلت بدقة (Finely Adjusted) لتجعل تطور الحياة أمراً ممكناً^(٣).

حسب بول ديفيز فان القوة النووية (التي تربط بين البروتون والنيوترون في الذرة) لو كانت أكبر بمقدار ٢% مما هي عليه الآن ، فان الهيدروجين سيتحد بنظائر الهوليوم بدلاً من

(١) المرجع السابق ، ص ١٢١ Fine-tuned Universe-wikipedia

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢١ ،

Hoyle, Fred (1984). The intelligent Universe. Holt, Rinehart, and Winston.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٢.

ضوئية. مصير هذه القوة أن تسود أكثر من الجاذبية والقوى الأخرى بازدياد كوننا اظلاماً وفراغاً. ومن حسن حظنا أن قيمة (Λ) صغيرة جداً (وتقدر بـ ٠.٧ تقريباً) وإلا لأوقف تأثيرها تكون المجرات والنجوم ، ولتعطل التطور الكوني قبل أن يبدأ أصلاً.

الرقم الخامس : ويرمز له (φ) وهو يمثل نسبة طاقة الكتلة السكونية للمادة إلى قوة الجاذبية وقيمته نحو ١/١٠٠٠٠٠٠٠ وهو يحدّد النسيج الكوني. فلو كان (φ) أصغر من ذلك بقليل لأصبح الكون خاملاً وخالياً من أي بنى. ولو كان (φ) أكبر من ذلك بكثير لأصبح الكون مكاناً مهلكاً عاصفاً ، لا يمكن فيه لأي نجم أو نظام شمسي أن يبقى على قيد الوجود ، وستسوده الثقوب السوداء الهائلة.

الرقم السادس : رقم (الأبعاد الفراغية) في عالمنا (D) وهو يساوي ٣ ، ورغم أنه كان معروفاً منذ قرون لكن الآن ينظر له بمنظور مختلف. ولم تكن الحياة لتوجد لو كان (D) يساوي ٢ أو أربعة. كانت الكواكب في حالة حدوث أي تباطؤ في دورانها - ستصطدم فوراً بالنجم الذي تدور حوله ، أو في حالة حدوث العكس تبتعد عنه بمدار حلزوني متسارع^(١).

فلننتبه هنا إلى كون هذه الأرقام " الدقيقة " تتحكم باتجاهين ، فمن جهة هي التي تجعل هذا الكون العميق بهذا الحجم وهذا التمدد ، ومن جهة أخرى هي التي تجعل الحياة بأصغر جزئياتها ممكنة على الأرض. وبعبارة أخرى : هذا الكون الشاسع ، الذي قد يبدو لك أكبر من الضروري ، هو أمر لازم لوجودك الشخصي.

ومن ضمن الأرقام الأخرى التي يمكن أن تحدث تغييراً جذرياً - إلى درجة الدمار الشامل - لمجرد حدوث تغيير طفيف فيها : نسبة حجم البروتون إلى الإلكترون وهو يساوي ١٨٣٦.١٥٢٦٧٣٨٩ وهذه النسبة لو تغيرت بمقدار واحد من ١٠ ، أي واحد من ١٠ مضمرة في نفسها ٣٧ مرة ، أو واحد من ١٠ ومقابلها ٣٧ صغراً ، إذا كانت هذه النسبة أعلى أو أقل ، فان القوة الالكترونية المغناطيسية ستتغلب على قوة الجاذبية وتمنع نشوء المجرات والكواكب ، وبالتالي تمنع نشوء الحياة كما نعرفها.

(١) العمري ، المرجع السابق ، ص ١٢٢-١٢٤ عن :

Just Six Numbers: The Deep Forces that shape the universe. Martin Rees pp.2-3.

ونسبة القوة الالكترومغناطيسية إلى قوة الجاذبية بالنسبة لزوج من البروتونات ، وهي تبلغ واحداً إلى ١٠. فإذا كانت هذه النسبة أقل قليلاً ، فإن النجوم ستكون أقل كثافةً من الشمس ، وهذا سيجعلها غير قابلة لتكوين المعادن الثقيلة. وإذا كانت النسبة أعلى قليلاً فإن النجوم كانت ستكون أكثر كثافةً من شمسنا ، وسيؤدي هذا إلى كون غير صالح للحياة كما نعرفها.

ومعدل تمدد الكون يقارب واحد إلى ١٠ ، فلو كان معدل التمدد أعلى من هذا التمدد الكوني على نحو لا يمكن للنجوم والكواكب أو المجرات أن تتكون. ولو كان التمدد أبطأ لأنهار الكون بسرعة وقبل أن تتكون النجوم أو المجرات والكواكب.

كثافة الكتلة الكونية ، ضبطت على نحو دقيق يسمح بنشوء الحياة بدقة واحد من ١٠ ، فلو كان الكون بنسبة كتلة أكبر ، لأدى نظير الهيدروجين المتكون عن الانفجار العظيم إلى احتراق النجوم بأسرع مما يجب لتكون الحياة بالشكل الذي نعرفه. ولو كانت النسبة أقل ، مما يؤدي إلى قلة المعادن الثقيلة ، وبالتالي عدم نشوء الحياة كما نعرفها.

الإشعاع الذري الكوني ، الناتج عن الانفجار العظيم ، يمكن مشاهدته بنسبة ١ إلى ١٠.٠٠٠ (١٠) فلو كانت هذه النسبة الدقيقة أقل قليلاً لأدى ذلك إلى أن الكون كله مجرد تجمع غازات دون تكون أي مجرات أو كواكب أو نجوم ، ولو كانت النسبة أعلى قليلاً لكان الكون كله سوداء في الحالتين : لا حياة. على الأقل لا حياة بالشكل الذي نعرفه^(١).

" أنظر حولك إلى ذلك البناء المعقد والتنظيم الدقيق للكون ، فكر في الصيغ الرياضية لقوانين الفيزياء ، وتوقف حائراً أمام ترتيب المادة ، من المجرات الدائمة إلى نشاط خلية نحل من الذرات ، وأسأل لماذا تبدو هذه الأشياء على ما هي عليه ؟ لماذا هذا الكون ، ومجموعة تلك القوانين ، وذلك الترتيب للمادة وللطاقة ؟ في الواقع ، لماذا أي شيء على الإطلاق"^(٢).

" إن نظام الكون بدهي كما يبدو من أي ناحية ننظر إليه ، من المجرات البعيدة إلى أعماق تجايف الذرة ، حيث نواجه تنظيمًا مطرداً ومعقداً ، ولا نلاحظ مادة ، أو طاقة موزعة على نحو فوضوي ، فجميعها منظم في بنية تراتبية : ذرات ، جسيمات ، بلورات ، كائنات حية ، نظم

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٤-١٢٥ عن :

Cosmic (Fine Tuning): <https://www.Allaboutscience.org/cosmic-fine-tuning.htm>.

(٢) بول دافيز ، المرجع السابق ، ص ٦٢.

زراعية ، عناقيد نجوم ... وهلم جرا. علاوةً على ذلك فسلوك الأنظمة المادية ليس محض مصادفة ، بل قانونياً ومنهجياً ، وغالباً ما انتاب العلماء شعور بالرهبة والعجب ، لدى رؤيتهم ذلك الجمال المبهم وتلك الرشاقة الطبيعية المذهلة. ومن المفيد أن نميز بين الأنواع المختلفة للنظم ، لدينا : أولاً ، الترتيب البسيط ، أنظر مثلاً إلى إطراد النظام الشمسي ، أو ذبذبات البندول الدورية ، وهناك أيضاً الترتيب المعقد ، مثل تنظيم الغازات التي تحوم في الغلاف الجوي لكوكب المشتري ، وكذلك تنظيم الكائنات الحية المعقد. إن التمييز مثال آخر على الاختزالية مقابل الشمولية ، حيث تسعى الأولى إلى كشف العناصر البسيطة ضمن الهياكل المعقدة ، أما الشمولية ، فتلفت الانتباه إلى التعقيد ككل. ويشير التعقيد إلى أكثر من عنصر متعمد ، حتى تتناسب معاً كافة مكونات نظام بأسلوب متناغم يحقق التعاون لإنجاز غاية بعينها. وسوف نتطوع على الترتيب البسيط لنرى كيف تؤكد الاكتشافات الحالية في أساسات الفيزياء تحكم الاطراد الرياضي في العمليات الجوية للطبيعة ... إن العقل الإنساني يفرض حتماً النظام على العالم كي يجعل له معنى. لكنني لا اعتقد أن كثيراً من العلماء قد تأثروا بهذه الحجة ، فالفيلسوف الألماني " كانت " لم يكن يعلم شيئاً عن الذرة ومشتقاتها ، حيث كشفت دراسة الذرة مثلاً : انها تقوم على الاطراد الرياضي نفسه الذي يحدث في الشمس ، وقد شكلت هذه الحقيقة بالتأكيد مفاجأة لها علاقة بأسلوبنا في تصوّر العالم. إضافةً إلى ذلك ، فسوف نرى أن مشتقات مادة الذرة تخضع إلى بعض المبادئ البسيطة والقوية المتماثلة. ومن الصعب أن نفتتح مثلاً بأن تماثل اليد اليسرى واليمنى في تشغيل بعض القوى الأساسية ، ليس ذات أهمية ، إلا باعتباره تحية لطبيعة العقل البشري الأنيقه^(١).

" لقد تقدمت التقنية في القرن العشرين إلى درجة دراسة العمليات الذرية نفسها ، وفهمها بالتفصيل. وتعود الاكتشافات المبكرة أساساً إلى أعمال اللورد روثرفورد ، عند مطلع القرن العشرين ، حين وجد أن الذرات ليست جزئيات أولية ، وحسب بل بنى مركبة من أجزاء داخلية ، وتتركز معظم الكتلة الذرية في نواة صغيرة للغاية ، يبلغ حجمها ألف مليار من سنتيمتر واحد ؛ ويحيط بالنواة سحابة من جسيمات أخف (الكترونات) تمتد إلى مخارج لمسافة ربما تبلغ مئة

(١) المرجع نفسه ، ص ١٧٤.

مليون في السنتمتر الواحد. وهكذا فإن الجزء الأكبر في الذرة الآن فضاء فارغ. أضف إلى ذلك حقيقة أن عامل الكم يمنع مسارات مدارية دقيقة عن الإلكترون ، لتبدأ الذرة في الظهور ، بما يشبه كيان ذي نوع ضبابي. وترتبط الإلكترونات بالنواة ، بواسطة قوى كهربائية ، والنواة موجبة بالشحنة ، يحيط بها عقل كهربائي يتصيد الإلكترونات سلبية الشحنة. وقد اكتشفت منذ زمن أن النواة جسم مركب يحتوي على نوعين من الجسيمات : البروتونات المحملة بشحنة موجبة ، وجسيمات كهربائية محايدة تدعى النيوترونات ويعد وزنها معاً أثقل ١٨٠٠ مرة تقريباً من الإلكترونات" (١).

" وتذكرنا الصيغ الرياضية المدمجة بالنغمات الموسيقية ، تلك النغمات المتناسقة على أوتار الغيتار ، أو أنبوب الأرغن التي توصف أيضاً بواسطة علاقات عددية بسيطة. وليس ثمة مصادفة في أن ترتيب مستويات الطاقة في الذرة بمثابة استجابة إلى موجة اهتزازات الكم ، تماماً أسوءً بترددات الآلة الموسيقية لاهتزازات الصوت" (٢).

" وكلما اكتشفت تماثلات أكثر فأكثر ، تملك فيزيائي الجسيمات العجب لعمق هذا الاطراد المبهم ، اطراد بقي سراً مدفوناً منذ زمن سحيق في عمق المادة. ويشاهد الانسان الآن وللمرة الأولى الجسيمات بمساعدة أدوات تقنية متقدمة. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الفيزيائيون يتساءلون عن المعنى الكامن خلف هذه التماثلات : فنمة رئيس طبيعي لرئيس المراسلين ، وحسبما أشار منظر رائد ، يبدو كما لو أن الطبيعة تريد أن تقول لنا شيئاً. وطغى على السطح عند هذه النقطة التحليل الرياضي من جديد. وأشارت نظرية المجموعات إلى منشأ طبيعي لكافة العائلات المتماثلة ، من حيث تماثل رئيس واحد يكمن وراءها. واتضح أن التماثلات الأعلى يمكن أن تكون قد بنيت من مزيج من ترتيبات بسيطة جداً ، وبترجمة ذلك إلى لغة الجسيمات ، تشير الرياضيات إلى أن الهاردونات ليست أساسية اطلاقاً ، لكن ولمرة اخرى ، فهي أيضاً مركبة من جسيمات أصغر. عجلة داخل عجلة ، فالذرات تتكون من نواة وإلكترونات ، والنواة تتكون من

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٦.

بروتونات ونيوترونات وكلاهما مكون من (٠.٠٠٠) ومن : وتوجد في الكتل ، المبنية حديثاً ، اسفل الذرات ، ثلاث مستويات بحاجة إلى جسيمات ... " (١).

إن النظرية الفيزيائية الأكثر حداثة " قادرة على تفسير سلوك بنية المادة جميعها وفقاً لطريقة الاختزال ، وتمكننا من صياغة كل أسرار الطبيعة في معادلة واحدة ، أي سيدة رئيسة للكون. وسيؤكد هذا الانجاز الاعتقاد الأثير بأن الكون يعمل وفقاً لمبدأ واحد رياضي بسيط يبهز الأنفاس. وقد عبر جون ويلر ، عن الالتزام بهذا الهدف النهائي بقوله : سيفتح الباب يوماً بالتأكيد ليعرض الآلية المركزية المتألقة لعالم جميل وبسيط " (٢).

" لقد كان الكون مجموعة من المكونات البسيطة للغاية من المواد الخام التي صمم الإله من خلالها كل الفضاء والزمن والمادة ... ولا ريب : بتقدم دليل النجاحات بأنها نصر لأفكار الفيزياء الحديثة المستندة إلى منطق الاختزال. وبدأ الفيزيائيون عبر محاولة خفض المادة إلى كتل بنيتها النهائية - اللبتونات ، الكوارتات ، الرسل - يلمحون القانون الأساسي المتحكم بكل القوى الذي يشكل بنية المادة وسلوكها ليفسروا بذلك العديد من الخصائص الأساسية للكون " (٣).

ولسوف " يتضح وجود مذاق شمولي قوي لأوجه الكم في طبيعة المادة : مستويات متداخلة للوصف مع كل شيء ، مكوناً بطريقة ما من كل شيء آخر ، ولا يزال يعرض حتى الآن تراتبية هيكلية. ويتابع الفيزيائيون السعي ضمن هذا الكمال الشامل طلبنا للمقومات النهائية للمادة والقوة الموحدة النهائية " (٤).

" من بين أعداد هائلة لا تحصى من الاحتمالات المتاحة ، فكل جزئي متناه في الصغر ومضطرب بالكامل ، وإذا كان اختيار حالة أولية وارداً بدرجة كبيرة ، فمن المؤكد بالتالي وجود من قام بالاختيار ، أو التصميم ... إن ايجاد كون منظم ، يعني في الواقع اختيار الخالق له من

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٨.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩١.

(٤) بول دافيز ، المرجع نفسه ، ص ١٩٤.

ضمن مجموعة " نماذج " هائلة ، يستحيل أن نسجل أعدادها على ورقة ، وإلا بلغت مساحتها حجم الكون المشاهد بكامله " (١).

" هناك مشكلة مرتبطة بأخرى تتعلق بالتناظر الكوني في درجة التوحد القصوى من التوحد: حيث نجد الكون ، لدى النظر من الأرض إلى الأعلى ، يعرض نفس الجانب على نطاق واسع ، أياً كان الاتجاه الذي نتطلع نحوه. وتظهر القياسات الدقيقة بقايا خلفية كونية إشعاعية ساخنة ، توضح بدقة تطابق التدفق الوارد من كافة الأطراف ، بنحو جزء واحد في الألف. وفي حال كان الانفجار الكبير حدثاً عشوائياً ، فمن المستحيل على الأرجح حدوث ذلك التوحد الاستثنائي " (٢).

" هناك في الطبيعة ما هو أكثر من قوانينها الرياضية ونظامها المعقد ، فثمة عنصر ثالث يتطلب أيضاً تفسيراً يعرف بـ (الثوابت الأساسية للطبيعة) وفي هذا المجال نجد دليلاً أكثر مدعاة للدهشة على التصميم العظيم " (٣).

" بالنسبة للأكوان الأخرى ، وإلى ذلك الحين ، فإن التوافق المعجز - على ما يبدو - في خاصية القيم الرقمية التي حددتها الطبيعة في ثوابتها الأساسية ، يبقى الدليل الأكثر إقناعاً على عنصر التصميم الكوني " (٤).

إن هذا الضبط الدقيق للكون ، بكل هذه المعطيات التي تدعمه ، ينقلك من شعورك العام بوجود تناسق وتنظيم في الكون والطبيعة من حولك ، وهو شعور أن يفسر بسهولة بالتعود ، إلى حقائق رقمية ثابتة تشير إلى وجود ضبط دقيق لهذا التناسق ، مما سهل وجودك الشخصي ووجود أي كائن حي على الإطلاق. إذن فإن برهان هذا النظام هنا صار يعتمد على أرقام ومعادلات ، ولم يعد مجرد (وجهة نظر) ، لم يعد (مسألة نوقية) تعتمد على رأي أشخاص يرون العالم من زاوية معينة " (٥).

(١) المرجع نفسه ، ص ١٩٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢١٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٥) العمري ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

يقول مايكل تيرنر ، وهو عالم كوزمولوجي أمريكي مرموق وله إضافات في جعل علم الكونيات متصلاً بعلوم أخرى على نحو وثيق : إن الدقة التي ضبط بها الكون ، تشبه أن ترمي بسهم عبر الكون بأسره لتصيب هدفاً بقطر مليمتر واحد على الجانب الآخر من الكون^(١).

ويقول روجر نبروز ، وهو عالم رياضيات وفيزياء رياضية بريطاني مرموق ، وشارك في وضع نظرية التفرّد مع ستيفن هوكينغ : إن احتمالية نشوء الكون بالصدفة هي ١ إلى ١٠ مرفوعة إلى ١٠ مرفوعة إلى ١٢٣^(٢).

إن احتمالية نشوء الكون بالصدفة ضئيلة رياضياً إلى درجة لا يمكن تخيلها. وبالتالي فإنه لا يمكن لكون (ضبط) بهذه الدقة إلا أن يكون هناك من ضبطه بدقة ... أمرٌ محسوم ببداية ، فالجدل في معطيات (الضبط الدقيق للكون) أمر لا معنى له ما دامت ثابتة علمياً^(٣).

والخلاصة هي ان البرهان العقلي على بديهية وجود الخالق في الجمع بين مبدئي (السبب الأول) و (التصميم - الضبط الدقيق للكون) وهو أمرٌ استخدم منذ بدء النقاش في هذا الأمر. والبرهان قائم على ما يلي :

أولاً - لا بدّ لكل شيء موجوداً أن يكون له موجد : الأمر ملاحظ بالتجربة والحس البديهي. كل شيء في الكون من حولنا نتج عن شيء آخر وهذا من أساسيات قانون حفظ الطاقة.

ثانياً - لا يمكن أن تكون سلسلة لا متناهية من العلل والأسباب. لا بدّ أن تكون هناك نقطة بداية وحتى لو قيل إن ذلك ممكن من خلال الزمن في الطريقتين - إلى الأمام ، المستقبل وإلى الخلف ، الماضي - فان هذا سيستوجب أن يكون هناك من أوجد الزمن. إذن لا يمكن لسلسلة العلل أن تكون نهائية.

ثالثاً - إذن لا بدّ أن تكون هناك علة أولى أو سبب أول : فلسفياً الأمر قديم قدم أرسطو كحس عام.

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٧ عن :

<https://www.nationalreview/213/why.some.scientists.embrace.multiverse.dennis.prager>.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٧ عن :

The Emperob's New Mind. Concerning Computers, Minds and The Laws of Physics Rogen Pensose, 1989, p. 341-344.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٧-١٢٨.

رابعاً - وعندما ترتبط السلسلة المتتابة ، بمجموعة من السلاسل المتتابة الأخرى التي تتكاثر كلها إلى هدف واحد ، فان هذا سيقود إلى :

خامساً - السبب الأول ، هو الخالق المصمم : الله

ثم إن (صانع الطبيعة) ، بشكل عام ، الكون بما فيه ، لا بد أن يكون من طبيعة مغايرة لطبيعة ما صنعه. أي أن صانع الطبيعة هو من طبيعة مخالفة لما نراه حولنا من مظاهر الطبيعة ، وهو بالتالي خارج القوانين الطبيعية ، وغير خاضع لشروطها ومواصفاتها. وبناء على ذلك فالصانع غير خاضع لبرهان السبب الأول المبني على مشاهدات الطبيعة. فالسبب الأول لا يشترط أن يكون له السبب ... السبب الأول هو الله (جلّ في علاه) ، هو الخالق الذي تنتهي عنده السلسلة كلها^(١).

بعد (الانفجار العظيم) وما أعقبه من متغيرات في بناء الكون ، تجيء مرحلة التوسع : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٧) هذا التوسع الذي جاءت الكشوف الحديثة لاينشتاين وبور وهايزنبرغ وغيرهم لكي تؤكد فيما أسماه اينشتاين بالمنحنيات الكونية. وقد أثبت العلماء أن الكون قد انطلق من نقطة واحدة وهذه النقطة تستمر بالتوسع ... فإما أن الكون يتوسع من داخله حتى يبلغ حجماً معيناً ، يبدأ بعدها بالانكماش ، وهذا ما يسمى (بالكون المغلق) وإما أن يستمر بالتوسع بشكل متسارع وهذا ما يسمى بـ (الكون المحذب)^(٢) ... وفي كل الأحوال فان الكون أخذ طريقه إلى الاتساع منذ بدء الخلق ... وسواء جاء العلم الحديث لكي يؤكد الحقائق القرآنية أو يبجر باتجاه نقائضها ، فهو أمر لا يهمنا ، ذلك أن المعطيات القرآنية بما أنها صادرة عن الله سبحانه وتعالى ، خالق السماوات والأرض ، تحمل مصداقيتها المطلقة ، وهذا يكفي ... انما يجيء التوافق بين ما يقوله كتاب الله وما يكتشفه العلم الحديث في الرياضيات والفيزياء والكوزمولوجي ، مصداقاً للآيتين الكريمتين : ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْبُفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة فصلت :

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣-١٣٥.

(٢) هافال عارف برواري : المرجع السابق ، ص ٨٨.

الآية ٥٣). ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ (سورة يونس : الآية ٣٩). لعل ذلك يطمئن من إصرار بعض الباحثين الاسلاميين على مقولة رفض الاعجاز العلمي للقرآن والاكتفاء بالإعجاز البياني ، رغم أن أولهما هو خير وسيلة يمكن اعتمادها لمناقشة الملاحظة والمشككين ودعوتهم إلى الاقتناع بمصادقية هذا الدين.

" في أحيان كثيرة يساء تفسير اكتشاف هابل ، ليعني أن مجرتنا تقع في مركز هذا الاندفاع المتهور ، فيما تحلق المجرات الأخرى بعيداً عنا ، وذلك خطأ إلى حد بعيد لأن المجرات البعيدة تبتعد عنا اسرع من القريبة ، وبذلك تتسع الفجوات بينها لأن كلاً منها تتحرك في الحقيقة بعيداً عن بعضها البعض ، وهذه هي الحقيقة الشهيرة المعروفة بـ (توسع الكون) ، وتجدر الإشارة إلى أن نمط تشتت المجرات يظهر متماثلاً من أي مكان نتطلع منه إلى الكون"^(١).

" وتتفق نظرية توسع الكون – تماماً – مع الفكر الحديث المتعلق بطبيعة الفضاء والزمن والحركة. وقد حظي البرت اينشتاين بمكانة رفيعة في المجتمع العلمي حين حقق ثورة في مفهومنا لهذه القضايا عبر نظريته في النسبية ، وقد استغرق اعوجاج الفضاء والزمن لاينشتاين ستين عاماً ليثير مخيلة العامة ، مع أن أفكاره عن انحناء الزمكان قد حظيت بقبول الفيزياء منذ زمن كتفسير للجاذبية"^(٢).

" وإذا كان باستطاعة الشمس تمديد الفضاء ، فالمجرات يمكنها أيضاً فعل ذلك وهي مكونة من شمسٍ كثيرة ، ولهذا ، يفضل علماء الفلك التفكير في فضاء (مننقح) بين المجرات ، بدلاً من التفكير في تفرق المجرات بعيداً في الفضاء. ولهذا تجد كل مجرة أمامها متسع في كل يوم نحو التمدد أكثر فأكثر ، وبهذه الطريقة يتمدد الكون دون أن يتوسع إلى نحو أي فراغ خارجي"^(٣).

" لنضع الآن مفاهيم مرونة الزمكان جانباً ، حيث يتعذر فهمها على الكثيرين ، فمن الواضح تماماً أن الكون الذي يكبر لا يبدد من أنه كان في الماضي صغيراً ، وفي حال تم الحفاظ عبر التاريخ على معدل التوسع الحالي ، فالكون الكلي القابل للمراقبة ، كان إذن منذ عشرين أو

(١) بول دافيز : المرجع السابق ، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧.

ثلاثين بليون سنة مضت منكمشاً لدرجة لا تعدو نقطة غير قابلة للإدراك ، وخالياً - كذلك - تماماً من الأجرام الفلكية. وقد اكتشف علماء الفلك انخفاضاً ما في معدل التوسع ، فالحالة المكتفة كانت - في الحقيقة - في مرحلة متأخرة - ربما - منذ خمسة عشر أو عشرين بليون سنة مضت (قارن عمر الشمس حوالي خمسة بلايين سنة) ، حيث كان معدل التوسع عندها أسرع بكثير ، وتشبه المراحل الأولى من تشتت المجرات انفجاراً أكثر منها توسعاً بطيئاً^(١).

ثم تجيء الحلقة الثالثة للخلق الكوني ، عبر مديات زمنية لا يعلمها إلا الله ، وهي بمثابة عملية اللم للكتلة الكونية تمهيداً ليوم الحساب : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْكُمُ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ١٠٤). ﴿... وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ...﴾ (سورة الزمر : الآية ٦٧) هذه النهاية التي تجيء وفق أجلها المرسوم في علم الله : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣).

وهكذا يحسم كتاب الله الخلق الكوني بدءً وصيرورة وانتهاء ، بالإيجاز المطلوب ، حيث تجيء معطيات العلم في أقصى وتائرته مقاربةً بدرجة أو أخرى ، لما يقوله القرآن الكريم. أما التخمينات والظنون التي يمارسها هذا العلم فتلك مسألة أخرى ، حيث يتهافت الكثير من مقولات العقل الوضعي بعلمائه وفلاسفته وأدبائه ... ومن بين تلك المقولات مبدأ (المادية الديالكتيكية) الذي صممه ماركس وانغلز لتفسير الخلق الكوني بصيغة متواليات كمية تتحول بقدرة قادر مجهول إلى متغيرات نوعية ، وتقود الوجود نحو الأحسن والأكثر اكتمالاً. وهي مسألة تبلغ من الفجاجة أن يصفها سوليفان في (حدود العلم) بنظرية (السخف الطائش) ، ويعلق عليها المفكر الإنكليزي (الكساندر غري) بقوله اننا إذا جئنا بجذع شجرة في إحدى الغابات وطرحناه أرضاً ورحنا ننتظر عشرات السنين ، بل مئاتها وألوفها ، لكي تتحول ذاتياً إلى منضدة صالحة للكتابة ذات سطح أملس وقوائم ومجرات ... الخ فان ذلك لن يتحقق ولو امتد بنا الانتظار لملايين السنين ... هنا في رحاب كلمات الله نلتقي بما هو أكثر مطابقة لحقائق الأشياء ...

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧.

للعلم في منظوره المحكم الدقيق. فعبر آياتٍ معدودة فحسب ، تحسم المسألة ، ذلك انها سلمت المفتاح الحقيقي لصاحبه جلّ جلاله ، ذي القدرة المطلقة على الخلق والأمر ، فتجاوزت بذلك كل المطبات التي وقع فيها ، ليس فلاسفة وبعض علماء العصر الحديث ، وانما جملة من الفلاسفة أجهدوا عقولهم ، منذ عهد افلاطون وأرسطو وسقراط إلى عصر ماركس وانغلز وسارتر، مروراً بالفلاسفة المسلمين المتأثرين بالفكر اليوناني من أمثال الكندي والفارابي وابن ماجة وابن رشد وغيرهم ، في حديثهم عن واجب الوجود ومتناهي الأول ... و ... و ... فيما أدانهم بجهدهم الضائع هذا عقل إسلامي متوقد كابن خلدون في مقدمته ، ووصل إلى القول بعبث جهودهم الوضعية تلك بسبب من عدم استهائها بالمعطيات الدينية المنزلة بالوحي حول خلق الكون والعالم ، بدايةً وصيرورةً وانتهاءً ! وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٧). ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ لَدُنِّي وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (سورة الكهف : الآية ٥١).

لكن القرآن الكريم وهو يحدثنا عن الخلق الكوني لا يقف عند هذا الحدّ ، بل يمضي لتقديم شبكة من المعطيات الضرورية التي تكمل ما بدأه بثلاثيته تلك.

يحدّد كتاب الله المدى الزمني الذي استغرقه بناء الكون ... ليس بالمعايير الزمنية الأرضية المحدودة بالأيام والأشهر والسنين ، والتي صممت لتسيير شؤوننا وضبط مصالحنا والتي قال عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾ (سورة التوبة : الآية ٣٦) ولكن بالمعايير الكونية الممتدة إلى آحاد زمنية لا يعلمها إلا الله ، والتي كشفت البحوث الحديثة جانباً منها يمكن أن نجده لدى نسبية اينشتاين ورفاقه من علماء الكوزمولوجي وفيزياء الكون ، حيث يصير اليوم الواحد في كتاب الله كألف سنة مما نعدّ ، أو خمسين ألف سنة : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَامُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (سورة السجدة : الآية ٥). ﴿ تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَامُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (سورة النجم : الآية ٥).

سِتَّةٌ ﴿ (سورة المعارج : الآية ٤) ، أو ثمانية عشر مليوناً ومائتين وخمسين ألف يوماً مما نعد !!

وعلى ذلك فان اليومين اللذين تم فيهما خلق الكون وتكوينه على الصورة التي استقر عليها، انما يأخذان مديات زمنية متطاولة تحسب بالسنين الضوئية التي كشف العلم الحديث - أخيراً - عن جانب منها : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿ ١١ ﴾ ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (سورة فصلت : الآيتان ١١ - ١٢) ونجد أنفسنا في هاتين الآيتين ازاء إشارة مذهشة عن الوضعية التي كانت عليها السماء قبل تصميم الكون وهي (الدخان) التي حار علماء الكوزمولوجي في ايجاد تسمية لهذا الفضاء الممتد الواسع الذي سبق خلق الكون ما بين الأثير ... الفراغ ... المادة العمياء ... ثم استقروا أخيراً على تعريفها بالدخان !

وعبر آياتٍ عديدة أخرى يشير كتاب الله إلى هذا المدى الزمني المتطاول الذي استغرقه خلق الكون ، وهي تجيء مقترنة بالمدى الزمني ذي الأيام الأربعة التي استغرقها خلق العالم وتهيئته لخلافة الإنسان : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ... ﴾ (سورة يونس : الآية ٣) . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ (سورة السجدة : الآية ٤) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴾ (سورة هود : الآية ٧) . ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْتَأْذِنُ لِنُوبِ ﴾ (سورة ق : الآية ٣٨) . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُحُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الحديد : الآية ٤) . ها هنا حيث نجد الحضور الإلهي الدائم في خلقه ، بدءً وصيرورةً ، يلغي نظرية (الساعة) التي قال بها بعض العلماء الغربيين الذين يتبعون الظن ولا ترسو معطياتهم على بر الأمان العلمي الدقيق ، تلك التي أوضحوا فيها أن الله (سبحانه وتعالى) قد أوجد الكون وفق ادق نظام ، ثم تركه (وحاشاه)

يسير نفسه بما وضعه فيه من قوانين ونظم ، وسحب يده من الإشراف عليه وتسييره ... ها هنا
وعبر آياتٍ عديدة أخرى يؤكد كتاب الله أنه (جلّ في علاه) : ﴿ ... لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ... ﴾
(سورة الأعراف : الآية ٥٤) وبهذا يحسم كل مقولة خاطئة عن طبيعة العلاقة الدائمة بين الخالق
والمخلوق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٤).

بعدها يمضي القرآن الكريم لتقديم شبكة من المعطيات عن بناء الكون ومواصفاته وتركيبه
المعجز ، فيشير بشكل غير مباشر إلى ظاهرة (الجاذبية) التي تمسك السماوات بسدمها
ومجراتها وشموسها وأقمارها وكواكبها وكتلتها : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ٢) . ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾ (سورة لقمان :
الآية ١٠) وبهذا حفظ السماء من أي خلل قد يقود إلى تهاوي البناء المحكم وحدث ما لا تحمد
عقباه من الويل الذي تعجز عن تصويره كل لغات العالم : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ
آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣٢) . ﴿ ... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بِاللَّيْلِ
لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ ﴾ (سورة الحج : الآية ٦٥) . وهو يؤكد في آيةٍ أخرى أن الله وحده هو الذي يمسك
بالنظام الكوني من التفكك والانهيار ، وتسييره وفق صيغة غاية في الإحكام ، فمن غيره ، (جلّ
في علاه) من يقدر على هذا ؟ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَكِّنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنَّ زَوَاجِرَ أَلْمَسَكَهُمَا مِنْ
أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؟ ﴾ (سورة فاطر : الآية ٤١) . ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ... ﴾
(سورة غافر : الآية ٦٤) . وهو (جلّ في علاه) يقسم بـ ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (سورة الذاريات :
الآية ٧) . أي بالصنعة المحكمة لبناء الكون والتي لن يقدر عليها أحد سواه ، وبنائها المعجز
الذي لن تكون غير يد الله المطلقة بقدرةٍ عليه : ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴾ (سورة الشمس : الآية ٥) .

وثمة مجموعة من الآيات تشير جميعاً إلى سباعية البناء الكوني ، ونحن لا نستطيع
تحديداً أن نصل إلى دلالة الأرقام في كتاب الله ، تلك التي كشفت عن أحد جوانب إعجازه
بتوافقاتها المدهشة ، ولكن يظل الأمر معلقاً بغيب الله (سبحانه وتعالى) ، لاسيما وأن الأرقام

فرشت بشكل متغاير في كتاب الله ما بين الواحد والسبعة والتسعة عشر والمائة والمائتين ... الخ حيث لا يمكننا الوقوف على إحداها قائلين ها هو ذا الرقم الذي ينطوي على مغزاه ، فيما دفع العديد من الباحثين إلى تغليب الظنون وهم يتعاملون مع الأرقام الواردة في كتاب الله ، فيما يصعب التسليم مقولاتهم ... والمهم أن البنية الكونية تقوم على سباعية التركيب فيما تشير إليه عدد من الآيات : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ... ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٤٤).

﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٧).
 ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ١١ ﴿ فَضَاهَنَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ... ﴾ (سورة فصلت : الآيتان ١١-١٢). ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ (سورة الطلاق : الآية ١٢). ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ... ﴾ (سورة الملك : الآية ٣). ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ (سورة نوح : الآية ١٥). ﴿ وَبَيْنَنَا وَفَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا ﴾ (سورة النبأ : الآية ١٢). ﴿ ... ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٩). ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ٨٦ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ ﴾ ٨٧ ﴿ (سورة المؤمنون : الآيتان ٨٦-٨٧).

وفي أماكن عديدة يتحدث كتاب الله عن جانب آخر من بنية الكون ذلك هو البروج : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦١). ﴿ وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبُّنَا لِلنَّاطِرِينَ ﴾ (سورة الحجر : الآية ١٦).

وهذا يقودنا إلى الظاهرة الجمالية في خلق الكون والتي طالما أكدت عليها آيات القرآن البينات : ﴿ وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبُّنَا لِلنَّاطِرِينَ ﴾ (سورة الحجر : الآية ١٦). ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ (سورة الصافات : الآية ٦). ﴿ ... وَرَبُّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ... ﴾ (سورة فصلت : الآية ١٢). ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا

﴿سورة ق : الآية ٦﴾ . ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...﴾ (سورة الملك : الآية ٥).

يقول ريتشارد فيمان " للطبيعة بساطتها ، وبالتالي جمالها الرائع " . ويقول روبرت براونج " إذا كان لديك ذلك الجمال الطبيعي فقط ، ولا شيء آخر ، فقد حصلت على أفضل ما خلقه الإله " (١). ويقول ويلر : " في قوانين الفيزياء ، في البساطة الرائعة ، ما هي الآلية الرياضية النهائية وراءها جميعاً ؟ انها بالتأكيد حيث يتجلى الجمال المتضمن أكثرها جمالاً " (٢). ويتساءل اسحق نيوتن ، مشيراً بذلك إلى وجود الخالق العظيم : " من أين نشأ هذا النظام وهذا الجمال الذي نراه في الكون " (٣).

وتأكيد القرآن الكريم على هذه اللمسات الجمالية في خلق الكون تجبئ بمثابة تحدٍ للملاحظة والمشككين من علماء وفلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر القائلين بمبدأ غياب الغائية من خلق الكون ... لو كان الأمر كذلك ، فما الذي يدفع إلى تشكيله بهذا القدر من الجمال ؟ أليس معنى ذلك وجود يد عليا تصنع هذا الكون وتسمه باللمسات الجمالية ؟ الأمر الذي قاد العديد من العلماء وفلاسفة العلم المعاصرين إلى القول بغياب الصدفة من عملية الخلق ، وبوجود يد قديرة ومدبرة وإرادة مسبقة وراء هذا كله ؟

إن كريسي موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلم بنيويورك ، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك ، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة ، والزميل بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي ، والعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني ، يقول في كتابه الشهير : (Man Does not Stand Alone) المترجم إلى العربية بعنوان : (العلم يدعو للإيمان) (٤) ، " إن الطبيعة إذا لم تتلها يد التشويه ، تبدو كأنها أعدت لكي تستدر أسمى الشعور في نفوسنا ، وتلهمنا الإعجاب بصنعة الخالق الذي وهبنا نعمة الجمال ، تلك التي لا يدركها بكل كمالها غير الإنسان. والجمال هو الذي يرفع الإنسان وحده إلى مرتبة يكون فيها أقرب إلى الله ،

(١) بول دافيز : الله والفيزياء الحديثة ، ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩٥ .

(٤) ترجمة : محمود صالح الفلكي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة ، (القاهرة-١٩٦٢م) ، ص ١٣٦ .

ويبدو أن (الغاية) جوهرية في جميع الأشياء ، من القوانين التي تحكم الكون ، إلى تركيبات الذرة التي تدعم حياتنا ، وإذا لم يكن للتطور من غرض سوى إعداد أساس مادي لتلقي الروح ، فإن هذه غايةً مدهشة في حدّ ذاتها. وإذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لكل الأشياء ، وإذا أمنا بأن الإنسان هو أهم مظهر لتلك الغاية ، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم الإنسان وجهاز مخه ماديان ، قد يكون سليماً. فإن الذرات والهباءات في المخلوقات الحية تفعل أفعالاً مدهشةً ، وتبني أجهزة عجيبة ، ولكن هذه الأدوات عديمة النفع ما لم يحركها العقل حركات ذات غرض ، فهناك إذن خالق للكون لا يرقى إليه تفسير العلم ، ولا يقدر أن ينسبه إلى المادة" (١).

ويقول " لقد رأينا أن هناك (٩٩٩.٩٩٩.٩٩٩) فرصة ضد واحد ، ضد الاعتقاد بأن جميع الأمور تحدث مصادفةً. والعلم لا ينكر الحقائق كما بينهاها ، وعلماء الحساب يقرون أن هذه الأرقام صحيحة" (٢).

وثمة جملة من الإشارات القرآنية إلى أنواع مخصوصة من النجوم وهي تتحرك في مسرح الكون الكبير بصمت ، وتكنس ما في طريقها من أجرام ، أو تلك التي تمارس الطرق المستمر فتتقب ما يمر بها من نجوم ... ولقد جاءت الكشوف الكوزمولوجية التي اعتمدت أدق الأجهزة المسبارية للرؤية الكونية بعيدة المدى ، لكي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك هذا الذي ذهبت إليه آيات القرآن الكريم ، وذلك عام (٢٠٠٧م). ومع ذلك فإننا نلنقي ببعض الباحثين من الاسلاميين أنفسهم من يرفع صوته معترضاً على مبدأ الاعجاز العلمي لكتاب الله ، مؤكداً على إعجازه البياني فحسب ... ولنتدبر معاً هذه الآيات : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة التكوير : الآيتان ١٥-١٦). ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة الطارق : الآيات ١-٣).

هذا إلى عثور الكوزمولوجيين ، بعد بحثٍ طويل ، على التسمية الدقيقة لما كان يسمى خطأً بالفضاء الكوني ، أو الأثير ... فإذا بها تحديداً (الدخان) Smoke فيما يحيلنا إلى الآية

(١) المرجع نفسه ، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩٥-١٩٦.

الكريمة : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْمَرُوضِ إِنِّي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فصلت ١١
(سورة فصلت : الآية ١١).

مسألة مكشوفة واضحة لكل ذي عينين ، وهي أقدر على جعل الملاحظة والكفار والشكوكيين يعيدون النظر في رؤيتهم المادية للكون وخلائقه ، وأن التفريط بها لهي نوع من الهدر الذي عرفت به أمتنا عبر قرون انهيارها الحضاري ... فلماذا التشبث به !؟

مهما يكن من أمر فإن القرآن الكريم وهو يستعرض معطيات الشبكة الكونية ، يمارس تحديده للخلائق بقدرته المطلقة على خلق الكون العظيم هذا ... ولا أظن أن أحداً من عباده المخاليق بقادر على أن يرد على تحديده هذا ، خاصةً عبر القرن ونصف القرن الأخير حيث وجد كبار علماء الرياضيات والفيزياء والكوزمولوجي وفلاسفة العلم ، أنفسهم يفيئون إلى حظيرة الايمان ، وحيث يعود العلم بعد رحلة الشك والضلال لكي يلتقي بالدين ويتصالح معه ...

إن الإنسان المعاصر اليوم بأمر الحاجة إلى يقين ديني يعيد إليه وحدته الضائعة ، وسعادته المفقودة ، وأمنه المسلوب ... وما دامت القناعة المبنية على (الحقائق العلمية) هي اليوم من أكثر القناعات فاعليةً للتحقق بهذا اليقين ، وما دام كتاب الله يمنحنا هذا القدر الكبير المعجز من هذه الحقائق التي راحت تتكشف عقداً بعد عقد ، وقرناً بعد قرن ، فلماذا لا نتحرك على ضوء هذه المعادلة المؤكدة لإنقاذ الإنسان المعاصر من ورطته بفقدان اليقين !؟

إن العلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية أو يشكك فيها ، كما حدث في القرون السابقة ، وهو يعترف بأنه ليست له الكلمة النهائية في موضوع هو أكبر من حجمه بكثير. ثم يعود لكي يؤكد - بإمكاناته المحدودة - أن الحياة البشرية لا تستحق أن تعاش إذا نحن جردناها من بعدها الكبير الذي يتجاوز حدود المادة والحركة ... يعود العلم لكي يتعانق مع الدين ويتوظف لديه ... ذلك هو الانقلاب الكبير الذي شهدته فلسفة العلم المتمخضة عن الكشوف الأخيرة في مجال البحث العلمي ، وبخاصة الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري.

إننا نجد عدداً من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة ، وبالمقابل فإن الأجزاء الأخرى من الحقيقة ، الأجزاء الأشمل والأوسع والأعمق ، تندد بالضرورة عن قدرة العلم على الاحاطة. وهنا تبدو القيمة

الحقيقية للدين ... وان الذين يقولون هذا ليسوا عاديين ولا فلاسفة ولا أدباء ... انما رجال علم بارزون وهم يقولونه (بمنتهى الحماسة) وهي عبارة تحمل دلالتها ولا ريب.

بعد رحلة طويلة وشاقة في التاريخ ، يعود العلم ، بعد أن نما وشب عن الطوق ، لكي يلتقي بالدين ، واستبعدت الفكرة التي ترفض قبول كل ما لا يخضع للفحص والتحليل ، لأن الأجسام الفيزيائية نفسها أبت أن تخضع للفحص والتحليل ، ولم تسلّم لنا نفسها لكي نعزيها ثوباً ثوباً. كل ما قدمته لنا ، كما رأينا هو ملامحها الخارجية أما في الباطن ، على مستوى الحقائق النهائية للتركيب والماهية ، فلا جواب. وإذا كان ذلك كذلك ، إذا كنا نحكم على الأجسام من خلال تأثيرها ومؤشراتها ، فان هنالك في حياتنا البشرية ظواهر لا يحصيها العد تؤثر في صميم هذه الحياة ، وتمدّ مؤشراتنا إلى كافة الاتجاهات ، كالدين والجمال والأخلاق ... الخ ومن ثم فان نكرانها لمجرد أننا لم نعرف عن ماهيتها شيئاً ، لم نعرف سوى تأثيراتها وماهياتها ، يقودنا بالضرورة إلى إلغاء العلم نفسه ، لأنه لم يمنحنا سوى الكشف عن التأثيرات والمؤشرات ، أما الماهيات فلا جواب. ومن ثم كان لذلك الكشف الخطير على مستوى العلم الذي بلور أدينغتون ملامحه النهائية تأثير ايجابي عام على مستوى الحياة البشرية ... انها إرادة الله سبحانه وتعالى التي ركزت الايمان به وحده في فطرة بني آدم ، تعود بهم ثانية إلى ساحة الايمان ... تعود بهم من ألف طريق ... وها هو ذا حشد كبير من العلماء يرجعون إلى الله والروح والجمال والحق والخير كحقائق موضوعية مستقلة عن ذواتنا ، يرجعون من خلال منهج علمهم نفسه !!

إن نظرات المتصوفة لا تهمل ، كما يقول السير آرثر ادينغتون في ختام كتابه عن كيان الدنيا الطبيعية ، وان ملكات الإنسان التي يمازجها الشعور الديني هي من وقائع الكون ، إذا كان الإنسان قد استبقاها بفعل الانتخاب الطبيعي وفي ختام كتابه (فلسفة العلم الطبيعي) يقول : " نحن في العلم ندرك أن المعرفة ليست بالأمر الوحيد الذي نعتد به ، ونسمح لأنفسنا أن نتحدث عن روح العلم ... وان أعمق من كل قضية من قضايا النكران لهي العقيدة التي هي قوة خالقة أهم مما تخلقه ... وفي عصر العقل تظل العقيدة راجحة لأن العقل بعض مادة العقيدة ... " (١).

(١) العقاد ، عقائد المفكرين ، ص ٦٤-٦٥.

يقول شرودنجر في ختام رسالته " ماهية الحياة " : أود أن أوضح في هذا الفصل الأخير بالإيجاز أن كل ما علمناه من بناء المادة الحية يوجب علينا أن نكون على استعداد لأن نراها عاملةً على مثال لا يمكن اخضاعه لقوانين الطبيعة العادية وليس ذلك على اعتبار أن التركيب هنا يخالف كل تركيبٍ درسناه في معامل العلوم الطبيعية. ويختم شرودنجر رسالته بالتساؤل عن الشخصية والروح ، فقرر أن (الوعي) ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع ، لأن كل ما يمكن الجزم به هو أن الشخصية لا تتكرر ، وأنها قوام مستقل عن كل قوام^(١).

ويقول ليكونت دي نوي : " أن الإنسان الأمين الذي تتطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله سبحانه وتعالى إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب ، فان التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل. وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي ، وأنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب "^(٢).

وكان رسل والاس في شيخوخته يعتقد أن الكون المادي هو مظهر للكون الروحاني ، وأن في الكون الروحاني أنماطاً من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح الكامنة في الخلايا الحية ، وربنا تعذر ثبات هذه التقديرات بالبرهان القاطع ، ولكنها فيما نراه أصلح لتوضيح الوقائع من أي تقدير يأخذ به الماديون^(٣).

ويعول سير آرثر تومسون أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة ابردين ، كثيراً على تخفف الكثافة المادية واقتربها من (اللاموزونات) أي المعاني التي لا توزن كالفكر والعاطفة والعناية ... ويقول : اننا في زمن شقت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغو في التأويلات المادية ... وفي جوابه للسائلين عن عقيدته في " مجموعة العمل والدين " يقول " ... إذا كان العلم صيغاً وصفيةً ، وكان الدين في جانبه العقلي تفسيراً علوياً أو خفياً ، فلا موجب للتعارض الحاسم بينهما "^(٤).

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

(٢) عقائد المفكرين ، ص ١٠٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١٣ .

وقال روبرت بروم عضو الجمعية الملكية الانكليزية في مطلع الخمسينيات : " من نحو عشرين سنةً اهتم بعضهم بأن يبحث عن الآراء المادية التي شاعت بين الدوائر العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هل لا تزال على شيوعها ؟ أم أن الآراء الأخيرة عن بناء المادة ومذهب النسبية وعلوم الحيوان قد عدلت على صورة من الصور فلسفة رجال العلم في القرن العشرين ؟ فتبين أن فئة - مدهشة - بنسبة عددها إلى سائر أعضاء الجمعية الملكية قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحاني وعناية ربانية مهيمنة ، وان كثيراً منهم يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد "(١).

إن من القول الجزاف اليوم - يستخلص العقاد أن يقال : ان محسوسات المادة هي وحدها الوجود الحقيقي وأن المتكلمين عن أصول المادة ياتون بشيء أثبت من الكلام عن الأرواح والمجردات !! (٢).

أما سوليفان فيخلص إلى القول بأننا " بحثنا حتى الآن في حدود العلم باعتباره أسلوباً لاكتساب المعرفة حول الحقيقة وقد رأينا كيف أدت الحساسية الجديدة للعلم إلى الإقرار بأن ادعاءاته السابقة قد بولغ فيها كثيراً. لقد جعلت الفلسفة المبنية على العلم من المادة والحركة الحقيقة الوحيدة. وبهذا العمل فقد جرى استبعاد جميع العناصر الأخرى الواقعة في مجال خبراتنا. هذه العناصر التي تحمل المغزى الأكبر والتي تجعل الحياة في النهاية جديرةً بأن تعاش، قد جرى استبعادها على أنها محض أوهام. لقد بدا العلم لبعض المفكرين ، وربما لغالبيتهم ، أنه قد جعل الحياة قاتمةً على الرغم من كل المنافع العملية التي قدمها. وهكذا فاننا لا نجد ما يثير الدهشة عندما نرى أن النظرة العلمية الجديدة كما شرحها رجالٌ من أمثال ادينغتون وجينز ، قد لاقت اهتماماً واسعاً. لقد كانت المعتقدات الميتافيزيقية التي رافقت العلوم مدعاةً لليأس والقنوط "(٣).

ويختتم سوليفان تحليله بالقول بأن الفلسفة العلمية القديمة " جعلت الإنسان نفسه حاصلاً عرضياً محضاً للمادة والحركة ، والتي عرضت الكون على اتساعه وعظمته على أنه مجرد من

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩٧.

(٣) حدود العلم ، ص ٥١-٥٢.

الغرض تماماً ... ان المادة لن تكون أحسن حالاً لو افترضنا أن العالم الحالي يتجدد باستمرار ، ان دوافعنا الدينية لا يمكن أن يقنعها شيء أقل من الاعتقاد بأن للحياة مغزى خارقاً. وهذا الاعتقاد هو بالضبط ، ما جعلته الفلسفة القديمة أمراً مستحيلاً. وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الأهمية الحقيقية للتغيرات التي حصلت في العلوم الحديثة ليست في قدرتها المتزايدة على دفع عجلة تقدم الإنسان ، بل في تغير الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها ^(١).

ومعنى هذا - باختصار - أن الإلحاد والعلمانية ، قد أصبغا - على ضوء التقدم

العلمي - أمراً رجعيّاً !!

وثمة مسألة أخرى لا تقل خطورةً : أن الكشوفات العلمية الأخيرة حطمت جدار المادة وأطلت وهي توغل في صميم الذرة على عالم الروح الكامن في بنية العالم وتركيب الأشياء أن العلم هنا يلتقي مع الدين مرةً أخرى.

ولقد سبق لألبرت اينشتاين أن قال " الدين بدون علم أعمى والعلم بدون دين كسيح " ^(٢) فأختصر المسألة بكلماتٍ قلائل. ولقد جاءت مقولته تلك استناداً إلى اعتماد العلماء في الربع الأول للقرن العشرين على نظريتين اثنتين : النسبية والكم ، وتولدت منهما - بالفعل - معظم فيزياء القرن العشرين. لكن بسرعة وبساطة اعتمدت الفيزياء الحديثة نظرية ليست كالنماذج المعتادة ، وبدت أنها أفضل بكثير للعالم المادي ، وبدأ الفيزيائيون يدركون أن غالبية النظريات الأساسية للواقع تتطلب إعادة صياغة جذرية وفقاً للاكتشافات الجديدة ، حيث تعلموا إعادة النظر في بحوثهم وفقاً لطرقه. لم تكن مألوفةً ، ولم تكن متوقعة من قبل ، وبدأ الأمر قلباً للمنطق رأساً على عقب لصالح مفاهيم أكثر قرباً إلى الروحانيات منها إلى الماديات. وبالكاد أدرك الفلاسفة نتائج هذه الثورة ، ووجد الكثيرون من عامة الناس أيضاً ممن كانوا يبحثون عن معانٍ أكثر عمقاً لوجودهم ، ان معتقداتهم عن العالم تتناغم مع الفيزياء الحديثة على نحوٍ أفضل ، وبدوره وجد الفيزيائي أن أفكاره أخذت تلقى تفهماً أكثر لدى علماء النفس والاجتماع لدى معالجتهم لموضوعاتهم ، وللمفارقة فهم الذين يدعمون بشدة المقاربة الشمولية ^(٣).

(١) حدود العلم ، ص ٥٣-٥٤.

(٢) بول دافيز ، الله والفيزياء الحديثة ، ص ٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧.

" لطالما لمست - يقول بول دافيز - في محاضرات عامة ألقيتها ، وأحاديث كثيرة أدليت بها ، حول الفيزياء الأساسية ، شعوراً متزايداً بأن أساس الفيزياء أخذ يشق طريقه نحو تقدير جديد للإنسان ولمكانته في الكون. إن التساؤلات العميقة حول الوجود : كيف بدأ الكون ؟ كيف ينتهي ؟ ما الحياة ؟ وما العمل ؟ كلها ليست بالجديدة وإنما الجديد حصراً هو أننا ، أو لعلنا ، بتنا أخيراً على عتبة الإجابة عنها. ويعود تحقيق ذلك الاحتمال المثير إلى التقدم المذهل الذي أتيت لنا ، ليس من قبل الفيزياء الحديثة فحسب ، بل بفضل علم الفضاء الحديث أيضاً ^(١). "

" انني أرى العلم يطرح مساراً مؤكداً نحو وجود الإله ... فالحقيقة تبقى بأن العلم يتقدم بالفعل إلى منطقة كانت تعد سابقاً قضية محض دينية ، وان بإمكانه معالجة المسألة بجديّة. ويشير ذلك - في حدّ ذاته - إلى اتساع نطاق الفيزياء الحديثة ، وحجم نتائجها بعيدة المدى ... وليس من دافع وراء إخراج هذا الكتاب ، سوى قناعتي بأن هناك في العالم ما هو أكثر كثيراً مما تراه العين ^(٢). "

" لقد شهد الجزء الأكبر من التاريخ الإنساني ، تحوّل الرجال والنساء إلى الدين ، ليس من أجل التوجيّه المعنوي فحسب ، وإنما أيضاً بحثاً عن أجوبة لأسئلة أساسية حول الوجود ، كيف خلق الكون ، وكيف ينتهي ؟ وما أصل الحياة والجنس البشري ؟ ^(٣). "

" يقول الكاتب والمنتج التلفزيوني كيت بادلار : " بحق لقد كنت مخطئاً كبيراً ، ومن ثم بدأت في دراسة أعمال تمتع أصحابها بأسماء اسطورية : اينشتاين ، يوهن ، شرودنجر ، وديراك ، لأجد أناساً واقعيين ، بل شعراء ومنتدين ، تصوروا أبعاداً هائلة غير مألوفة ، تجعل ما أشرت إليه - على سبيل المقارنة كخوارق - أمراً سلساً للمهتمين . "

" وقد لاحظ عالم النفس (هارولد موروتيز) هذا الانقلاب الغريب بقوله : (الذي حدث أن الاحيائيين افترضوا - يوماً - دوراً مميزاً للعقل الإنساني في التراتيبية الطبيعية ، وأخذوا يتحركون بلا هواده في اتجاه المادية المتشدّدة التي ميزت فيزياء القرن التاسع عشر. وواجه الفيزيائيون ، في الوقت نفسه ، أدلة تجريبية ظاهرة ، فأخذوا يبتعدون عن النماذج الميكانيكية الدقيقة للكون ،

(١) المرجع نفسه ، ص ٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

نحو وجهة نظر تعتبر العقل لاعباً بارزاً وأساسياً في الأحداث المادية ، إن الأمر يبدو وكأن ثمة خطابين في قطارين يتحركان بسرعة فائقة في اتجاهين متعاكسين دون أن يلحظا ما يحدث عبر المسارات الأخرى" (١).

" ولسوف نرى في الفصول التالية كيف منحت الفيزياء الجديدة للمشاهد دوراً مركزياً في طبيعة الحقيقة المادية ، حيث باتت أعداد متزايدة من الناس تشعر بما لدى التقدم الحالي في العلم الأساسي من امكانية أكبر للكشف عن معنى أكثر عمقاً للوجود ... " (٢).

" إن تدفق الأفكار التي ولّدها التقدم الحديث في علم الفلك ، قد جدد ومنح - بلا ريب - وجهة نظر جديدة في النقاش الدائر حول الإله ووجود الكون " (٣).

" كيف يمكن لمجموعة من الذرات غير الحية أن تكون حية ؟ وقد جادل البعض باستحالة بناء حياة من الأرض ، وإنما ينبغي وجود عنصر إضافي غير مادي داخل كل شيء حي : قوة حياة ، أو جوهر روحي ، يرجع أساساً بأصله إلى الإله ، وهذه هي عقيدة المذهب الحيوي ، وثمة حجة استخدمت على نحو متكرر لدعم المذهب الحيوي ، تتعلق بالسلوك حيث يشكل التصرف بأسلوب يبدو هادفاً نحو غائية خاصة السمة المميزة للأشياء الحية. إن وجهة الهدف هذه ، أو الغائية واضحة تماماً في أشكال الحياة العليا ... " (٤).

يقول ستيفن هيلز (١٦٧٧-١٧٦١ م) : " طالما تأكد لنا أن الخالق الحكيم قد وضع ، في صنع كل شيء ، النسب الأكثر دقة للأعداد والوزن والقياس ، وبطريقة توضح احتمال الحصول على معرفة طبيعة تلك الأجزاء من الخلق ، ولهذا يجب إخضاع كل ما نلاحظه إلى التقييم والوزن والقياس " (٥).

(١) بول دافيز : المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

" إن الإله جدير بالثناء لخلقه لقوانين الطبيعة ، وخلق الأشياء ، الذرات ، الناس ضمن أشياء أخرى تشتغل عليها كافة هذه القوانين. إن سيناريو (الوليمة المجانية) يزعم أن القوانين هي كل ما نحتاجه ويمكن للكون بعدها الاعتناء بنفسه بما يشمل خلقه أيضاً" (١).

" إن وجود العقل - على سبيل المثال - كشيء مجرد وكلّي وذو نمط منظم وقدرة تحريرية أيضاً ، يدحض فلسفة الاختزال التي حولتنا جميعاً إلى لا - شيء ، سوى كوم من الذرات المتحركة" (٢).

فلنتابع جانباً من التحدي الكبير الذي يطرحه القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ ﴿ مَرَجَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ ﴿ ٢٩ ﴾ (سورة النازعات : الآيات ٢٧-٢٩) . ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَا مَرَجِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَمْرَجِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْتَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ (سورة الملك : الآيتان ٣-٤) . ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ (سورة الغاشية: الآيتان ١٧-١٨) . ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ ٨٦ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ٨٧ ﴾ (سورة المؤمنون : الآيتان ٨٦-٨٧) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ... ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٩٩) . ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَسْخُذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ (سورة الكهف : الآية ٥١) . ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨١) . ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٧) . ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٧) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَكَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٧) . ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٥٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ .

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿ (سورة يونس : الآية ١٠١) . ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ... ﴿ (سورة لقمان : الآية ١١) .

ويمضي القرآن الكريم لكي يتحدث عن مبدأ التسخير الذي أريد به تقديم الخدمات لبني آدم على الأرض وتيسير الحياة ، وهو مبدأ ينطوي على بعد حضاري خاصة إذا أضيف إلى مبدئي الاستخلاف والاستعمار بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية وسوف نرجع لتحليل هذه المبادئ الثلاثة لدى حديثنا عن بناء العالم في المنظور القرآني ، والمهم أن جانباً من الخلق الكوني أريد به التسخير المشار إليه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِلْقَوْمِ يَعْلَمُونَ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٧) . ﴿ ... وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ الْإِلَهِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ (سورة الأعراف : الآية ٥٤) . ﴿ ... وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ اللَّهِ ... ﴿ (سورة النحل : الآية ١٢) . ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿ (سورة الجاثية : الآية ١٣) . ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ (سورة النحل : الآية ١٦) . ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ... ﴿ (سورة لقمان : الآية ٢٠) . ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿ (سورة العنكبوت : الآية ٦١) . ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ... ﴿ (سورة البقرة : الآية ٢٢) .

وللقرآن الكريم وقفات ذات دلالة بالغة على الجد المطلق الذي خلقت به السماوات والأرض ، وعلى الحق الذي قامتا عليه ، والهدفية من خلقهما ، ومغزى إيجاد هذا البناء الهائل في اتساعه ، والمعجز في معماره المحكم ، والذي لا يخترقه الخلل والانحراف ، ولا تحكمه العبثية بأي معيار من المعايير وبأية درجة من الدرجات مهما دقت وضؤلت ... إن الله (جلّ في علاه) هو الخالق الأوحد الذي لا شريك له في الملك ، الأمر الناهي ، العليم الخبير بنواميس ما خلق ، وبدقائقه التي لا تتدّ عن علمه الشامل المحيط ... انها رؤية عادلة تقوم على المغزى الذي خلقت من أجله السماوات والأرض والذي يليق بجلال هذا الدين وإعجازه ، ويكتسح

كل أنماط العبث والغناء والفوضى واللاجدوى والتخبط والضلال التي أسرت بها نفسها ترهات الغربيين والملاحدة ، والمشككين منذ عهود اليونان وحتى العصر الحديث ، وتقلبت عبر العديد من الفلسفات الطائشة التي تسلّم إحداها الأخرى وتقودها إلى المزيد من الفوضى والعبثية والتخبط والعنمة والدجنة والضلال ، فيما يمكن أن نلاحظه بوضوح أشد في مذاهب كالسريالية والوجودية والعبثية الطليعية ... الخ ...

فلنرحل بعض الوقت في هذا التيار المعتم لنرى ما الذي أراد أصحابه أن يقولوه ... إن (البير كامي) أحد زعماء الوجودية الملحدة يطرح على خشبة مسرحه أبطالاً مغممين بالحسّ العبثي ازاء عالم^(١) غير معقول ، لا يقوم على أي أساس من المنطق. عالم بلا هدف ولا مصير معلوم ، علاقته بالإنسان علاقة مجنونة مترعة بالغموض والفوضى ... ان الناس يولدون ثم ما يلبثون أن يموتوا وهم ليسوا سعداء ... لماذا ؟ إن هذه الواقعة المأساوية هي التي تأسر لب أبطاله جميعاً وتسوقهم إلى العبث : (ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى).

في مسرحية (كاليغولا) يبدأ البطل بالقتل العمد والاضطهاد والاعتصاب وتحدي القيم والمقدسات ، إنه يريد أن يستغل سطوته كإمبراطور لتغطية العالم بالعبث الذي هو الأسلوب المنطقي الوحيد لمقابلة عالم لا يعرف المنطق. إنه يريد أن يعيد صنع العالم لأنه فهم ذلك (إن أعمال القتل - أياً كانت - تتساوى في الأهمية أي أنها لا أهمية لها قطعياً ، وان الناس مذنبون جميعاً بقدر واحد لأنهم من رعايا كاليغولا ... وأنه يجب أن تعتبر الحياة لا شيء ، وأنه سواء أبقى المرء مستيقظاً أم نام ، ما دام عديم الأثر على نظام العالم ... وأخيراً فإنه لا توجد إلا وسيلة واحدة تجعلنا مساوين للآلهة وهي أن لا نقل عنها قسوة وضراوة. إن كاليغولا يقول (اننا لا نفهم الفضاء ، ولهذا فقد جعلت من نفسي قضاءً ومن ثم يبدأ بالقتل لأنه أعمى ويشعر بالملل والسأم عندما لا يقتل ... (كاليغولا أنت أيضاً ، أنت أيضاً مذنب ... إنني لا أصل إلى شيء ، إن حريتي ليست الحرية السليمة)^(٢).

وفي مسرحية (سوء التفاهم) تقول مارتا : (إن ما هو إنساني عندي هو ما اشتبهه ، وللحصول على ما اشتبهه اعتقد أنني سأحطم كل شيء يقف في طريقي) إن هذه العبارة هي

(١) سترد كلمة (العالم) في كثير من الأحيان بدلاً من (الكون) والمعنى واحد.

(٢) البير كامي : العادلون ، ترجمة وتقديم : بسيم محرم ود. ريمون فرنسيس ، المقدمة ، ص ٢٠.

مفتاح مسرحية (سوء التفاهم). إن الإنسان الذي يقف وجهاً لوجه أمام عبث عالمه وسخفه لا يجد أي مبرر لتمسكه بقيمة ما من القيم الإنسانية العتيقة البالية التي عفا عليها الزمن ، والتي باتت تقاتتها ولا جدواها عندما تمزق الغطاء الأخير عن عبث العالم ... إن مفهوم كامي عن العالم الذي تحرك فيه الضرورة آلاتها شداً وجذباً وفق منطق أعمى ، هذا العالم ليس فيه مجال للإمهال أو التأجيل ، إن الإنسان في ذلك العالم ضحية للحريات التي اكتسبها ... ستوجد دائماً مارتا تقوم بدور القضاء لتقودنا إلى حيث لم نكن نريد أن نذهب ... ان العالم نفسه ليس معقولاً!!^(١).

إن العالم الذي يحاصره الطاعون ، اي يحاصره الشر ، أي يحاصره العبث ... ان الحياة تساوي الموت ، والإنسان خشب يستعمل في الوقود والأفران ، والرجال يتم نضجهم لمواجهة المصائب ، وخير للمرء أن يكون شريك السماء من أن يكون ضحيتها ، وينبغي ألا نؤمن بأي شيء في هذا العالم سوى الخمر ... إن صيحته هي : الموت للعالم ! حطّموا كل شيء ! يجب أن نلغي كل شيء ... الإلغاء والإطاحة هذا هو انجيلي !

ماذا يعني كامي باللامعقول ؟ اللامعقول بمعناه الواسع هو ما لا معنى له. العالم لا معقول وكذا الإنسان ، واللامعقول بمعناه الضيق لا يعني العالم ولا الإنسان ، وإنما يعني الصلة بينهما، وهذه الصلة صلة مواجهة ، صدام الوعي الإنساني بالحائط الذي يضيق الخناق عليه. واللامعقول ينتج عن صدام الوعي نفسه ، ذلك الصدام الذي يجعل الوعي يستكشف فناء رغباته. أكثر من ذلك اللامعقول هو هذا الصدام ، هذا الانفصام المفاجئ ... لا يصح إذن أن نقول : أن العالم لا معقول بل يجب أن نقول إنه منافٍ للعقل.

إذا تجاوزنا مقولات عدد كبير من الكتاب العبثيين : سلاكرو وهارولد بنتر وديرنمات وبيترفايس وجننا إلى معطيات كتاب المسرح الطبيعي المعاصر : صموئيل بكت ، ويونسكو ، وآداموف وديرنمات ... فاننا سنجد تأكيداً يكاد يكون كاملاً في التعبير عن رؤياهم لعبث الكون ولا معقوليته ، والخيط الذي يشد مسرحياتهم جميعاً هو الذي عقد كامي بدايته وترك طرفه الآخر ليهتدي إليه من يريد أن ينسح على منواله نواحاً على مصير الإنسان في كون مجنون !

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠.

إن كتاب الطليعة هؤلاء قد غدوا مدرسة مستقلة عبر العقود الأخيرة تقوم أول ما تقوم على القواعد التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً ، وهي الفوضى والعبث واللامعقول. ويذكر (ريتشارد كو) في كتابه عن يونسكو " كيف أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت إلى السطح ، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسرالية والتعبيرية والدادية والوجودية ، وكلها حركات تسعى بطرائقها الخاصة إلى إلغاء الضوء على موقف الروح الإنساني في كون غاب عنه المنطق ، وعندما يختفي المنطق تختفي أيضاً مبررات الوجود. وهكذا نرى أن يونسكو - مثل كامى وسارتر - يرى في وجودنا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة. انها حقيقة ولكنها حقيقة عبثية ، فالوجود الذي لا يبرره منطق عبث ... ويمضي ريتشارد كو يبين كيف سعى مسرح الطليعة إلى إلغاء النظرة القديمة (الكلاسيكية) إلى قواعد الكون الأساسية. الزمان والمكان ووحدة الشخصية ، وكيف أنهم كتبوا : (دراما) الساعات (المكسورة) بمعنى أن أبطالهم يعيشون في عالم توقفت ساعاته. وحين يفقد الإنسان الشعور بالزمن تصبح (السن) كلمة لا معنى لها ، وما دمنا قد محونا الزمن فقد محونا (تراكم التجارب) التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة. وقوانين المكان من ناحية أخرى لا معنى لها : فهي تعسفية ، وصدقها وكذبها رهن بالإنسان الذي يدركها. وغياب التتابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشخصية فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاسيكيون ، وانما هي حالات دائمة التغير يتبع بعضها بعضاً ، وما يقوله (م) يمكن ببساطة أن يقوله (ب) دون أن ينجم عن ذلك ضرر كبير ... إن (الأنا) ما هي إلا انعكاس للعالم الخارجي ، أو أن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير ، ففوضى الأول وتشتته تتبدى في الثاني على نطاقٍ أوسع ، وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين^(١).

ويبين يونسكو - بعبارة واضحة - تهافت الشخصية الإنسانية لأنها ليست - بعد أن تكتشف عبث العالم - سوى قطعة من ملايين القطع التي يعبث بها الكون (إن كل شخصياتي

(١) عرض ماهر شفيق فريد ، مجلة المسرح ، العدد ٩ ، ص ٨٣.

على خصام مع الدنيا ، حين كانوا أكثر شاعرية وأكثر فلسفة وأكثر ميتافيزيقية ، أما الآن فقد غمرهم القلق التاريخي الذي يسود العالم وتورطوا فيه) .

من رؤية كهذه تأخذ بخناق كتاب العبث " ينبثق أحياناً احساس بأن كل شيء مضحك مزر . وأحياناً أخرى باليأس لكون العالم سريع الزوال ، موقوتاً ، عارضاً إلى هذا الحد ... فهو عالم يبدو كأنما لم يعد فيه شيء ، ولم يعد فيه أساس ينبني عليه أي شيء . شيء واحد فقط هو الذي يظل ماثلاً في الوعي بكل حدة : التمزيق المستمر لقناع المظاهر ... الدمار الذي لا ينقطع لكل ما يبدو راسخاً ومكيناً ، بحيث لا يعود هناك ما هو قائم ومتماسك ، والكل يغدو حطاماً " (١) .

والموت ما موقف كتاب الطبيعة منه ؟ لقد رأينا كيف أن كامى اعتبره مأساة المآسى وواقعة الوقائع ، وأم الأحزان ، وأنه السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى (ما دنا سنموت فليس لأي شيء معنى) وارتكن إليه في القول بعبث العالم ، إذ لو كان العالم مجدياً (فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء ؟) . إن يونسكو رائد اللامعقول يقف - كبقية رفاقه - أمام الموت يتأمل . وتشيع هذه الوقفة في فنه ، على الأخص في (قاتل بلا أجر) و (الملك يحتضر) ، كما تشيع في (الأيام السعيدة) لصموئيل بكت " والموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها ، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثاً وسخفاً . فضلاً عن أنه في حد ذاته لا معنى له . وقد عبر احساس يونسكو بالموت عن روح العصر ... العصر الذي مضت النازية تحطم الإنسان فيه ، والقيت على هيروشيما القنبلة الذرية ، ثم ظهرت القنبلة الهيدروجينية مهددة الوجود بالدمار الشامل في كل لحظة ، وبإحالة كل وجود البشر إلى أنقاض وعدم ، ولهذا يقول يونسكو : إن الواقع كابوس مؤلم لا يطاق . أنظروا حولكم ماذا تجدون ؟ حروباً ودماراً ، ويلات وأحقاداً ، واضطهادات ، والموت لنا بالمرصاد . لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت . الأمر مخيف ، ولا يمكن أن يحمل محمل الجد ... ضربات مفعمة بالأسى على نفس الوتر الذي عزف عليه كامى من قبل . وإذا كان كامى قد رأى في الموت واقعة ميتافيزيقية تستل الأفراد من الوجود استتلاً ، فان الطليعيين رأوا في الموت فضلاً عن ذلك ، واقعة لا حضارية ، عملاً بشرياً

(١) خمس مسرحيات طليعية ، ترجمة وتقديم : شفيق مقار ، ص ١١-١٣ .

إرادياً ينتزل عن الإنسان والجماعات والشعوب ، من الإنسان نفسه على شكل حروب مدمرة ، أو قنابل لا تبقي ولا تنذر. إلا أن الطليعيين سرعان ما يعودون إلى زاوية رؤياهم الميتافيزيقية ، الأشد أسى ، والأعمق دلالة على عبث الكون : لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت ! الأمر مخيف ولا يمكن أن يحمل محمل الجد^(١).

أما كتاب الله فانه يبحر بالجد والحسم القاطع في زاوية مغايرة لهذا العبث بنسبة ١٨٠ درجة ، فلنتابع بعضاً مما يقوله هذا الكتاب المعجز : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَاتَّخِذَنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ (سورة الأنبياء : الآيات ١٦-١٨). ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١١٥). ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْكَاذِبِ ﴾ (سورة ص : الآية ٢٧). ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ (سورة الدخان : الآيتان ٣٨-٣٩). ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣). ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَأَيُّ خَلْقٍ أُنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسَخِّدُوا الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (سورة الكهف : الآية ٥١). ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ... ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ٧١).

ها هنا نجد أنفسنا ازاء الجد في أقصى درجاته وضوحاً وحساً وتألقاً ... فليس ثمة في خلق الكون أيما فرصة على الاطلاق للعبث ... ليس ثمة أية مساحة على الاطلاق للعب ... ليس ثمة أي مجال على الاطلاق للهو ... بل هو الحق المطلق الذي يقذف به على الباطل الذي يتخيله المخاليق ، فيدمغه فإذا هو زاهق ... فلم يكن خلق السماوات والأرض باطلاً، وحاشا لله ... ذلك ظن الذين كفروا ... أولئك الذين جرفتهم ظنونهم واهواءهم إلى الضلال ، ولو اتبع الحق

(١) د. نعيم عطية : الخطوط العريضة في مسرح يونسكو ، مجلة المسرح ، العدد ١١ ، ص ٩٥ عن يونسكو : ملاحظات وملاحظات عكسية ، ص ٩١.

أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ... وصدق الله العظيم ... وجلّت قدرته المعجزة على خلق الكون بهذا القدر المدهش من الانضباط والإحكام ...

إنها الرحلة المنطقية المرسومة بحسابٍ دقيق ، والماضية إلى أجلها المسمى في علم الله الأزلي ... كل صغيرة وكبيرة ... كل شيء في هذا العالم على الاطلاق بعناية الله (جلّ في علاه) بدءاً وصيرورةً وانتهاءً ... فليس ثمة أية مساحة على الاطلاق للعبث واللعب واللغو الذي يتخيله ادعاء الفكر الطبيعي من الكتاب والأدباء والفلاسفة العبثيين الذين تسوقهم ظنونهم واهواؤهم إلى الإبحار في الاتجاه المعاكس تماماً لنواميس الكون والعالم ... ومن ثم يجيء التنديد بهم وبمقولاتهم ... فهذا هو ذا كتاب الله يخاطبهم ويقرّعهم بأقصى صيغ التنديد والويل : ﴿ ... وَكُفُّوا أُولَئِكَ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ١٨) . ﴿ ... قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ !! (سورة ص : الآية ٢٧) .

والموت الذي قال عنهم زعيمهم كامي أنه يجرد الحياة من الجدوى ، ويلغي ما في بنية الكون من منطق ، ويؤول بالحياة إلى العبث الذي لا ينطوي على أي قدرٍ من الحكمة ... الموت الذي يجيء هكذا على حين غفلة ، يضرب ضربته المفجعة ويغيب عن العيان ... الرياضيات الدامية حيث لا معنى للحياة والموت واقفٌ لنا بالمرصاد ... وإذا كانت حياة اي واحدٍ منا تنتهي بضربة كهذه فهي المعادلة المفجعة التي تسحّ دماً !

فها هو ذا الموقف الايماني الذي يتألق أكثر ما يتألق في مواقف كهذه ... ولذا أمرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " بزيارة القبور ، وتشجيع الموتى " ، هنالك حيث تتمزق الأفتنة وتتساقط البهارج ، وتتعرى الحقيقة ، ناصعة بيضاء ، بلون الأكفان التي تلف الأجساد وهي تودّع الدنيا ...

في الدين ، يتحول الموت إلى شيءٍ آخر تماماً ، شيء مبرر ومنطقي ومرسوم ... شيء في محله تماماً ... ضروري كضرورة الحياة نفسها ، حتمي كحتمية الكهولة والشيخوخة بعد الطفولة والصبا والشباب ... موقف (علمي) إذا صحّ التعبير ما دام أن منحنى الحياة الإنسانية يقتضي ، في مرحلة المغيب ، هذا الانحدار السريع الفجائي نحو الظلام.

في الدين يتحول الموت إلى رياضيات عادلة بمعنى الكلمة ، سواء وضعناه في معادلة من الدرجة الأولى أم من الدرجة الرابعة ، فالنتيجة محسوبةً بمنطق رياضي صارم لا يخطئ ولا يضل !!

ماذا لو بقي الإنسان حياً لا يموت ؟ مجرد فرض مناقض لمقولات علم الحياة ... أوجد في تاريخ بني آدم موقف (لا أخلاقي) ، ناهيك عن لا علميته ، يوازي هذا الموقف في شناعته ؟ أن يظل الإنسان حياً لا يموت ، بمجرد أن نتذكر صفاً من الطغاة الذين ظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجلدون المغلوبين والمستضعفين ، ويحصدونهم وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم هناك على بعد خطوات ؟ ماذا لو تأكد أي واحد من هؤلاء الطواغيت أنه باقٍ لا يموت ، حي خالد لا تسري عليه قوانين الفناء !؟

شيء مرعب حقاً ترتعد له الفرائص ... ان يظل الطواغيت خالدين ، وأن يظل بنو آدم دونهم محتبي الظهور ، عراة ، يجلدون ويحصدون !؟ وبمجرد أن نتذكر في مقابل هذا حشوداً من المضطهدين ، المطاردين ، الذين ظلوا يجلدون حتى آخر لحظة فلم ينقذهم إلا الموت ... نتذكرهم هكذا يتلقون السياط إلى أبد الأبد ، دون أن تتاح لهم فرصة الردّ والانتقام بسبب طبيعة المرحلة التاريخية التي وضعتم هنا ووضعتم الطواغيت هناك ...

وبمجرد أن نتذكر كيف أن مئات ، بل ألوفاً وملايين ، من المظلومين والمستضعفين ضاعت حقوقهم ولم ينالوا على ما قدمت أيديهم أي جزء ... ولو طال بهم السرى لازدادوا مسغبةً وضياًعاً ... بينما يقف في المقابل مئات والوف من الظالمين والمستعبدين والمتخمين ، كانوا لولا واقعة الموت ، سيزدادون تخمةً وظلماً واستعباداً ... وليس ثمة من يأخذ من هؤلاء لهؤلاء ، ومن ينصف هؤلاء من أولئك ... قد تقع ثورة وثورتان وثلاث ، وقد ينتصر المستعبدون هنا وهناك وهناك ... وقد تسود قيم الحق والعدل في هذا الموقع أو ذاك ... ولكن رغم هذا كله ، فستظل أعداد هائلة من الذين لم ترد إليهم حقوقهم ، بعيدة عن قبضة الحق ، غير قادرة على استرداد حقها المسلوب ... بل ان ظلماً جديداً وأفواجاً مستحدثة من المظلومين تبرز إلى حيز الوجود في صميم الثورات نفسها ... فتضيع !

وتجيب واقعة الموت لكل ترد الطرفين إلى مولاهم الحق ، الذي يعرف الله سبحانه وتعالى كيف ينتقم للمظلومين من الظالمين ، وكيف يضع الموازين القسط التي ما عرفت الحياة البشرية - على ادعائها - طعمها العذب ...

إن الموت هو ذلك الوسيط الذي لا بدّ من مجيئه إذا أريد لقيم الحق والعدل أن تتحقق في صفحة الكون كله ... يجيب فيحيل كافة القضايا المعلقة إلى القاضي الأكبر الذي يعرف كيف يسوي الحقوق ، وكيف يرفع رؤوس المظلومين ، وكيف يدس أنوف الطواغيت في نار جهنم ورمادها ! ومن ثم نعرف كيف يكون الموت رياضيات عادلة من أية زاوية نظرنا إليه ... ولا يخطر على بال أحد أن تحليلاً كهذا يقود إلى دعوة المظلومين لإلقاء السلاح بانتظار حكم الموت ، بل على العكس تماماً ... إن حتمية الموت تعجل بثورتهم وتمنحهم قدرة أكبر على اجتياز المخاوف ومجابهة الخصم الذي سيقتلهم أو يقتلونه ... وفي الحالتين سيكونون هم المنتصرين !

وعلى هذا الضوء نعرف كيف تمكن أجدادنا الفاتحون من تغيير خرائط العالم والتفوق على قوى تفوقهم بكثير ، ودك عروش كانت قد استعلت على المستضعفين قروناً وقروناً ... ليس ثمة لعب أو لهو وحاشا لله ... إنما هو الحق الذي خلقت به السماوات والأرض وأقيم عليه بنيانها المعجز ... وإنما هو الأجل المسمى الذي سيؤول إليه كل شيء في هذه المنظومة الهائلة من الخلق ... وإنما هو جدل الحق والباطل ، وانتصار الحق وضياح الباطل ... وإنما هو الويل والثبور والهلاك لكل الذين غطي على أعينهم ، وطمس على قلوبهم ، فلم يعودوا يرون (الغاية) النهائية لمبدأ الخلق ، أو يعاينوا مصائر الأشياء والأقوام والجماعات. إنه القصد المحكم من خلق الكون والإنسان ، والفرصة المحددة بأجلها للحياة الدنيا ... وبعدها سيكون ما يكون في علم الله الأزلي من انقلاب كوني عظيم تتغير به الخلائق والأشياء ... ويقف الإنسان عارياً أمام حساب الله العادل الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

إنه الجدّ الذي تقوم عليه السماوات والأرض ، وتمنح الحياة والموت للإنسان مغزاها ، لأن الذي سيجيب بعد ذلك هو الذي سيحدد المصائر والمقدرات ، وهو الذي يسوق الإنسان إلى جنة

أو نار استناداً إلى طبيعة تعامله مع هذا الجدّ ، وخضوعه لسننه ونواميسه ، أو تمرده عليهما ...

إنه أشبه المعادلات الرياضية أو الفيزيائية الصارمة التي لا تقبل مباحكة ولا جدلاً ، والتي تخرج من مقولاتها أية لمسة من لهو أو لعب ، والتي تضع الموازين القسط لكل صغيرة أو كبيرة في بنية الكون والحياة. وإنما الموازين الكبرى التي خلقت بها ولها السماوات والأرض والحياة ، والتي سيرت بها السماوات والأرض والحياة ، والتي ستؤول إليها السماوات والأرض والحياة : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الرحمن : الآيات ٧-٩) ... فما من صغيرة ولا كبيرة في سلوك الإنسان في هذا العالم إلا وهي محالة على هذا الميزان الكبير الذي خلقت به وله السماوات والأرض.

إن مفردات هذه الآيات تعكس هذا الجد الكامل في الخلق ، والذي إذا أحلنا عليه الرؤى والمذاهب والمعطيات الوضعية الكافرة التي لا تعترف بالله ، وترفض الايمان بالأديان المنزلة من عنده سبحانه وتعالى ، يتبين مدى عبثها وتناقضها وتهافتها ولعبها ولهوها ! ولكن على حساب من هذا كله ؟ أليس على حساب الإنسان نفسه ؟ فما هي الأمم والجماعات والشعوب التي تبعت هؤلاء الأرباب من صنّاع الإلحاد ، واستعبدت أنفسها وعقولها لأهوائهم وظنونهم وعبثهم ، تخسر الكثير الكثير من الجهد والزمن وهي تلهث وراء هؤلاء الآلهة المزعومين ، ثم ما تلبث أن تنفض يديها منهم بعد إذ يتبين لها كذبهم ودجلهم وتألهمهم في الأرض.

وتجئى بعدها دورة جديدة من الضياع ... من أجيال المستعبدين الذين أسروا أنفسهم في عبادة الزعماء والأرباب ، والذين ما يلبثون هم الآخرون أن ينكشف لهم الزيف والخداع ، فينفضوا أيديهم ويتمردوا على الآلهة والأرباب !!

تلك هي بإيجازٍ شديد ، مأساة البشرية الضالة التي لم تفتح بصائرهم جيداً على (الجدّ) الذي خلقت به السماوات والأرض ، والتي طمس على أعينها فظنت الأمر لعباً ولهواً فما لبثت أن تعرضت للتعاسة والضياع ... ولن تجد نفسها وأمنها وسعادتها المفقودة ، إلا بأن تتمرد على هذه الرؤية العوراء ، التي لا تكاد ترى شيئاً من قصدية الخلق وغائيته وموازينه الثقيلة ، فتنصت بسمعها وبصرها وعقلها وقلبها وفؤادها للإنذار الإلهي ، الذي يعلن بأكثر الكلمات قوةً ووضوحاً

وحسماً أن حياة الإنسان في هذه الأرض مرسومةً بالدقة والجد ، محكومة بالموازن القسط ، ومسيرة صوب يوم الحساب : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ؟! (سورة المؤمنون : الآية ١١٥).

ومع كتاب الله ، ثمة شبكة خصبة من شهادات العلماء والفيزيائيين وفلاسفة العلم الحديث ، تؤكد جميعاً جدية الخلق الكوني ، وغائيته وتكنس في طريقها غثاء وعبث الأبداء الذين يحكمون بالظن والهوى ، وليس بأدوات العلم ومنهجيته كما يفعل العلماء .

فمن الواضح تماماً أن هناك عمليات معينة تقوم بها بعض الأجسام الحية بناء على تصور مسبق لغاية ما ، وتصور طريقة معينة لبلوغها وتحقيقها. ولا يمكن حل المشكلة إذا جرى تجاهل فكرة الغاية لمجرد أن هناك عمليات أخرى يقوم بها الجسم الحي ، ويمكن تفسيرها في نطاق قوانين الفيزياء والكيمياء. ان وجود المشكلة في حد ذاته لم يعترف به ، بل جرى رفضه باستمرار .

بناء على ذلك فإننا نجد صعوبة تفسير النشاط الحيوي بعيداً عن (النظام الغائي) الذي يضبط أنشطته ويسيرها إلى هدفها المرسوم ... ومحاولة غير مجدية من علماء الحياة لاستبعاد الغائية ، واعتماد أساليب العمل في حقول الفيزياء والكيمياء التي ترفض الاتكاء عليها ... تلك الأساليب التي قد تحقق بعض النجاح ، ولكنها لا تحل المشكلة من أساسها ... إذ يبقى التعامل مع الحياة هو غيره مع الذرات والجزيئات ... ومن ثم يطرح (وايت هيد) تحفظه حول ضرورة الاعتراف ، بشكلٍ أو بآخر ، بوجود تصور مسبق لغاية ما يفسر العملية الحيوية. كما أن الخطأ يكمن في موقفنا من المشكلة ، في (كون العقول ضعيفة) كما يعبر سوليفان ، هذا الموقف الذي يسعى إلى معالجة الحياة بعيداً عن فكرة العلة النهائية ، وهذا أمرٌ له مخاطره ، ولا يمكن أن يكون مبرراً لتجاهل مشكلة حقيقية.

هذا إلى أن نظرية الانتقاء ، أو الاصطفاء الطبيعي ، على فرض التسليم المطلق بها ، لا يمكن أن تفسر ولا أن تبرر إلا على ضوء وجود علة ، أو قوة ما ، تسوق الحياة والأحياء في سلم التطور صوب الأحسن والأرقى ... وإلا غدت العملية في أساسها لغزاً مبهماً ، الأمر الذي دفع بعض العلماء إلى البحث عن بعض المفاتيح مثل (القوة الحيوية) أو (قوة التحقق) أو

(الروح) وما إلى ذلك. لكنهم لم ينجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها ، بحيث يمكن استخدامها في الأغراض العلمية ، وبقيت المصطلحات شاهداً على أن المفاهيم الأساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية. ولو قالوا : الله ، لحت الأحماس والألغاز ، ولوجدوا أنفسهم يتحركون في الطريق الصحيح لفهم معادلة الحياة المعجزة !!

فها هو ذا العلم يقول كلمته ، ويعلم من قلب المختبر ، أنه بدون تصور غائي للحياة والعالم والإنسان ، فانه ليس ثمة أمل في فهم الحياة والعلم والإنسان ... إن العلاقات والاستطرادات السببية قد تفسر جزئيات من هذه الأقطاب ولكنها لا تحل قضاياها الكبرى ... إن المادية التاريخية نفسها ، توأم الديالكتيكية ، تجد نفسها مسوقة إلى نوع من الغائية يتحرك من خلالها التاريخ نحو الأحسن ، وهي لو أعطت الجماعة البشرية ، أو الطبقة ، الحرية المطلقة في صياغة ظروفها التاريخية ، وصنع مستقبلها ، لذهبنا معها إلى رفض الغائية ، ولكنها تمنح مساحة واسعة في إمداد التاريخ لما تسميه بالضرورة التاريخية ... الحتمية التاريخية. وما دام الأمر كذلك ، ما دام أن هناك شيئاً ما خارج وعي الإنسان وإرادته ، يتحرك بعقلانية صوب الأحسن ، فلا بد أن في الأمر غاية ما ، قوة ما ، هي التي تسيّر التاريخ ، وفق المادية التاريخية نفسها ، في هذا النظام الفذ العجيب صوب غاياته الإنسانية.

لقد كتب الكثيرون عن معجزة الخلق ، وقطع حشود من العلماء أعمارهم بحثاً وتنقيباً لكي ما يلبثوا أن ينتهوا إلى إحدى المسلمات الكبرى في تاريخ العلم : إنه لا بد للخلق من خالق ... مسألة لا تقبل لجاجة ولا إنكاراً ... إن الخلق ما دام على هذه الدرجة من النظام والضبط والدقة والتوافق والحركة المرسومة والهدف المقصود ، والارتباطات الهادفة ، فانه لا بد أن يكون صدوراً عن إرادة فوقية قادرة مدبرة ... انها مسألة محسومة برياضيات العلم ومعادلاته ... والشواهد كثيرة ، والنتائج التي يتمخض عنها السعي العلمي الجاد لا تعد ولا تحصى ... ومع ذلك فسوف نعرض لعدد فحسب من النتائج والشواهد التي يمكن أن تكون مجرد نماذج لمئات ، بل ألوف غيرها في هذا المجال.

إن أ. كريسي موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلم بنيويورك يقول في كتابه (العلم يدعو للإيمان)^(١)، " إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حدّ له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم ، غير أن تحطيم ذرة دالتون - والتي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون - إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائفة ، قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون تبديلاً جوهرياً. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي ، وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة. وهذا ضوء يلقى على الخفاء الواسع. الذي يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهرياً ، وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام أسمى ، أي إلى وجود الخالق "^(٢).

" لقد جاء نظامنا الشمسي من خليط مضطرب للعناصر التي انفصلت عن الشمس عند درجة حرارة قدرها (٤١٢٠٠٠) وتبعثرت في فضاء غير محدود ، بعنف لا يتصوره العقل. وقد أحل النظام محل الفوضى بدقة تجعلنا نستطيع أن نقدّر ب (الثانية) المكان الذي سيحتله أي جزء. وبلغ التوازن من الكمال إلى حدّ أنه لم يعتوره أي تغيير في مدى بليون سنة ... كل ذلك بحكم قانون ، وبهذا القانون يتكرر هذا النظام الذي نراه في النظام الشمسي في نواحٍ أخرى "^(٣).

" إن الأوكسجين والهيدروجين وثنائي أوكسيد الكربون - سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة بعضها مع بعض - هي العناصر البيولوجية الرئيسة. وهي عين الأساس الذي تقوم عليه الحياة. غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين ، تقضي بأن تكون كلها في وقتٍ واحد في كوكب سيار واحد ، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ! وليس لدى العلم ايضاح لهذه الحقائق. أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة ، فهو قول يتحدى العلوم الرياضية "^(٤).

" إن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب ، والحق أنها طائفة ! والحياة تدفع إلى الأمام ، بانية مصلحة

(١) ترجمة : محمود صالح الفكي ، ط٤ ، مكتبة النهضة ، (القاهرة-١٩٦٢م).

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٦-٤٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٩.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٧٣.

متوسعة ، وخالقة ما هو حديث وما هو أفضل ، بنشاط لا يفتر ولا مثيل له في الأشياء الجامدة.
فهل هذا ناشئ عن إدراك ؟ أم عن غريزة ؟

أم أنه أمر يحدث فحسب ؟ يمكنك أن تجيب عن ذلك بنفسك ، بيد أنك قد تقول الآن : إن كل ما ورد في هذا الفصل لا يفسر لنا كيف بدأت الحياة أي كيف جاءت إلى الأرض. والكاتب لا يعرف كيف ، ولكنه يؤمن بأنها جاءت كتعبير عن القوة الإلهية وبأنها ليست مادية ^(١).

" ونحن إذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا ، وفي الزمن الذي لا بداية له ، وفي الطاقة المفيدة والمحبوسة في الذرة ، وفي الكون الذي لا حد له بعوالمه التي لا تحصى ونجومه التي لا تعد ، وفي الاهتزازات التي نسميها بالضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية ، وفي النشاط المستمر للنجوم ، وفي الجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم. إذا فكرنا في ذلك كله ، أدركنا أننا لا نعرف في الحق إلا القليل ، فإلى أي حد يجب أن يتقدم الإنسان حتى يدرك تماماً وجود الخالق الأعلى ، ويحاول أن يرتفع إلى أعلى ما يستطيع بلوغه من الفهم دون أن يحاول تفسير حكمة الله ومقاصده ، أو يصف الصفات التي له تعالى ^(٢).

" والإنسان إذ يقترب من الإدراك الكامل للزمن ، يقترب في الوقت نفسه من إدراك بعض قوانين الكون الأبدية ، ومن معرفة الخالق سبحانه وتعالى. وما لم توجد حياة عقلية أخرى في بعض نواحي الكون ، فإن الإنسان ينفرد وحده بمعرفة الزمن. ومن سيطرته على الزمن تقرب به من شيء اعظم من المادة. فمن أين تأتي هذه القفزة العظيمة التي يقفزها الإنسان بعيداً عن الفوضى ، وعن جميع تركيبات المادة ، وعن كل الكائنات الحية الأخرى ؟ انها لابد أن تأتي من شيء أسمى من المصادفة ^(٣).

" إن أية ذرة أو جزيئة لم يكن لها فكر قط ، وأي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأي أبداً. وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية. ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزيئات المادة بدورها ، ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم. فما هو هذا الكائن الحي ؟ هل هو عبارة عن ذرات أو جزيئات ؟ أجل ماذا

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٧.

أيضاً؟ شيء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكنه رؤيته ولا وزنه ولا قياسه. وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه. إن روح الإنسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها. وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أي حيوان آخر ولا يحتاج إليه ، فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة لا لشيء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو انما يزعم زعماً لا يقوم عليه برهان. إنه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله وبتضحياته ، وبسيطرته على المادة ، وعلى الأخص بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع الله. هذه هي خلاصة القصد الرباني ، وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الإنسان ، للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وفيها كشف عن أساس حافزه الديني. هذا هو الدين^(١).

ويقول الدكتور فرانك ألن ، عالم الطبيعة البيولوجية وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا من سنة (١٩٠٤م) إلى سنة (١٩٤٤م) أخصائي في البصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا : " إنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء ، قوي ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه : إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية ... ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السرّ العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً. إنه العقل اللانهائي ، وهو الله وحده ، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة ، فبناه وصوره وأغدق عليه سرّ الحياة^(٢).

ويقول روبرت موريس بيج ، عالم الطبيعة وحاصل على الدكتوراه من جامعة هاملين ، وكان أوّل من اكتشف الرادار في العالم سنة (١٩٣٤م). سجل نحو (٣٧) بحثاً معظمها في الرادار ، وألف كثيراً من الكتب ، " إذا أراد الإنسان أن يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التي

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم : تحرير : جون كلوثر مونسم ، ترجمة : الدمرداش عبد المجيد سرحان ، ط٤ ، مؤسسة الحلبي ، (القاهرة-١٩٦٨م) ، ص ٦ ، ١٠.

يخبره بها شخص آخر ، فلا بدّ من أن يشترك في التجربة ، ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بالله ، فلا بدّ أن يدرس الإنسان أولاً نوع العلاقات التي يمكن أن تكون بينه وبين خالقه ، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقات. فإذا درس الإنسان الشروط التي يلزم توفرها لقيام هذه العلاقة ، واتجه بقلبه وقلوبه نحو تحقيق هذه الشروط ، فإنه سوف يشاهد الحقيقة كاملةً ، عندئذ يغمر الإيمان قلبه ويؤثر في حياته ، ولا يدع في نفسه مجالاً للشك ، ومن ذلك يكون الله أقرب من نفسه ويصير إيمانه به يقيناً^(١).

ويقول الدكتور ميريت ستانلي كونجدن ، وهو عالم طبيعي وفيلسوف وأستاذ سابق بكلية ترينيتي بفلوريدا وعضو الجمعية الأمريكية الطبيعية وأخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم : " إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه وتعالى ، ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته. ذلك هو الله (جلّ في علاه) الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكننا نرى آياته في انفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود. وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته"^(٢).

ويقول جون كلينفلاند كوثران ، من علماء الكيمياء والرياضة ، دكتوراه من جامعة كورنل ، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة وولث ، أخصائي في تحضير النترازول في تنقية التنغستين : " قال لورد كيلفن وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم ، هذه العبارة القيمة : " إذا فكرت تفكيراً عميقاً ، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله " ولا بدّ أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة. إن الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط. فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً. بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة ، أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها. وتدلتنا الكيمياء على أن

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤-١٥.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠.

بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ... وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ أن لها بداية. وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية. وتستطيع العلوم أن تحدّد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد. وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بدّ أن يكون مخلوقاً وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان ... إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل " (١).

ويقول أدوارد لوثر كيسيل ، وهو أخصائي في علم الحيوان والحشرات ، وحاصل على الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ، وأستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو : " أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلةً جديدةً على وجود الله (جلّ في علاه) زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية ... وأنا بوصفي ممن يؤمنون بالله ، أرحّب بهذه الأدلة الجديدة لسببين ، فهي أولاً تزيد معرفتنا بآيات الله وضوحاً ، وهي ثانياً تساعد على كشف الغطاء عن أعين كثير من صرحاء الشكّيين حتى يسلموا بوجود الله. لا يتسع المقام لسرد أدلة أخرى لبيان الحكمة والتصميم والابداع في هذا الكون ، ولكنني وصلت إلى كثير من هذه الأدلة فيما قمت به من البحوث المحدودة حول أجنحة الحشرات وتطورها. وكلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون ، ازداد اقتناعي بهذه الأدلة. فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها ليست إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون ... " (٢).

والحق أنه ما من حقيقة نهائية في العلم البشري ، والعلماء الكبار انفسهم ، بعد قضاء أعمار كاملة في ساحات المختبر وبين أجهزته ، انتهوا إلى هذه النتيجة ... ان معطيات العلم مجرد احتمالات قد تخطئ وقد تصيب ، وأن كشوفاته هي وصف للظاهرة وليست تفسيراً لها.

يقول سوليفان : " لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعاً نسبياً. ولم نعد نلقن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجح لاكتساب المعرفة عن الحقيقة. إن عدداً من رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها : أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة ، وأن علينا لذلك أن لا نعتبر ، أو يطلب إلينا أن نعتبر كل شيء يستطيع

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ ، ٢٤-٢٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٩-٣٠.

العلم تجاهله مجرد وهم من الأوهام. ان الحماسة التي يظهرها رجال العم هؤلاء فيما يتعلق بفكرتهم القائلة أن للعلم حدوداً ليست مما يثير العجب في حقيقة الأمر" (١).

ويقول : " لقد قبل جسم جديد - يقصد الكهرباء - في الفيزياء لا نعرف عنه شيئاً سوى بنيته الرياضية (Mathematical Structure). وقد بدأت منذ ذلك الوقت تدخل في الفيزياء أجساماً أخرى بنفس الشروط. ووجد أن هذه الأجسام تلعب دوراً يماثل بالضبط ذلك الذي تلعبه الأجسام القديمة فيما يتعلق بتشكيل النظريات العلمية. لقد أصبح الآن واضحاً أن معرفة طبيعة الأجسام التي نتحدث عنها لم تعد مطلباً لازماً بالنسبة للفيزياء ، بل تكفي معرفة بنيتها الرياضية. وهذا بحق هو كل معرفتنا حولها. وقد جرى التحقق الآن من أن معرفة البنى الرياضية هي كل المعرفة العلمية المتوفرة لدينا ، حتى فيما يتعلق بأجسام نيوتن المألوفة ، وأن اقتناعنا بأننا نعرف هذه الأجسام بصورة قريبة ما هو إلا مجرد وهم" (٢).

ويتساءل : " لماذا على الإنسان أن يفترض بأن الطبيعة يجب أن تكون شيئاً يستطيع مهندس القرن التاسع عشر أن يستحضره في ورشته ؟ " (٣).

ونقرأ في كتاب (عقائد المفكرين في القرن العشرين) : " أن العلماء التجريبيين عادوا إلى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء ، وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا أن لها قانوناً واحداً هو الخطأ والاحتمال. أما القائلون بهذه التجربة فقد كانوا ثلاثة من أقطاب العلوم في مطلع القرن العشرين : ماكس بلانك (Max Plank) البولوني ، وورنر هايزنبرج (W. Heisenberg) الألماني وشرودنجر (Schrodinger) النمساوي. والأولان منهم صاحباً جائزة (نوبل) في العلوم الطبيعية عن سنة (١٩١٨م) ، وسنة (١٩٣٢م) ، والثالث مكمل النظريات التي اشتهر بها الأولان ، وحجة لا تغلو عليه حجة في مسائل الطبيعيات على العموم ... ان التجريبتين - يقول هايزنبرج - في أية قاعدة من قواعد العلم

(١) حدود العلم ، ص ٣٢-٣٣.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٤-٤٥.

الطبيعي لا تأتيان بنتيجة واحدة بالغاً ما بلغ المجرب من الدقة ، وبالغاً ما بلغ المسبار من الاتقان "(١).

ويختتم سوليفان الفصل الثالث القيم من كتابه (حدود العلم) بقوله : " لقد بحثنا حتى الآن في حدود العلم باعتباره أسلوباً لاكتساب المعرفة حول الحقيقة. وقد رأينا كيف أدت الحساسية الجديدة للعلم إلى الإقرار بأن ادعاءاته السابقة قد بولغ فيها كثيراً. لقد جعلت الفلسفة المبنية على العلم من المادة والحركة الحقيقة الوحيدة. وبهذا العمل قد جرى استبعاد جميع العناصر الأخرى الواقعة في مجال خبرتنا. هذه العناصر التي تحمل ، كما يتراءى لنا ، المغزى الأكبر ، والتي تجعل الحياة في النهاية جديرةً بأن تعاش ، قد جرى استبعادها على أنها محض أوهام " ثم يخلص إلى القول : " إن دوافعنا الدينية لا يمكن أن يقنعها أي شيء أقل من الاعتقاد بأن للحياة مغزى خارقاً. وهذا الاعتقاد هو بالضبط ما جعلته الفلسفة القديمة أمراً مستحيلًا. وهكذا يمكن أن نستنتج أن الأهمية الحقيقية للمتغيرات التي حصلت في العلوم الحديثة ليست في قدرتها المتزايدة على دفع عجلة تقدم الإنسان ، بل في تغير الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها "(٢).

إن العلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية أو يشكك فيها ، كما حدث في القرون السابقة. وهو يعترف بأن ليست له الكلمة النهائية في موضوع هو أكبر من حجمه بكثير. ثم يعود لكي يؤكد أن الحياة البشرية لا تستحق أن تعاش إذا ما نحن حررناها من بعدها الكبير الذي يتجاوز حدود المادة والحركة ... يعود العلم لكي يتعانق مع الدين ويتوظف لديه ، ذلك هو الانقلاب الكبير الذي شهدته فلسفة العلم المتمخضة عن الكشوف الأخيرة في مجال البحث العلمي ، وبخاصة الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري !!

ولقد تأكد أنه حتى على مستوى العلوم التي تعالج الظواهر المادية الجامدة ، فإنه ليس ثمة يقين مطلق ، ليس ثمة سوى الحقائق النسبية ، والافتراضات والمتغيرات. فلو اعتبر ما يقدمه العلم على أنه الحقيقة النهائية فإن الإنسان نفسه لن يكون سوى ناتج عرضي مشتق من آلات رياضية هائلة ، لا عقل لها ولا غرض. وهناك من العلماء إنسانيون إلى درجة أنهم يجدون مثل هذه النتيجة مضطربة وحتى أولئك العلماء المتعصبون للنظرة القديمة فانهم يظهرون في بعض

(١) العقاد ، ص ٥٨-٦٠.

(٢) حدود العلم ، ص ٥٢-٥٤.

الأوقات رغبة ملحة في أن لا تكون الأمور على هذا الشكل الذي يعتقدونه. فعلينا إذن أن لا ندهش إذا وجدنا أن الاكتشاف القائل : بأن العلم لم يعد يجبرنا على الإيمان بتفاهتنا بالضرورة قد لاقى ترحيباً وتحليلاً حتى من بعض رجال العلم أنفسهم^(١).

لقد انتهى العصر الذي اتخذ العلم فيه إلهاً ، عصر الوثنية العلمية التي مسخت الإنسان وأدلته ، وحولته إلى مجرد تابع ذليل للقوانين والنظريات ، بل إلى مجرد ناتج عرضي تافه مشتق من آلات رياضية هائلة لا عقل لها ولا غاية. انه حتى العلماء المتعصبين للنظرة القديمة ، حتى هؤلاء لم يعودوا يرتاحون لهذا التصور الشنيع : الإنسان وهو يتحول إلى ناتج عرضي في كون لا هدف له ولا غاية ... لقد انتهى عصر الإيمان بتفاهة الإنسان ، وأخذ العلم - وقد جاوز طفولته وخطا نحو الرشد - يقود البشرية نحو الحرية ، متجاوزاً بها عصر العبودية الرهيب ، وأن هذا المصير الأكثر اضاءةً لاقى ترحيباً وتهليلاً من بعض رجال العلم أنفسهم !!

لقد جاءت أول إشارة إلى أن مفاهيم نيوتن لم تعد تفي بالغرض عندما حاول بعض العلماء أن يصوغوا نظرية ميكانيكية للضوء ، وأدت المحاولة إلى ابتداء الأثير ، وهو عمل يعد من أقل ما أنتجته العبقريّة العلمية قبولاً. واستمرت المحاولة أجيالاً طويلة ، وظهرت خوارق من العبقريّة الرياضية في محاولة تفسير خواص الضوء ضمن مفاهيم نيوتن ، وأصبحت الصعوبات مدعاةً لليأس أكثر من أي وقت مضى. وبدت مفاهيم نيوتن وكأنها قد أصبحت قابلةً لأن تقهر بعد أن نشرت تفسيرات ماكسويل بأن الضوء ظاهرة كهربائية مغناطيسية. وكان الأثير قد أصبح في هذا الوقت معقداً إلى درجة لم تعد تقبل التصديق. لم يكن معقداً فقط ، بل كان بشعاً أيضاً ، والبشاعة في النظريات العلمية شيء لا يستطيع رجل علم أن يتسامح تجاهه^(٢).

إن كل ما نعرفه عن الكهرباء هي الطريقة التي تؤثر بها في أدواتنا القياسية. والوصف المضبوط لسلوك الكهرباء على هذه الشاكلة يعطينا مواصفاتها الرياضية. وهذا بحق هو كل ما نعرفه عنها ... لقد أصبح الآن واضحاً أن معرفة طبيعة الأجسام التي نتحدث عنها لم تعد مطلباً لازماً بالنسبة للفيزياء ، بل تكفي معرفة بنيتها الرياضية وهذا بحق هو كل معرفتنا حولها. وقد جرى التحقق الآن من أن معرفة البنى الرياضية هي كل المعرفة العلمية المتوافرة لدينا حتى فيما

(١) سوليفان : حدود العلم ، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٣-٣٤.

يتعلق بأجسام نيوتن المألوفة ، وان اقتناعنا بأننا نعرف هذه الأجسام بصورة قريبة ما هو إلا مجرد وهم^(١).

وذلك هو مصداق الأطروحة القرآنية في هذا الصدد ، ان العالم محكم التركيب ، لأنه من صنع الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (سورة القمر : الآية ٤٩) . ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... ﴾ (سورة السجدة : الآية ٧) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ٥) . وأن المشكلة تكمن في القدرة البشرية نفسها على فهم العالم ... وذلك هو التحدي الذي يدفع الإنسان إلى مزيد من الجهد للكشف عن سنن العالم ونواميسه ... باختصار أن الكون لم يكشف النقاب عنه بعد ، وسوف لن يكشف بشكل نهائي (وهذا ما توحى به اكتشافات العلماء أنفي الذكر في حقل الفيزياء الذرية) لأنه يوم يكتشف الكون والعالم أمام وعي الإنسان وإدراكه فلن يكون هناك جهد أو ابداع.

" وعلم النفس لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن ، وللمعارف الأخرى مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك بعض النواحي التي لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي ، أما مقولاته في الموضوعات الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلججة"^(٢).

لأقف بعض الوقت عند كتاب : (العلم في منظوره الجديد) لروبرت أغروس وجورج ستانيسيو^(٣) حيث يتحدث مترجمه الدكتور كمال خلالي ، ملخصاً فصوله الخصبه عن الظروف التي نشأت في ظلها النظرة العلمية القديمة التي تطورت في العصور اللاحقة إلى مذهب مادي صارم يؤمن بأزلية المادة ويرفض من ثم كل ما هو غيبي ، ولا يعترف في تفسيره لمختلف الظواهر إلا بنوعين من العلل هما الضرورة والصدفة. وازاء هذه النظرة المادية برزت إلى الوجود في مطلع القرن العشرين نظرة علمية منافسة كان من ألمع روادها آباء الفيزياء الحديثة كآينشتاين وهايزنبرغ وبور وكثيرين غيرهم ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدة أطاحت بالمفاهيم

(١) حدود العلم ، ص ٣٦ .

(٢) سوليفان : طبيعة العقل ، ص ٦٠-٦١ .

(٣) العدد ١٣٤ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، (شباط-١٩٨٩م) .

والنظريات الفيزيائية السابقة التي كانت رائجةً منذ عصر أرسطو وحتى أواخر القرن التاسع عشر. فقد أثبت أينشتاين مثلاً نسبية الزمان والمكان ، بل الحركة ، وبين الفيزيائي الدانماركي نيلزبور أن الذرة ليست أصغر جسيم يمكن تصوره ، كما كان نيوتن يظن ، بل إنها هي الأخرى مكونةً من نواة يحيط بها عدد لا حصر له من الإلكترونات. وأجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية والكوزمولوجيا على أن الكون بما يحويه من ملايين المجرات ومليارات النجوم والكواكب قد بدأ في لحظة محددة من الزمن يرجع تاريخها إلى ما بين 10 و 20 مليار سنة ، فثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المادة ليست أزلية ، وان للنجوم أجلاً محددة ، تولد وتموت كالآدميين ، وأن الكون المادي نفسه في تطور وتمدد مستمرين ، بل إن من بين الفيزيائيين الفلكيين المعاصرين من قادته نتائج أبحاثه إلى القول أن الكون كان مهياً منذ الانفجار العظيم لتطور مخلوقات عاقلة فيه ، وأن الإنسان في مركز الغاية من إبداعه ، فرأوا في ذلك كله ، وفي الجمال المنتشر في الطبيعة على جميع المستويات هدفاً وخطة مرسومة ، فأمنوا بعقل أزمي الوجود ، منتصب وراء هذا الكون واسع الأرجاء ، يديره ويرعى شؤونه.

" ثم أعقب هذا الجيل من الفيزيائيين والفلكيين جيلاً آخر من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب وجراحة الدماغ ، من أمثال شرنغتون واكلس وسبري وبنفليد ، وقفوا حياتهم كلها على دراسة جسم الإنسان ، فانتهت بهم أبحاثهم إلى الإقرار بأن الإنسان مكون من عنصرين جوهريين جسد فانٍ وروح لا يعترىها الفناء ، وبأن الإدراك الحسي وان كان يتوقف على عمليات فيزيائية وكيميائية ليس شيئاً مادياً بحد ذاته ، وخلصوا كذلك إلى ما يفيد بأن العقل والدماغ شيئان مختلفان تمام الاختلاف ، وإن الإرادة والأفكار ليستا من صنع المادة ولا من إفرازاتها بل هي على عكس ذلك تؤثر تأثيراً مباشراً في العمليات الفيزيولوجية ذاتها.

" وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثيرون من علماء النفس أن إخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسي وإلغائه في المذهب السلوكي قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من إنسانيته ، فالتحمت في الخمسينيات من هذا القرن قوة ثالثة عرفت فيما بعد باسم (علم النفس الإنساني) ومن أبرز رواد هذه المدرسة فرانكل وماسلو وماي الذين يعترفون بأولية العقل وبدعم قابلية حصره في الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة ، وبكون الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار ، ويرفضون من ثم تفسير السلوك البشري كله بلغة الدوافع والغرائز

والضرورات البيولوجية وردود الفعل الآلية ، ويؤمنون عوضاً عن ذلك بما يسمى القيم الأخلاقية والجمالية والجوانب الروحية والنفسية والفكرية ^(١).

لا بأس - أخيراً - أن نقرأ معاً بعض مقاطع الفصل الرابع من الكتاب المذكور والذي يحمل عنوان (الله) : " يبدو أن المادة ليست أزلية بالرغم من كل شيء وكما يعلن عالم الفيزياء الفلكية جوزف سلك : (فان بداية الزمن أمراً لا مناص منه) كما يخلص الفلكي روبرت جاسترو إلى أن (سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأةً وبعنف في لحظة محددة من الزمن ، وفي ومضة ضوء وطاقة ، فهل من إله في كون كهذا ؟

الفيزيائي آدموند ويتلر يعتقد ذلك فهو يقول : (ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي. فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية ؟ والابسط أن نفترض خلقاً من العدم ، أي ابداع الإرادة الإلهية للكون من العدم). وينتهي الفيزيائي أودارد ميلن بعد تفكره في الكون الممتد إلى هذه النتيجة : (أما العلة الأولى للكون في سياق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ. ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله (جلّ في علاه)).

أما النظرة العلمية الجديدة فتري أن الكون بمجموعه - بما في ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان - حدث وقع في وقت واحد وكانت له بداية محددة ، ولكن لا بدّ من أن شيئاً ما كان موجوداً على الدوام ، لأنه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق فلا شيء يمكن أن يوجد الآن. فالعدم لا ينتج عنه إلا العدم. والكون المادي لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام لأنه كان للمادة بداية ، وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل 12 إلى 20 مليار سنة ومعنى ذلك أن أي شيء وجد دائماً هو شيء غير مادي ، ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هي العقل ، فإذا كان العقل هو الشيء الذي وجد دائماً فلا بدّ أن تكون المادة من خلق عقل أزلي الوجود ، وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلي خلق كل الأشياء ، وهذا الكائن هو الذي نعنيه بعبارة (الله) (جلّ في علاه) ...

(١) المرجع نفسه ، المقدمة.

في أواخر عام (١٩٨١م) صدر في إنكلترا كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو (التطور من الفضاء) Evolution From Space قام بتأليفه عالم الفلك الشهير سير فريد هويل وعاوناه في ذلك أستاذ هندي يدرس في جامعة كارديف. ويعترف الأستاذان بصراحةً في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة ، وانهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت ومن زاوية عقلانية خالصة لا تحفل ولا تتأثر بأي موقف ديني. ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود حياة على الكواكب الأخرى ، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور الحياة تلقائياً من الأوحال الأولى نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية. ومع أن هنالك نظريات معارضة لهذا الاتجاه وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة من هذه الأوحال أو الطين الأولى لا تزيد عن ١:١٠٠٠٠٠٠٠٠ فان هويل يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة ، أن هذا الاحتمال لا يزيد بحالٍ عن ١:٤٠.٠٠٠.٠٠٠ أي واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر. مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة ظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين ، وبالتالي فان الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق الصدفة البحتة ، وأنه لا بدّ من وجود عقل مدبر يفكر ويبدل لهدف معين. وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح - كما قلنا - بإلحادهما فانهما لا يجدان أمامهما مفرّاً من أن يكتبوا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان (الله - GOD)^(١).

إن هذا الخط الجديد من العلماء وبموازاة حشد من فلاسفة العلم من مثل وايتهد وسوليفان وكاريل ، وغيرهم ، أبحروا باتجاه معاكس لمعطيات القرون السابقة ، قرون الفصام النكد الذي أقامته الكنيسة والإلحاد بين العلم والدين ، ودعوا إلى احترام القيم الإنسانية لكونها تمثل عوامل تسريع في الكشف العلمي ، والتحام أكثر حميمية بخالق العالم والطبيعة والكون.

" تتطوي كلمة (الخلق) على معانٍ متنوعة ، ولذلك من المهم الحفاظ على تمييز واضح بينها. ويمكن أخذ خلق الكون بمعنى الترتيب المفاجئ للمادة ، من شيء ما فوضوي عديم البنية، يتجلى في النظام المعقد المشاهد حالياً ، بما في ذلك أنشطته المتقنة بكاملها. ويمكن أن يعني الخلق الفعلي للمادة ، التي كانت سابقاً فراغاً عقيماً. ويمكن كذلك أن يعني الظهور المفاجئ

(١) الدكتور أحمد أبو زيد : هل مات دارون حقاً ، مجلة العربي الكويتية ، (تموز-١٩٨٢م).

للعالم المادي بكامله ، بما يشمل خلق الزمكان من العدم. وثمة مسألة منفصلة أيضاً ، وهي خلق الحياة والإنسان نفسه "(١).

" ويمضي الجدل وفق الخطوط التالية ، كل حدث يتطلب سبباً ، ولا يمكن وجود سلسلة أسباب لا نهائية ، ولهذا يجب أن يكون هناك سبب أول لكل شيء ، ألا وهو الإله "(٢).
" يبقى أصل الحياة أحد أسرار العلم الكبيرة ، ويعد بمثابة اللغز الرئيسي لبداية المشكلة ، فحين تتجزأ الجزئيات العضوية مستوى عالياً جداً من التعقيد ، يمكن اعتبارها حية ، بمعنى أنها تحمل بشكل مستمر كمية ضخمة من المعلومات المشفرة ، وليس امكانية عرض مخزون برنامج التكرار فحسب ، بل أيضاً وسائل تطبيق هذا التكرار ، وتتمثل المشكلة في فهم كيفية عبورها لهذه العتبة ، بواسطة عمليات مادية وكيميائية عادية ، دون مساعدة من بعض القوى الخارقة "(٣).

" ليس ثمة سبب أياً كان لافتراض أن بركة الحساء وحدها ، يمكنها توليد حياة تلقائياً حتى بعد ملايين السنين ، بمجرد استكشاف كل مركب من الترتيبات الكيميائية. وسرعان ما كشفت الاحصائيات البسيطة أن احتمال التجمع التلقائي لـ DNA الجزء المعقد الذي يحمل الشفرة الجينية نتيجة تسلسل ضئيل لجزئيات الحساء بلغت حداً من السخف غير القابل لمجرد التفكير به. أن هناك تركيبات لا تحصى من الجزئيات ، بحيث أن فرصة تجمعها على النحو الصحيح عبر مصادفة عمياء ، يعد صفرًا من الناحية العملية "(٤).

" في بحثنا عن الإله ووجود الحياة ، سواء أمكن تفسيرها طبيعياً ، أم تطلبت تدخلاً خارقاً ، يطرح دليلاً قوياً على نوع من الغائية في الكون ، لكن الحياة تصبح بذلك مجرد مرحلة فحسب ، في تراتبية التعقيد "(٥).

(١) بول دافيز : الله والفيزياء الحديثة ، ص ٣٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٥-٨٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨٦-٨٧ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

" طالما تأكد لنا أن الخالق الحكيم قد وضع ، في صنع كل شيء ، النسب الأكثر دقةً للأعداد والوزن والقياس ، وبطريقة توضح احتمال الحصول على معرفة طبيعة تلك الأجزاء من الخلق ، ولهذا يجب اخضاع كل ما نلاحظه إلى الترقيم والوزن والقياس "(١).

" لا ريب بتقدم دليل النجاحات التي وصفت في هذا الفصل ، بأنها نصر لأفكار الفيزياء الحديثة المستندة إلى منطق الاختزال. وبدأ الفيزيائيون عبر محاولة خفض المادة إلى كتل بنيتها النهائية ... يلمحون القانون الأساسي المتحكم بكل القوى الذي يشكل بنية المادة وسلوكها ، ليفسروا بذلك العديد من الخصائص الأساسية للكون "(٢).

هذا الجدّ والحسم الذي يؤكد كتاب الله في خلق الكون وغائيته ، يقودنا بالضرورة إلى قضية سجود الخلائق الكونية وتسبيحها الدائم لخالقها العظيم ... انها واحدة من الحقائق المؤكدة التي يشير إليها كتاب الله في أكثر من موضع دون أن يحدّد طبيعة هذا السجود والتسبيح أو يحدثنا عن كنهه : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْتَفُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٤٤) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِيحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النور : الآية ٤١) . ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحديد : الآية ١ ، سورة الصف : الآية ١) . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ١٣) . ﴿ ... يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر : الآية ٢٤ وأنظر الجمعة : ١ التغابن : ١) . ﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٧٩) . ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْأَشْرَاقِ ﴾ (سورة ص : الآية ١٨) . ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (سورة الرعد : الآية ١٥) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(١) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ (سورة النحل : الآيتان ٤٨-٤٩). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...﴾ (سورة الحج :
الآية ١٨). ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ (سورة الرحمن : الآية ٦).

وسواء كان هذا التسبيح والسجود والصلاة إعلاناً عن الطاعة والخضوع والانتظام في سلك
المنظومة الكونية التي تدير ألتها الجبارة إرادة الله وحده ، أم كان تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى ،
أم كان شكراً و عرفاناً وتقديراً للنعمة العظيم فالأمر سواء ، انما هو في كل الأحوال ينطوي على
بعد غيبي قد لا تقدر أجهزة الإنسان الحسية والعقلية إدراك أبعاده كأى أمر غيبي. ولكن يخطر
على البال هنا ما كشفت الخبرات الفيزيائية والكوزمولوجية في مجال ما يشبه أن يكون وعياً حراً
لحركة النيوترونات والبروتونات وما يقابلها من حركة السدم والمجرات والنجوم.

حقاً إن إدراك الطرائق التي تعمل بها الذرات والأجسام لمما يصعب تحقيقه ... ومهما تقدم
العلم وخطا خطواته العملاقة ، فسيظل جانب من أكثر جوانب التركيب المادي بعيداً عن
التكشاف النهائي ، مستعصياً على البوح بالسرّ المكنون.

ومهما يكن من أمر ، فها هو العلم الحديث ، في كشوفاته الأخيرة يؤكد على الحقائق
الأساسية التالية : ليس بمقدور العلم التوصل إلى الحقائق النهائية ... وليس بمقدوره أن ينفي
الدين أو أياً من الخبرات الإنسانية اللامادية الأكبر حجماً منه ... إن ما يجله ليس أقل حقيقة
من معطيات العلم نفسه !

يؤكد بالمقابل أهمية التجربة الدينية وضرورتها للحياة البشرية ، ويكشف العلم عن البطانة
الروحية للعالم فيلتقي ثانيةً مع الدين.

إن الكشوف العلمية الحديثة جاءت ، كما يقول سوليفان : " لكي تقطع الطريق على تلك
المناقشات التي قامت لتثبت أن أياً من التفسيرات (الدينية) ما هي إلا مجرد وهم. لقد فعلت
هذا عندما أظهرت أن العلم لا يعالج إلا ناحية جزئية من الحقيقة ، وأنه لا يوجد أدنى سبب يبرر
الافتراض بأن كل ما يجله العلم ، أو يتجاهله ، هو أقل حقيقةً مما يعرفه " (١).

(١) حدود العلم : الدار العلمية ، (بيروت-١٩٧٢م) ، ص ٤٨-٤٩.

ثمة مسألة أخرى لا تقل خطورة... إن الكشوفات العلمية الأخيرة حطمت جدار المادة ، وأطلت وهي تتوغل في صميم الذرة على عالم الروح الكامن في بنية العالم وتركيب الأشياء... إن العلم يلتقي ها هنا مع الدين ، مرةً أخرى ، والحقائق كثيرةً ويكفي أن نشير إلى بعضها : إن بعض العلماء يرون أن الموجات الالكترونية تشكل بنية المادة ، كما هو معروف حتى الآن ، يمكن أن تكون موجات احتمالية (Waves of Probability) من غير وجود مادي مهما كان نوع هذا الوجود^(١). ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية (Ultimate Natural) للكون هي طبيعة عقلية^(٢) وفي هذا يقول ادينغتون : " إن مادة العلم هي مادة عقلية ، ويردف أن المادة العقلية ليست منتشرة عبر المكان والزمان ، بل إن المكان والزمان جزء من المخطط الدوري الذي هو في نهاية المطاف مشتق من المادة العقلية نفسها ". أما جينز فيذهب مسافة أبعد ويعتبر العالم كله طبيعة عقلية كاملة ، بل يجعله فكرة في ذهن الله (جلّ في علاه)^(٣).

وأحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينيات ، ونشرت خطوطها العريضة مجلة (العلم والحياة) الفرنسية^(٤) ، تقول بالمقابل أو المعادل اللامادي للتركيب المادية في البنية السديمية والذرية على السواء ، وأنه ما من الكترون أو بروتون أو نيوترون ، أو جسم كوني كذلك ، إلا وتتواجد قبالاته معادلاته اللامادية. ومعنى هذا أن أكثر النظريات الفيزيائية حداثةً ، تقدم تأكيداً أشد على تهافت المادية ، وتشير بلسان العلم المختبري ومعادلاته الرياضية المركبة إلى التواجد الروحي في قلب الكون وفي صميم الذرة. واننا لنقف هنا خاشعين أمام واحدة من جوانب الإعجاز القرآني ، تلك المجموعة الكريمة من الآيات التي حدثتنا عن (تسبيح) الكون والذرات للخالق العظيم. إن الخلق الكوني ينطوي في حقيقة الأمر على بعدين لا ينفصل أحدهما عن الآخر : المنظور والمغيب ، ونحن إذا استطعنا أن نصل إلى نتائج مقارنةً في تعاملنا مع المنظور ، فإنه

(١) حدود العلم ، ص ٤٠-٤١.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٧-٤٨.

(٤) ينظر : بالتفصيل الترجمة العربية في مجلة (النور) المغربية ، العدد الثامن ، السنة الرابعة ، (١٩٧٧م).

يصعب علينا ، بل يستحيل ، الإحاطة علماً بالجانب المغيّب ... ولكن ، وكما أثبتت أحدث معطيات العلم في العصر الحديث وجود الغيب في صميم البناء الكوني وحضوره المؤكّد ، فنحن بالتالي لا نستطيع ، وليس بمقدورنا أن ننفي كل ما لا تراه حواسنا من ظواهر وموجودات .

لقد أكّدت الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية الأكثر حداثةً ، العمق الغيبي للظواهر الطبيعية الكبرى ، وكيف أن العالم المادي لا يعدو أن يكون قشرةً سريعة الانكسار ، فبعد تفجير القنبلة الذرية ، ومن بعدها الهيدروجينية والنيوترونية ، تأكّدت هذه الحقيقة ، وأن ما وراء القشرة الهشة ، تحتها تماماً ، على بعد خطواتٍ منها ، مخفيةً عن العيان ، ومنطويةً في عالم الغيب ، قوى هائلة تفوق التصوّر ، وتؤكد الحقيقة القرآنية التي طالما أشار إليها كتاب الله مراراً وتكراراً ، من أن عالم الغيب أشدّ ثقلاً وحضوراً من العالم المشهود . والظاهرة لا تقتصر على الغيب الفيزيائي وحده - إذا صح التعبير - ولكنها تمتد لكي تشمل الخلائق كافةً ، والقوى والطاقات الهائلة التي ينطوي عليها الكون ، مروراً بالملائكة والجان ، ووصولاً إلى كلمة الله التي إذا أرادت شيئاً فانما تقول له : (كن فيكون) !

أية قوة هائلة ، مطلقة الاسار ، غير محدودة ، تنطوي عليها كلمة (كن) هذه ؟! أية فاعلية جبارة لا يقف أمامها شيء ، تملك هذه القدرة اللامحدودة على الخلق والانشاء ؟ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (سورة الكهف : الآية ١٠٩) . ﴿ وَكُونُوا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٧) .

والعقل البشري الذي لا يزال ، رغم كشوفه المدهشة ، طفلاً يجبو عند حافات الكون ، لن يكون بمقدوره إدراك ما تعنيه كلمة (الغيب) وما تنطوي عليه من قوى خلاقة هائلة غير محدودة ... هايزنبرغ وشروندجر وأينشتاين وبور وماكس بلانك ، والفيزيائيون والكوزمولوجيون الذين جاءوا بعدهم ، فتحووا في القشرة المنظورة ثغراتٍ ضيقة جداً فرأوا الأعاجيب ... ترى ماذا لو رفع الغطاء كله ؟ وما الذي سنراه ؟!

إن إحدى الخصائص الأساسية التي تفرق الإسلام عن سائر المذاهب البشرية تكمن في النظرة إلى المعمار الكوني ... فالإسلام يراه بنياناً مركباً يتضمن المادي واللامادي ، المنظور

والغيب ، الظاهر والباطن ، الذي يمكن أن نتعامل معه بالحواس ، والذي لا يمكن التعامل معه إلا بوسائط أخرى غير حسية ، بدءاً بالعقل وانتهاء بالوحي الإلهي ، مروراً بقوة الروح ... هذا بينما تراه المذاهب الأخرى بنياناً مسطحاً ذا وجهٍ واحد ومضمون غير مزدوج ، فهو ذلك البنيان المادي المنظور ، الظاهر ، الذي تقدر الحواس على التعامل معه ، والكشف عن أسراره ومعنياته !

يرى الإسلام في المعمار الكوني طبقتين ، تبرز إحداها بمواجهة الحواس وتغيب الأخرى عن الرؤية المباشرة فقط ، ولكنها في حقيقة الأمر ليست موجودةً فحسب ، أو مؤكدةً فحسب ، ولكنها أكثر ثقلاً وحضوراً وتأثيراً في الصيغة النهائية للمعمار الكوني ، وفي المعطيات التي يتضمنها بكل ما تحمله الكلمة من معنى ... وترى المذاهب البشرية ، التي بلغت أقصى حدتها وتسطحها (في المادية الديالكتيكية) في المعمار الكوني طبقةً واحدةً ليس وراء كتلتها المادية وجرمها الثقيل ذي الذرات والجزيئات والأحجام والمساحات أي شيء على الإطلاق ... والذي ينتمي لهذا الدين يحتم عليه منذ اللحظة الأولى أن يتجاوز هذه النظرة الأحادية المسطحة اللاصقة بالمنظور ، صوب العمق : البعد الآخر للمعمار الكوني ، والتيقن الكامل بأن هناك فيما وراء هذه الطبقة المنظورة طبقة أخرى غير منظورة ، لكنها أكثر وجوداً وحضوراً وتأثيراً.

إنه الغيب الذي يحيط بالطبقة المرئية ، يتخللها ، يقف وراءها ، يمتد إلى جذورها البعيدة ويتطلع صوب الآفاق التي لا تطولها هذه الطبقة مهما علت شرفاتها ، وامتدت أدوارها في السماء ... هذا الغيب الذي ينعكس حضوره على الوجود الكوني بأشكال وصيغ مختلفة ، بدءاً من معجزة الخلق والتشكل التي يحقق فيها الغيب حضوره بصيغة منظور مادي ، وانتهاء بدمار هذا المنظور ونقته عند يوم الحساب ، وبفعل قوة الغيب نفسه ، مروراً بكل الصيغ والمعطيات اللامادية التي تملأ ساحة المعمار الكوني ، تعجّ بها ردهاته وممراته وأرواقته ، بل إنها تتخلل جزيئاته وذراته.

إن الله الخالق (سبحانه وتعالى) ، والروح المنبعثة عن نفخة الله (جلّ في علاه) ، والوحي الذي ينقل تعاليم السماء للأرض ، لئلا يضل الإنسان ويضيع ... كلها من الغيب ، وعلى المسلم أن يسلم بها ويطمئن لها عقله وقلبه ووجدانه ، لأن مجرد انتمائه للإسلام يعني

قدرته على كسر جدار المرئي القريب ، والطموح بعيداً فيما وراءه صوب البعد أو الوجه الآخر للمعمار الكوني.

وإن الملائكة والجن والشياطين هي من الغيب الذي يتحتم أن نسلّم به ، والذي يعكس تأثيراته المرئية وغير المرئية بما يؤكد حضوره وفاعليته ... وإن طاقات الإنسان اللاحيّة ، بما فيها الخيال ، والتذكر ، وما يسمى بالحواس ما وراء الخامسة ، وطرائق عمل العقل ... الخ لهي من الغيب الذي يتخلل الإنسان نفسه ويمكنه ، في الوقت ذاته ، من مدّ الجسور بينه وبين الطبقة المغيبة من المعمار الكوني.

بل إن حركة الذرات المادية نفسها ، ما يجري في مساراتها غير المرئية ، ونيوترونها وبروتونها ، ما يتدفق في فوتونات الأحزمة الضوئية ، ما يخفق في جذب المغناطيس وانبعاثات الكهرباء ... لهي كلها ، بشكل من الأشكال ، حالة غيبية لا زالت مستعصيةً ، كالروح نفسها ، على التحليل النهائي الذي يخضعها للمختبر ويجعلها أمراً مرئياً وملموساً ... يتيح للإنسان أن يحيلها إلى المادي المنظور .

إن الانتماء للإسلام يعني التسليم بهذه الحقيقة حتى قبل أن يؤكد العلم ، وقبل أن تعبر عن نفسها عبر معطيات النشاط البشري وأفعاله الحضارية ... يسلم بها لأن الله سبحانه وتعالى يقول بوجود الطبقتين في معمار الكون ويخرج به عن خداع الحواس وأسر المحدود ، والاعتقاد الضال بأن هذا المعمار لا يعدو أن يكون طبقة واحدة .

ومنذ الكلمات الأولى في كتاب الله نلتقي بهذه الحقيقة ، هنالك حيث يرتبط الإيمان بالغيب بسائر الممارسات الإسلامية التي يتعاشق معها ، بل حيث يغدو الأساس الذي تقوم عليه رؤية المسلم ، ويستند إليه سلوكه اليومي ، وتبنى عليه أنشطته ومعطياته ... تلك هي العلامة الفارقة ، والإشارة الحاسمة ، والحدّ الفاصل بين الإيمان وبين الكفر ، بين الإسلام وبين سائر المذاهب والرؤى والتحليلات .

طبقتان في المعمار الكوني ، فليس ثمة بعد واحد ، مسطح ، ممسوخ ، كما يريد الوضاعون أن يصوروا ، وإنما هو البعد المركب ، الغائر والعميق الذي يعكس الحقيقة النهائية كما خلقها الله (سبحانه وتعالى) ، والذي يعبر عن السرّ الإلهي الذي أودعه الله (سبحانه وتعالى) في هذا المعمار الهائل .

والقرآن الكريم نفسه ، في مقابل هذا كله ينعى على الوضعيين رؤيتهم المسطحة هذه ، وعلمهم التافه الهزيل ، ونظرتهم القاصرة إلى الكون ، فيصممهم بأنهم : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (سورة الروم : الآية ٧) ، ومن ثم فانهم لا يرون إلا المرئيات القريبة ، فأما ما وراءها ، من يتحكم بها ويصوغها ، فانهم عاجزون عن رؤيته ، ومن أجل التغطية على عجزهم هذا ، على قصورهم وانحسارهم ، يلجأون إلى خدعة سهلة ، لكنها مكشوفة ، فيرفضون الاعتقاد بوجود طبقة أخرى للمعمار الكوني ، وعالم آخر غير العالم الذي تلمسه الأيدي ، وتسمعه الأذان ، وتراه العيون ... بل إنهم يمضون ، إلى ما هو أبعد من هذا ، ومن أجل مزيد من التضليل ومزيد من الاقتناع بصدق موقفهم في الوقت نفسه ، فينظرون رؤيتهم هذه ، يفسفونها ويقدمونها في إطار مذهب أو نظرية أو فلسفة ، بل ان بعضهم يبلغ به الغرور أن يسعى لربطها بالعلم المختبري ، رغم أن هذا العلم هو بحد ذاته أداة غير صالحة للحكم على الغيب ، ورغم أنه - عبر العقود الأخيرة - أخذ ينحني للبعد الغيبي ، ويقرّ بثقله وحضوره في صميم النسيج الكوني بصيغة أو بأخرى.

في سياق الحديث عن الغيب ، وعن المعمار الكوني ذي الطبقتين ، طالما تساءل الشكاكون عن معنى أن تكون النجوم ، هذه الكتل المادية المحكمة الترابط ... رجوماً للشياطين!! ونحن في عصر العلم والتقدم المذهل لعلمي الفيزياء والفلك على وجه الخصوص ... فلنرجع - إذن - إلى نص الآية التي تقول : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (سورة الملك : الآية ٥) فاننا سنجدها تتحدث عن السماء الدنيا فقط ، لا مطلق السماوات ، السماء القريبة المحيطة بكرتنا الأرضية التي لا تعدو أن تكون ذرة لا تكاد ترى في بحر الكون الشاسع البعيد ... وثمة فرق كبير بين أن تكون النجوم في مدى الكون كله رجوماً للشياطين وبين تلك النجوم المحدودة ، الصغيرة نسبياً ، القريبة ، التي تطل على العالم وتتحرك عند فضائه القريب.

ثم ان الآية نفسها تعرض وظيفة أخرى لهذه النجوم القريبة ، بل انها لتسبق بها وظيفتها التالية ، تلك هي الوظيفة الجمالية ، وأيضاً بقدر تعلق الأمر بكرتنا الصغيرة ، بحياتنا البشرية على سطح هذه الكرة وبارتباطاتها ومطالبها وغاياتها وطبيعة سعي الإنسان فيها ... انها تؤكد

هنا (المسألة الجمالية) وحضورها المؤثر ، ان على ساحة الطبيعة والعالم ، وان على مستوى التجربة البشرية وأشواق الإنسان ، وان في نسيج التصور الإسلامي للوجود الذي لا يغفل لحظة عن الجانب الآخر للحقائق والمعطيات ، وهو الجانب الجمالي جنباً إلى جنب مع الضرورات .

ولكن ما حكاية رجم الشياطين بالنجوم ، بغض النظر عن قربها أو بعدها ، وبغض النظر كذلك عن وظيفتها الأخرى ... والجواب في أن الجان والشياطين عوالم غيبية تعيش بين ظهرانينا ، تتخلل وجودنا الأرضي ، وتتعاشق معه ، قد لا نراها ، ولكننا - أحياناً - نلمس تأثيراتها ، وهذه التأثيرات أخذت تتزايد وتتأكد أكثر فأكثر بتزايد الخبرات البشرية فيما يعرف بدوائر تحضير الأرواح والممارسات المرتبطة بها .

لا نراها ... لكننا نلمس تأثيراتها ، وهذا يكفي - علمياً - لتجاوز موقع النفي ، بل يكفي للوصول إلى حافة اليقين ، لأنه شبيه ، بشكل من الأشكال ، بكثير من الظواهر الطبيعية كالضوء والمغناطيس والكهرباء ... الخ ... تلك التي لم يقدر العلم ان يبلغ ماهيتها ، ولكنه تعامل مع تأثيراتها وخواصها فصنع بذلك الأعاجيب في ميادين النظريات والتطبيقات (التكنولوجية) .

إن هذه العوالم المغيبة عن الأبصار ، تملك القدرة على الحركة السريعة فيما لا يملك الإنسان مقدراً ولو تافهاً منها ، لأنها موجودات غير مادية ، بينما الإنسان المتعاشقة روحه بالجسد ، يجد من ثقل المادة وشدّ الأرض وقوانين الجاذبية ما يعرقل حركته ويبطئ منها ، وليست الأنشطة والكشوف الباهرة للعلم الحديث ، في جانب من جوانبها ، إلا محاولة لتمكين الإنسان ، بالتقنية المتقدمة والعلم المتوغل في أسرار الكون ، من تجاوز البطء والتحقق بحركة أسرع في رحاب الكون القريب ... إن العلم نفسه ليعلمنا كيف أن الضوء الذي تتدفق فوتوناته بعيداً عن أسر المادة يتحرك بسرعة مذهلة ، ويتجاوز المسافات الكونية الشاسعة بدقائق زمنية ولحظات ، وهو بسبب من حركته الباهرة تلك يتخذ مقياساً للمسافات الشاسعة في المعمار الكوني بين مجموعة ومجموعة وجرم وجرم .

إن الجان والشياطين ، والملائكة بطبيعة الحال ، لتشبه من ناحية من النواحي ، هذه الطاقة الضوئية فتملك قدرتها على الحركة السريعة واجتياز الأماكن بما يشبه المعجزات ... إن هذه العوالم الشيطانية ، بما أنها في وضع تحدٍ مع الله (جلّ جلاله) ومع عباده المؤمنين ، فيما

نعرفه جميعاً منذ لحظة خلق آدم ، ورفض إبليس السجود له ، وإعلان عصيانه ، وقسمه على الله أن يمارس (غواية) الإنسان حتى يقوم الحساب ، لحكمة يريد بها الله سبحانه وتعالى ، هذه العوالم تستغل قدرتها على الحركة السريعة ، وعلى اجتياز التحديات المكانية لتنفيذ جانب من وظيفتها في الغواية والتضليل ، فتحاول بين الحين والحين . أن تسترقق السمع إلى الملاء الأعلى للاطلاع على جانب مما يتقرر فيه ، والعودة ثانية إلى الأرض ، لاستغلال هذه المعلومات المسترقة ، في تضليل الإنسان ، والعبث بمقدرات الرسالات والمؤمنين بها.

إن المسألة لشبيهة إلى حد ما بمحاولة بعض المتنفذين ذوي الامكانيات الخاصة ، في عدد من الدول والحكومات ، استراق معلومات خطيرة من مصادرها العليا للإفادة منها في عمل تخريبي أو تضليلي مضاد لتلك المصادر ... إن الملاء الأعلى - إذا جاز لنا التصور - هو أشبه بدائرة تخصص عليا لصياغة الأوامر وإصدارها ، وإن محاولة الشياطين اختراق تلك الدائرة قد يعرض الأسرار الكونية للانتشار ، ومصائر العالم والناس إلى عبث ليس من السهولة بمكان تصور نتائجه ... ومن أجل ألا يتاح لهذه المخلوقات تحقيق هدفها المضاد ذاك ، تجابها إرادة الله بسلاح مضاد !! وهو سلاح من جنس هذه المخلوقات المكونة من نار السموم. إن النار لا تجابه إلا بالنار. ثم إذا رجعنا إلى العلم الحديث كراً أخرى لوجدناه يؤكد هذه المسألة.

كثيرة جداً تلك الأجسام السماوية التي نراها عبر الليالي وهي تخر من سماواتها البعيدة وتحترق في الفضاء تاركة خطأ طويلاً من النار : انها الشهب والنيازك. والقرآن الكريم لا يسمي الأجسام التي يقذف بها الشياطين نجوماً ، ولكنه يسميها مصابيح ، وفي آيات أخرى يسميها شهباً دون أن يتابع تحديد أحجام هذه الشهب والمصابيح سواء كانت طناً واحداً أم ألوفاً من الأطنان ، فكتاب الله ليس كتاب هندسة أو حساب ولكنه كتاب مبادئ كبرى يتحرك على هديها الإنسان.

قد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال : علام هذه الصيغة المعقدة الطويلة بين الله وبين الشياطين لحماية الإنسان ؟ أما كان بمقدور الله (سبحانه وتعالى) أن يحسم المسألة بصيغة أكثر سهولة ومباشرة ... أن يشل الشياطين عن العمل ... أن يوقفهم عن الحركة ، فلا يقدر من ثم على الاختراق والاستراق ... ولكن أليس معنى ذلك أن يجردهم من خصائصهم ... من القدرة على تحقيق وظيفتهم في الكون والعالم ؟ ومعنى ذلك إيقاف جانب من أهم جوانب الصراع

والتحدي التي تجابه الإنسان ، والتي بها يقدر على التحقق والحركة والفاعلية ، ويخرج منتصراً في معركة الوجود ؟

إن الشيطان إما أن يطلق بكامل طاقاته الفاعلة لكي يجابه الإنسان كما أراد له الله (سبحانه وتعالى) أن يفعل لحكمة يعرفها الجميع ، وإما ألا يكون على الإطلاق ! ولكن هل أن موقف الإنسان ، غير المؤمن ، واعتقاده بالطبقة المادية الواحدة للمعمار الكوني ، ورفض الاعتراف بكل ما له علاقة بالطبقة الأخرى ، يعد موقفاً علمياً مسؤولاً ؟ كلا ... بكل تأكيد ، ما دام أن العلم نفسه يعلن اليوم ، ويلح في الإعلان ، على أنه بكسره لجدار الكون المادي ، أطل على عالم غائر ، بعيد ، محيط ، ليس بمقدور العقل والحواس أن تمسك بتلابيبه ... ذلك هو عالم الغيب ...

ليس هذا فحسب ، بل ان موقفاً خاطئاً كهذا لا يمنح الإنسان سويته النفسية ولا يتيح له التحقق في العالم كإنسان ... وشتان بين إنسان يعيش حياته ملتصقاً بجدران المادة ، منقراً بترابها ، مشدوداً إلى طينها ، وبين إنسان يقف على الأرض ... نعم ... ولكنه يمد نظره إلى الآفاق البعيدة لكي يمنح وجوده معنى ، ويمكن تكوينه النفسي من التوازن والامتلاء ... من المحدود إلى المطلق ... ومن الحفر الضيقة إلى السماء ... ومن الفناء إلى الخلود.

ذلك معنى أن نسلم بحقيقة المعمار الكوني ذي الطبقتين ، وإلا فإن ألف فلسفة أو مذهب وضعي ، أو تنظير ، لا يفعل إلا بأكثر من أن يبني بين الإنسان وبين رؤيته العلمية المؤمنة للكون ، سداً من الخرافات والأوهام والأضاليل والأهواء والظنون ... ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (سورة النجم : الآية ٢٨).

ولأن الله (جلّ في علاه) : ﴿ ... يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦). يجيء فعله بكلمة (كن) قادراً على أن يصنع كل شيء ... على أن يفكك ويشكل ... على أن يهدم الكون ويبنيه من جديد في دقائق ولحظات ، بل في جزء لا تقدر على قياسه من الزمن ... (كن فيكون) وصدق جلّت قدرته وتعالّت عظمته.

والحق أن في القرآن الكريم تعابير وكلمات ، نمرّ به حيناً مروراً سريعاً ، فلا ندرك بعدها الحقيقي ولا نمدّ أبصارنا في أعماقها المدهشة ... لكننا بين الحين والحين ، ووفقاً (لوضعيتنا)

الذهنية والنفسية ، نتوقف عند بعضها وعند ذلك ندرك المعنى الحقيقي لقوله تعالى : ﴿ ...
تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ
... ﴾ (سورة الزمر : الآية ٢٣) . ﴿ ... الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الفرقان :
الآية ٦) أي سرّ كبير هذا الذي يقوم عليه بنيان السماوات والأرض ؟ أي سرّ شامل رهيب هذا
الذي يتخفى وراء كتل الكون الرهيبة الهائلة ، وذراته الصغيرة المتناهية على السواء ، اي سرّ
عظيم هذا الذي يضبط وينظم ويوجه ويحرك خلائق الله جميعاً في ابعاد الآفاق وأقربها ؟ أي سرّ
عظيم هذا الذي يتفجر بوجه الشمس المحرق ، ويتساقط به شلال الضوء القمري الحالم ،
وتنتادى به وتتهامس وتومض نجوم السماء ؟ بل أي سرّ هذا الذي به نتنفس ، ونأكل ، ونمشي ،
ونفكر ، وتخفق قلوبنا ، وتهتز أرواحنا ؟ ثم أي سرّ هذا الذي به وحده نضحك ونبكي ، ونفرح
ونحزن ، ونحيا ونموت !؟

هل نقول - متجاوزين - إنه سرّ التكوين الرياضي والطبيعي للكون ؟ والبيولوجي والفسلجي
للحياة ... والنفسي والميتافيزيقي للروح ؟ ومن ثم فان الله (جلّ في علاه) الذي يعلم هذا
(السرّ) ، الله الذي هو صانع هذا (السرّ) ، قدير في أية لحظة ، وبقوة الكلمة المريدة ، على
أن (يفعل) ما يشاء تحليلاً وتركيباً ، تشبيهاً وتغييراً ، في أية من هذه المساحات الكبيرة الثلاث :
الطبيعة والحياة والروح. وهكذا نكون ساذجين ، حمقى ، أغبياء ، بمجرد أن نتساءل دهشين :
كيف سيبعثنا الله من قبورنا ، وكيف سيحاسبنا ويسوقنا إلى جنة أو إلى نار !؟

إذا جاز لنا أن ننكر على رجل كهازنبرغ ؛ أو أينشتاين ، أن يفجر الذرة التافهة ويدمرّ بها
أعظم مدن الأرض ، لأنه عرف (سرّها) ، وإذا جاز للنملة أو الدودة أو الصرصار أن ترفض
مقدرة رجل مثل (مندل) على أن يتحكم في ألوانها وخصائصها لأنه عرف (سرّ) معطياتها
الوراثية ... جاز لنا أن نتساءل بالسذاجة نفسها : كيف سيبعثنا الله من قبورنا وكيف سيحاسبنا
ويسوقنا إلى جنة أو إلى نار ؟ وإذا كانت قدرة الله سبحانه وتعالى لا تلمس ولا ترى فان الطاقة
الدماغية لأولئك العلماء لا تلمس هي الأخرى ولا ترى ؟

ونعود مرةً أخرى إلى الآية القرآنية المعجزة : ﴿ ... الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
... ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦) ... فإذا ما أتيح لكم ، عبر لحظات الصفاء النفسي ، والهزة

الروحية ، والنفاذ الذهني ، أن تتأملوا أبعد النجوم في مساراتها وأحجامها التي لا يطالها الخيال ، والتي ظلت تمارس دورها ضبطاً وحركةً ونظاماً ، ملايين الملايين من السنين الضوئية ، وإذا ما أتيح لكم أيضاً ، عبر اللحظات نفسها ، أن ترقبوا قلب بني آدم ، هذه المضغة الصغيرة من اللحم ، وهو يدق بانتظام وطمأنينة عشرين أو ثلاثين أو أربعين ألف يوم ، مما لا تبلغ عشر معشاره أدق وأعظم ساعة في العالم ... وإذا ما أتيح لكم أن تلاحظوا النبتة الصغيرة وهي تشق قشرة الأرض لكي تستوي - بعد قليل - على سوقها ، خضراء ، مطمئنة معطاء ... إذا ما أتيح لكم هذا وذاك ، ومئات غيره من مواقف الدهشة والإعجاب والنفاذ في صميم خلق الله وإبداعه وجماله ، قدرتم على أن تفقوا أمام كلمات الله وجلين ، مقشعري الجلود ... لأنه (جلّ جلاله) :

﴿... الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦) !!

والمهم أن كتاب الله يتعامل مع الظاهرتين معاً : المغيب والمنظور ، دون أن يغفل إحداهما ... وها هنا في سياق تعامله مع ما هو مغيب في بنية الكون والعالم نلتقي حشداً من الآيات هذه بعضها : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة فاطر : الآية ٣٨) . ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٨ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٩ ﴿(سورة الحاقة : الآيتان ٣٨-٣٩) . ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ٧٥ ﴿وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ٧٦ ﴿(سورة الواقعة : الآيتان ٧٥-٧٦) . ﴿م﴾ ١ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ٣ ﴿(سورة البقرة : الآيات ١-٣) . ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ (سورة الأنعام :

الآية ٥٩) ... أربع وخمسون مرة ترد كلمة (الغيب) باشتقاقاتها المختلفة في كتاب الله ، مما يدل على الثقل الكبير والحضور المؤكد للذين أولاهما القرآن الكريم لعالم الغيب ... ونحن عندما نطالع كلمة (الغيب) في كتاب الله ، يتجه فكرنا على الأغلب إلى العالم اللامنظور : الملائكة ، الجان ، الشياطين ، الجنة ، النار ... الخ ، أو حتى الأرزاق المقدره من السماء ، ولكنه نادراً ما يتجه إلى ما ينطوي عليه الكون من طاقاتٍ وأسرارٍ مغيبية ، فيزيائية هائلة لا يتصورها عقل ، ولقد قدر للإنسان أن يطلع على جانب ضئيل منها عندما فجر الذرة ، ولكن ماذا بخصوص

الذي لم يكتشف ، أو يفجر بعد من طاقات وأسرار الكون التي يمسك الله سبحانه وتعالى بمفاتيحها ، أو ينزلها بقدرٍ معلوم ؟

إن الانقلاب الكوني الكبير يوم القيامة ، والذي سيأتي الحديث عنه قد يقربنا بعض الشيء ، تلك الآيات التي تحدثنا عن انفطار السماء ، وانتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، ودك الجبال ، وتسجير البحار ... ان علينا أن نقف طويلاً عند عبارة (مفاتيح الغيب) وعبارة (السرّ في السماوات والأرض) ونتجاوز تسطيح التفاسير القديمة ، ونستدعي أكثر الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية جدّة وحدائثه ، لكي ندرك جانباً من أبعادهما المدهشة والمذهلة ، ولكي يتبين لنا - بحق - أن كتاب الله سبحانه وتعالى ، وكما حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لا تتقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الردّ). " إن حقيقة الغيب من مقومات التصور الإسلامي الأساسية ، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية ومن قواعد الإيمان الرئيسية ، وذلك أن كلمات (الغيب) و (الغيبية) تلاك في هذه الأيام كثيراً - بعد ظهور المذهب المادي - وتوضع في مقابل (العلم) و (العلمية) . والقرآن الكريم يقرر أن هناك (غيباً) لا يعلم (مفاتيحه) إلا الله ، ويقرر أن ما أوتيته الإنسان من العلم قليل ، وهذا القليل انما آتاه الله به بقدر ما يعلم هو (سبحانه وتعالى) من طاقته ومن حاجته ، وأن الناس لا يعلمون - فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه - إلا ظناً ، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً. كما يقرر سبحانه وتعالى أن الله قد خلق هذا الكون وجعل له سنناً لا تتبدل ، وأنه علم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ، ويتعامل معها في حدود طاقته وحاجته وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقيناً وتأكداً أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق ، دون أن يخل هذا بسنن الله التي لا تبدل لها ، بحقيقة (الغيب) المجهول للإنسان والذي سيظل كذلك مجهولاً" (١).

إن الذين يرفضون الغيب من الملاحدة والعلمانيين ، لا يفرقون بينه كبطانة للكون والعالم والإنسان ، كبعد آخر مؤكد للوجود ، بل كقاعدة لهذا الوجود ، في أسبابه ومعطياته ونتائجه وغاياته النهائية ، وكعلم يقيني مطلق خاص بالذات الإلهية ، وبين الرجم بالغيب ، أي الموقف

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٧/١١١٣-١١١٤.

المتخبط الضال الذي ينطوي على قبول النتائج دون أسبابها ، والغايات دون مقدماتها ، واعتماد الأساليب الملتوية النقيضة - ابتداء - للعلم ، والمنهج ، والمنطق ، والتجريب ، فيما يقودهم في كثير من الأحيان إلى الضرب على غير هدى في تحليل الظواهر والأشياء ، والوصول إلى استنتاجات لا تقوم على أي أساس من العلم اليقيني الصحيح.

والقرآن الكريم يهاجم بصراحة هذا الأسلوب الملتوي ، قبل وبعد أن يرفضه ملاحظة القرنين الأخيرين : ﴿... وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَادِسُهُمْ كَلِمَةً مَرْجَمًا بِالْغَيْبِ...﴾ (سورة الكهف : الآية ٢٢) وبالتالي فهو يرفض كل ما يتمخض عن (الرجم بالغيب) من نتائج معطيات ، ومن مذاهب ومبادئ وعقائد وضعية اتهمها الخصوم بأنها معلقة في سماء الأحلام ، غير ممكنة التطبيق على أرض الواقع ، بسبب من قيامها على الظنون والأوهام والتخمينات الخاطئة ، والأحلام والمثاليات.

وكلنا نذكر التهمة التي وصم بها مهندسو الماديتين الديالكتيكية والتاريخية فلسفة (هيغل) عندما اطلقوا عليها لقب (الفلسفة المثالية) التي تمشي على رأسها ، أي تحاول التعامل مع الظواهر والأشياء بشكل معكوس ، واستبدلوها بالواقعية الاشتراكية التي تمشي على بطنها بحثاً عن لقمة العيش ، وكأن الحياة لا تتجاوز إحدى اثنتين : العقل أو المعدة !!. كما أطلقوا على الاشتراكيات التي لم تسلم قيادها لهم اسم (الاشتراكيات الطوباوية) أي المثالية التي لا تستطيع أن تنزل إلى أرض الواقع ، وهاجموا الغيبيات وحاولوا إلغائها نهائياً من القواميس.

وثمة فرق كبير شاسع بين (الغيب) و(الغيبية) وفق هذه الرؤية الضبابية التي لا رصيد لها في عالم الواقع ، وبين الغيب الذي يعد قاعدة التأسيس الايماني في هذا العالم ، ذلك ان الله (سبحانه وتعالى) الذي لا تدركه الأبصار هو من الغيب ، وظاهرة النبوة التي تتلقى التعاليم عن الله (سبحانه وتعالى) ، عبر الكتب المنزلة من السماء هي من الغيب ، والجنة والنار هي من الغيب ، والملائكة والجان والشياطين هم من عالم الغيب ، والقدر خيره وشره هو من الغيب ... الخ ... الخ ... بل إنه حتى الظواهر العلمية كالطاقة والحركة والضوء والجاذبية ، هي في ماهياتها وليس في ظواهرها من الغيب.

ولقد وردت كلمة (الغيب) بهذه الدلالات فيما يزيد عن الخمسين موقعاً في كتاب الله ... وكلها تؤكد المفاهيم نفسها التي تتعارض ابتداء مع ما ذهب إليه الغربيون وأتباعهم في تفسيرهم للغيب. ولكن إذا كان القرآن الكريم قد بنى التصور الديني على أساس الغيب ، باعتبار المصدر اليقيني للمعرفة ، فإنه أكد في الوقت نفسه على ضرورة وأهمية (التجريب) واعتماد (الحواس) وتعميق صلة (العقل) بما حوله في حقول النفس والطبيعة والعالم والحياة لاكتشافها وتسخيرها لخدمة الحضارة البشرية ورفيها ، وتحقيق فكرة (استخلاف) الإنسان على الأرض من أجل أداء دوره الحضاري فيها.

ونحن نجد هذه (المسؤولية) الملقاة على عاتق الحواس والعقل في الآية : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٣٦). وهنالك ما يزيد على خمسين وسبعمئة آية - على وجه التقريب - دعت المسلمين إلى ضرورة اعتماد الطاقات الحسية والعقلية والتجريبية لاكتشاف قوانين الطبيعة والحياة وتسخيرها لخدمة الإنسان ، فيما قاد المسلمين إلى اكتشاف منهج البحث الحسي التجريبي الذي تدين له حضارة الغرب المعاصرة بالكثير الكثير ، وفيما يؤكد كبار مؤرخي العلم من الغربيين أنفسهم ، من أمثال (الدوميلي) الفرنسي و (جورج سارتون) الأمريكي.

إن تأكيد القرآن الكريم على الإيمان (بالغيب) لم يمنعه من التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلي ، والممارسة العملية ، بل على العكس ، يتساق مع ، يوازيه ويعتمده في تعميق الإيمان بالغيب كتسخير يقيني للوجود الكوني والبشري على السواء ، بما فيه من دقة وضبط وتوافق وانتظام ، يؤكد هذا أن ما قدمه القرآن الكريم حول بعض القوانين والسنن الكونية من معطيات (في حقول الطبيعة والحياة والفلك ... الخ) جاءت الكشوف العلمية أخيراً لكي تعززها وتوضح أبعادها التي خفيت عن أذهان أجيال كثيرة في الماضي ... وهذا هو مصداق الآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت : الآية ٥٣).

وهذا يقودنا إلى الإرادة الإلهية الكلية الشاملة ، التي تملك القدرة المطلقة على الخلق والأمر ، والتي بيدها ملكوت كل شيء ، أن تبني هذا الكون المحكم في جانبيه المنظور

والمغيب ، وأن تتجاوز به التناقض أو الانهيار أو الزوال ، وأن توحى في كل سماء أمرها ، وأن تمسك بمقاليد السماوات والأرض وتسوقها عبر أزمان لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى في هذا المسار المحكم الذي تراه عيوننا وتسمعه آذاننا وتلمسه أيدينا وتسلم به عقولنا وأفئدتنا ... فقط إذا عرفنا كيف نفتت الران الذي يحيط بهذه الأفئدة والقلوب ، ونجعلها تتفتح على هذه المنظومة المعجزة والمدهشة من الحقائق الكونية التي تشهد جميعاً بأن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له (جل في علاه) : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَاللَّامِزُ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ (سورة فصلت : الآيتان ١١-١٢) . ﴿ وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٢) . ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ... ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٥) . ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٠) . ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَاءْنَا بِكِتَابٍ مِّنْ خُرُوجِ قَتْحِكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان : الآية ١٦) . ﴿ يَعْلَمُ مَا كَلِمَةٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُحُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٢) . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَنبِيَا السَّاعَةِ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَأَتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَأَغْرِبَ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَكَأ فِي الْأَرْضِ وَكَأ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَكَأ أَكْبَرُ الْإِنْفِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٣) . ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨٢) . ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ (سورة الصافات : الآية ٥) . ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الشورى : الآية ١٢) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَمْ يَعْبِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ... ﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣٣) . ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة القمر : الآيتان ٤٩-٥٠) . ﴿ قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَكَأ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (سورة المؤمنون : الآيتان ٨٨-٨٩) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي

السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿ (سورة الزخرف : الآية ٨٤). ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ
مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨٣).

في واحدة من أكبر المدن الآسيوية : كوالا لامبور عاصمة ماليزيا ، أحدث عطل موقوت
في شبكة الترافيك لايت ، لم يتجاوز الدقائق المعدودات ، إرباكاً هائلاً في المواصلات ، وبالتالي
في المسار اليومي للأنشطة المزدهمة المتشعبة كافة.

فماذا لو حدث عطل كهذا في مسارات النجوم والسدم والمجرات عبر الكون العريض ؟ ما
الذي سيتمخض عنه فيما ينذر بالويل الذي لا يحيط بأبعاده أشد الناس قوةً في الخيال ؟
ملايين السنين ، بالحسابات الضوئية ، وحركة الكواكب والأقمار والنجوم والسدم والمجرات ،
تمضي في مساراتها المرسومة دون أن تتحرك قيد أنملة عما أريد لها أن تمضي فيه : ﴿ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَانِزِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ﴿ ٣٩ ﴾ لَأَ
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ﴿ ٤٠ ﴾ (سورة ياسين : الآيات
٣٨-٤٠).

إنها يد الله (سبحانه وتعالى) القديرة ، المريدة ، الفاعلة ، من يمسك بالكون ويحميه من
الفوضى والتسيب والارتطام والإجهاز على كل شيء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن
زَالَتَا لَأِنْ أَسْكَنَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة فاطر : الآية ٤١). ولطالما حدثنا
كتاب الله في مواقع عديدة من آياته البيّنات عن هذا الإحكام الكوني ، ولفت أنظارنا إلى المشيئة
المطلقة التي تقف وراءه (فيما سبق وأن أوردنا شواهده المزدهمة).

عطب في المكائن والآلات الكبيرة يمكن السيطرة عليه ... عطل في شبكة الترافيك يمكن
إصلاحه وإعادة الأمور إلى نصابها ... لكن العطب الكوني إذا قدر له أن يقع فلن يكون بمقدور
قوة في العالم أن تتداركه ، وستقف أقوى دولة في الدنيا عاجزة يائسة مستسلمة أمام تحدّيه القاهر
المخيف.

فكيف بعملية بناء الكون نفسه ؟ اية قدرة مطلقة تمكنت من تصميمه وإنجازه ؟
﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْجِدَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ (سورة الكهف :

الآية ٥١) ... هذا هو الجانب الآخر من المشهد الكبير الذي طالما لفت القرآن الكريم أنظارنا إليه : خلق الكون !

إننا إذن أمام معجزتين كبيرتين : خلق الكون ، والإمساك بنظامه المحكم ... وليس ثمة تفسير للمعجزتين سوى وجود الله (سبحانه وتعالى) الذي لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، والذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ... وكل التفسير المادية الفاجرة الكافرة ، التي سعت ولا تزال إلى إبعاد الوجود الإلهي عن الخلق والسيرورة الكونيتين لا تعدو أن تكون عبث صبيان ، تخبط عميان ، و(سخفاً طائشاً) إذا استعرنا عبارة (سوليفان) في (حدود العلم) وهي جميعاً تدعو للسخرية ولا تتطوي على أي قدرٍ من الاقناع لكل من يملك ذرة من بصيرة أو عقل.

وها هنا عبر هذا الفارق الكبير بين المنظور القرآني لخلق الكون ، بدءً وصيرورةً وانتهاءً ، وهدفاً ومغزى ، وبين معطيات المخاليق التي طاشت بها السهام حتى بلغت دهاليز " الجنون والدجنة " (إذا استخدمنا عبارة فاولي في كتابه : عصر السريالية) ، وتجاوزتها إلى قتل الله وحاشاه ، وقتل الإنسان ، كما فعلت تيارات الحداثة ، وتركت ساحات الكون يهيمن عليها العبث، والفوضى واللاجدوى ، كما أجمع عليه رواد الطليعة العبثية والوجوديون والدادائيون والسرياليون ، وذبحت بسكينها الملطخة بمعطيات العقل البشري المحدود الثابت والمعتقدات ، وأدخلت البشرية دوامة القلق والتشاؤم واليأس والعذاب ... والهروب إلى المغيبات ... والانتحار ، كما تشهد ساحات الدول المعاصرة الأكثر تقدماً : الولايات المتحدة واليابان والسويد ... حيث اعلنت فضائياتهم عن تخصيص ثلاثين مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في الساحة اليابانية ، وحيث يصاب عشرة بالمائة من الأمريكيين بداء الاكتئاب المركز الذي يسوقهم إلى تناول العقاقير المغيبة ، وفيما تشهده السويد ، رغم التقدم الأسطوري لهذه البلدان على مستوى المدنية ... إنه خراب الروح ، وغياب الهدف النهائي للحياة الدنيا ، وضياح الإيمان باليوم الآخر الذي توضع فيه الموازين القسط ، ويتحقق الإنسان بالحياة الحقيقية الأبدية ... حياة بالطول والعرض والعمق ... فيما يمنح الأمل العميق بجدوى المسعى البشري في العالم ...

ها هنا يمكن أن نستعيد التحدي القرآني مرةً ومرةً وعشرين مرة : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا

خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ١١) ... لا شيء !

إننا لو تأملنا الفارق بين صنع الله (سبحانه وتعالى) وصناعة العبيد ، لوجدناه فارقاً في النوع وليس في الدرجة ، فارقاً حاسماً لا ينطوي على أية مقارنة بين قدرات الخالق والمخلوق ! ... إن كل ما يفعله هؤلاء هو أنهم يلجأون إلى المادة الأساس ، أو الأوليات التي وضعها الله سبحانه وتعالى بين أيديهم ، فيبدلون في نسبها وأحجامها ، أو يسوون نتوءاتها وتعاريجها لكي تكون أكثر ملاءمةً لوضعهم البشري ، أو أنهم يكشفون عنها النقاب بينما هي موجودة ابتداء ، حاضرةً مركوزة في فطرة الكون والناس والأشياء ...

إن كل ما فعله هؤلاء في حقول العلوم الصرفة أنهم كشفوا النقاب عن السنن والنواميس التي وضعها الله (سبحانه وتعالى) في تكوين العالم ... وفي العلوم التطبيقية ... وظفوا ما أعطاهم الله إياه من سنن ومواد خام. لم يستطع أي واحدٍ منهم ، ولن يستطيع ، أن يخلق خلية أو حجيرة واحدة من العدم ... لن يستطيع أن يهب الحياة للجماادات ويمنحها الحركة ... انهم يجيئون إلى عالم أحكم الله (سبحانه وتعالى) صنعه ، وأغدق على خلقه بنعمه ، وخيراته ، فم لا يفعلون بأكثر من التغيير والتبديل في النسب والأبعاد ولا يصنعون بأكثر من أن يكشفوا النقاب عن السنن التي شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون مغطاة من أجل تحفيز الإنسان على البحث والكشف والتنقيب والفاعلية والتحصّر .

إن الأشياء الكبيرة يصنعها الله (سبحانه وتعالى) ، والبشر لا ينجزون سوى الأشياء الصغيرة ولا يقومون - إذا صح التعبير - سوى بالأمور التكميلية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... ﴾ (سورة الزمر : الآية ٦٧) . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٩) . ﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ... ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٠١) . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٨٥) . ﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا قَدِيرًا ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٢) . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَمْرُوجًا ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ١١) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا

خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٧١). ﴿ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنْهِكَ شَيْئًا ﴿ (سورة مريم : الآية ٦٧). ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿ (سورة القمر :
الآية ٤٩). ﴿ ... أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ... ﴿ (سورة فاطر :
الآية ٤٠). ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿ ٥٨ ﴿ أَلَمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿ ٥٩ ﴿ (سورة الواقعة : الآيتان
٥٨-٥٩). ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ (سورة النحل : الآية ١٧). ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿ (سورة النحل : الآية ٢٠). ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ ﴿ (سورة الطور : الآية ٣٥). ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
... ﴿ (سورة الأنعام : الآية ١٠٢).

على مدى خمسين عاماً والعلماء السوفييت - بأمر من الدولة - يعملون في مختبراتهم
ومعاملهم لتخليق الحياة من المادة الميتة ، والهدف واضح ، أن تتأكد علمياً معطيات المادية
الديالكتيكية التي أصبحت عقيدة الحزب الشيوعي والدولة السوفيتية ، والتي ألغت الله سبحانه
وتعالى من الصيرورة الكونية وجعلت المادة تخلق نفسها وفق وهم المتغيرات الكمية التي تتحول
بقدره قادر إلى متغيرات نوعية !! خمسون عاماً أعلن العلماء في نهايتها عجزهم المطلق عن
تحقيق المطلوب وألقوا السلاح أمام معجزة الحياة !

العبرة بالخلق الأول من الموات ، كما أكد عليها القرآن الكريم ، وبإعادة الحياة للموات مرةً
أخرى كما أكد القرآن الكريم أيضاً ، وليس ببناء تشكيلات وإقامة منظومات إبداعية من المادة
الحية التي لم يكن لأحد من البشر أي دور في بعثها على الاطلاق : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ
وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ (سورة البقرة : الآية ٢٨).

الفصل الثاني

خلق العالم

ها هنا أيضاً يعتمد كتاب الله الزمن الكوني ، وليس الأرضي ، الذي بني فيه العالم من أجل تهيئته لاستقبال الإنسان ، الزمن الذي يغدو فيه اليوم الواحد كألف سنة مما نعد ، وقد يتجاوزها لكي يصبح خمسين ألف سنة ، أي ثمانية عشر مليوناً ومائتي ألف يوماً أرضياً ، ومن ثم فلا بهولنا الأمر وقد حسم في كتاب الله ، ما تطرحه النظريات الجيولوجية حول الزمن الذي استغرقه بناء العالم والذي قد يتجاوز الأربعة بلايين وخمسمئة مليون سنة ، وغيره من الأرقام الممتدة على مدى مليارات الأيام : ﴿ قُلْ أَنتُمْ كُنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٩ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ١٠ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ١١ ﴿ فَضَاهَن سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّتْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ١٢ (سورة فصلت : الآيات ٩-١٢).

وبهذا تكون تهيئة العالم لاستقبال الإنسان قد اقتضت أربعة أيام ، بينما استغرق بناء الكون يومين فحسب ... وإنه لفارق يثير الدهشة ويعطينا الجواب حول القيمة العليا لهذا الكائن الذي سيبعث في العالم الذي سخر له عبر هذه الأيام المتطاولة في عمر الزمن والتي تجاوزت المدى الذي تم فيه بناء الكون. ومن أجل ذلك تتكرر الثيمة القرآنية عبر هذا السؤال الاستنكاري : (أفلا يشكرون) (أفلا يعقلون) (أفلا يتدبرون) ... أفلا ... أفلا ... مقترنة بتأكيد القرآن الكريم على المكانة العليا التي احتلها الإنسان في هذا العالم : ﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَرْفَقَاتِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٧٠).

وفي أربعة مواضع أخرى يدمج كتاب الله الزمن الذي استغرقه بناء الكون والعالم في رقم واحد هو الأيام الستة : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ ... ﴾ (سورة يونس : الآية ٣). ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴾ (سورة هود : الآية ٧). ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ (سورة ق : الآية ٣٨) . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ (سورة الحديد : الآية ٤).

ذلك كله من أجل اختبار الدور الإنساني في العالم لمعرفة أيهم أحسن عملاً. وذلك الجهد الهائل كله يتحقق بإرادة الله (سبحانه وتعالى) دون أن يمسه (جلّ في علاه) اي قدر من التعب والإعياء وحاشاه.

" هناك مبدأ اكتشفه الفيزيائيون في الثمانينيات وسمي بالمبدأ الإنساني ، أو مبدأ التسخير ، وهو أن الأرض معدة ومصممة لكي يوجد عليها كائن عاقل ذكي ... ذلك أن للأرض غلاف جوي يقوم بمهمة عظيمة ، وقد تبين أن سمكه مقارنة بجسم الأرض هو ١٥/١٠٠٠ وهو غلاف متميز لاحتوائه على كل الغازات التي تساعد وتسبب وجود الحياة. فسمكها وضغطها مقدر بحيث يتناسب مع نشوء الحياة. وقطرها ١٢ ألف كم ويقوم بنشر الضوء. أما الشهب المتساقطة من السماء فهي إما أن تتبخر في الغلاف الجوي ، أو تصل وهي صغيرة جداً ، ولولا الغلاف الجوي لأصبحت رؤوسنا كالغرابيب ، أي لثم ثقبها ولا تعد من الحياة من كثرة تساقط حباتها المتشظية من انفجار النيازك والشهب. هذا إلى أن طبقة الأوزون الموجودة في الغلاف الجوي والتي هي بسمك ٣ كم ، وتبعد عنا ب ٣٦ كم ، هي التي تحمينا من كل تلك الإشعاعات القصيرة القاتلة والحارقة.

هذا إلى أن الأرض محاطة بغلاف مغناطيسي ، أو درع مغناطيسي ، مهم جداً ، ينتج من مغناطيسية الأرض ، يحمينا من الرياح الشمسية ، وهي شحنات وأيونات موجبة وسالبة بمعنى أنها ضباب وصواعق محرقة ، وهي تأتي إلى الأرض ، لكنها تنعكس عنها بواسطة هذا الدرع المغناطيسي حول الأرض ، والذي يقوم بتحريف الشحنات السالبة والموجبة وحماية الأرض من الرياح الشمسية التي هي عواصف كهرومغناطيسية ساحقة "(١).

يطرح القرآن الكريم بعد هذا التأسيس الكبير شبكة من التفاصيل التي يتحدث فيها عن بناء العالم من أجل أن يكون صالحاً للمسعى البشري ، قديراً على الاستجابة لتحدياته ابتداء من تشكيل الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبحار والجبال الرواسي ، وتمهيد الأرض ، وإنزال

(١) هافال عارف برواري : إشارات كونية من القرآن ، ص ٩٧-٩٩.

الأمطار ، وإخراج النبات ، وخلق الحيوان ، وتهيئة الأرزاق والمعاش واتقان الصنع ، واللمسات الجمالية للخلق ، وتواصل الخلق والابداع ، والملكية والهيمنة ، والجِدَّ والحضور الدائم ، والعلم المطلق ، والسجود لله (جلَّ في علاه) الذي خلق هذا كله ، بأمره ، وحَوَّلَه من حالٍ إلى حالٍ ، وانتهاءً بوقفات القرآن العديدة ، ذات الدلالة على البعد الحضاري لخلق الإنسان ودوره في العالم: الاستخلاف والتسخير والاستعمار (بدلالاته اللغوية وليست الاصطلاحية) ... ثم الأجل المسمى لهذا كله : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣) منهيًا الأمر كله بهذا التحدي ، الذي يجابه به الطواغيت والأرباب والآلهة المزيفة ومرتزقة الأديان المحرفة : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَمُرُّنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ١١).

فلنبداً رحلتنا مع هذه الشبكة المحكمة والمعجزة من المعطيات التي مكنت فيها إرادة الله سبحانه وتعالى كرتنا الأرضية من استقبال الإنسان ، وفتح الطريق أمامه واسعاً عريضاً لأداء مهمته الاختبارية التي خلق العالم من أجلها ... ولنبدأ بالإجابة على هذا السؤال الذي يطرحه (أحمد خيرى العمري) في كتابه الذي يحمل عنوان : (ليظمنن عقلي) : " ما الذي جعل الحياة ممكنة على كوكب الأرض " مستشهداً بالعديد من المراجع الأجنبية التي صدرت حديثاً. ونظراً لخطورة الإجابة الموثقة هذه وأهميتها البالغة في الموضوع الذي بين أيدينا فسوف نتيح لأنفسنا النقل الحرفي الطويل نسبياً ... " فالحياة على الأرض ظاهرة معقدة لا يمكن فهمها من خلال بعدٍ واحد ، توصيف هذه الظاهرة من كل جوانبها سيمنحنا القدرة على فهم التداخل في العوامل التي أدت إلى جعل الحياة ممكنة على كوكب الأرض ... من أهم هذه العوامل :

أولاً - المسافة المناسبة التي تفصل الأرض عن الشمس والتي جعلت درجة الحرارة على الأرض مناسبة للمحافظة على الماء في الحالة السائلة (وهو متطلب أساسي بالنسبة للحياة بشكلها الذي نعرفه) ... المسافة الأقرب كانت ستجعل الماء سريع التبخر ، والأبعد كانت ستجعله متجمد تماماً.

ثانياً - وجود قمر بحجم كبير (بالمقارنة ببقية أقمار كوكب المجموعة الشمسية) وعلى مسافة مناسبة لعب دوراً مهماً في تثبيت ميل محور دوران الأرض ، الذي يعتقد أنه كان - من

دون وجود القمر - سيكون عشوائياً ... هذا الثبات وفر مناخاً مستقراً بفصول متعاقبة سهلت من نشوء الحياة واستدامتها ، بينما عشوائية المحور كانت ستؤدي إلى نتائج مناخية لا يمكن معها نشوء الحياة كما نعرفها. الشمس مثلاً في هذه الحالة ستشرق مباشرةً على القطبين وليس على خط الاستواء. كما ساهم القمر مباشرةً في تكوين ظاهرة المدّ والجزر والتي يعتقد أنها لعبت دوراً مهماً في نشوء الحياة على الأرض وانتقالها من الماء إلى اليابسة.

ثالثاً - حجم الأرض مناسب لتكوين جاذبية أرضية كافية للمحافظة على الغازات الضرورية للحياة التي تجعل من الكوكب قابلاً لوجود الحياة. فلو كانت الأرض أكبر حجماً ، لكانت جاذبيتها أشدّ ولاحفظت بغازات الهيليوم والهيدروجين التي كانت الأكثر انتشاراً في البداية ، ولذلك تكون الحياة - كما نعرفها - أمراً مستحيلاً.

رابعاً - المجال المغناطيسي للأرض والذي لعب دوراً مهماً في حماية الكائنات الحية من الأشعة الكونية المضرّة التي تنبعث من الشمس ... حيث أن الـ DNA سيكون معرضاً للدمار بسبب أشعة غاما والأشعة فوق البنفسجية الصادرة من الشمس ... دون وجود حماية للمجال المغناطيسي. كما لعب هذا المجال دوراً في حماية مناخ الأرض ومحيطاتها.

خامساً - وجود الماء في الأرض وعلى نحو يغطي أكثر من ٧٠% من سطح الأرض ، حيث كل أنواع الكائنات الحية تحتاج إلى شكل من أشكال الماء في وجودها واستمرارها بالحياة ، ويتميز الماء بأنه يمكن أن يتواجد في حالاته الثلاث (السائلة والغازية والصلبة) ضمن اختلاف درجات الحرارة على كوكب الأرض ، وهذا بدوره حافظ على وجود الماء في الكوكب ، حيث أن كوكباً بدرجات حرارة مختلفة كان يمكن أن يحول الماء إلى حالة واحدة (متجمدة) في كوكب بدرجة حرارة منخفضة وغازية بدرجة حرارة مرتفعة ، لكن تنوع درجات الحرارة في الأرض ساهم في تدوير الحياة وديمومتها على سطح الأرض.

سادساً - وجود الكربون كوحدة أساسية للحياة لعب تحرر الكربون من باطن الأرض دوراً مهماً في نشوء الحياة. إذ تعتبر الحياة على الأرض مبنية على الكربون. ولهذا تسمى " الحياة الكربونية " فكل الجزيئات المعقدة تحتوي على الكربون مرتبطاً مع عناصر أخرى. ويعود تميز الكربون عن بقية العناصر الكيميائية إلى قدرة ذراته على الارتباط بعدد لا نهائي من ذرات

الكربون ، وتكوين سلاسل يمكنها الارتباط بذرات من عناصرٍ أخرى ، وهو بذلك المكون الأساسي للسكريات والبروتينات والدهن والحمض النووي ، والنسج والعضلات. ويرتبط وجود الأوكسجين بوجود ثاني أوكسيد الكربون في الجو ، كما يساهم ثاني أوكسيد الكربون فيما يعرف بظاهرة (تأثير البيت الأخضر) وهي الظاهرة التي تقوم فيها غازات معينة (ثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء والميثان) بحبس الحرارة التي يفترض أن تخرج من الأرض إلى الفضاء وبالتالي ستحافظ على درجة حرارة الأرض. وبدون هذا التأثير ستخفص درجات الحرارة إلى معدلات لا يمكن للحياة ، أن تستمر فيها. كذلك فان نسبة ثاني اوكسيد الكربون في الجو مناسبة لإحداث هذا الأثر الحابس للحرارة دون أن تزيد عن ذلك فتؤدي إلى ارتفاعها لدرجة تؤدي إلى تبخير مياه المحيطات.

سابعاً - العلاقة بين الصفائح (التكتونية) العملاقة التي يتكون منها غلاف الأرض الصخري : حيث تتحرك هذه الصفائح وعلى النحو الذي شكل القارات وسلاسل الجبال العملاقة ومختلف التضاريس ، وبسبب هذه التحركات وانزلاق أجزاء من الصفائح تحت أخرى تكونت البراكين التي ساهمت في إطلاق الغازات المخزونة تحت سطح الأرض وتشكيل المناخ الأرضي المكون من نتروجين وثاني أوكسيد الكربون ، وهو المناخ المناسب لنشوء الحياة على سطح الأرض. وهذه الحركة المستمرة تساهم في إعادة تدوير ثاني أوكسيد الكربون في المناخ الأرضي ، وتعمل على تجديد وإعادة تدوير القشرة الأرضية على نحوٍ يجعل الأرض حية ومتحركة داخلياً. والصفائح التكتونية تتطلب جملة من الشروط لكي تحدث (حجم الكوكب ، وحجم القشرة ، وجود الماء بكمية كافية) وهذا يجعل من الأرض الكوكب الوحيد المعروف الذي حدثت فيه هذه الظاهرة.

ثامناً - التركيب الضوئي وظهور الأوكسجين : قرابة نصف عمر الكرة الأرضية مضى دون أن يكون هناك أوكسجين في الغلاف الجوي للأرض ، إلى أن ظهر قبل ٢.٤ مليار سنة ، أي بعد ملياري سنة من نشوء الكرة الأرضية ويفسر ظهور الأوكسجين (الغاز الذي لا يمكن أن نحيا بدونه) بالحياة نفسها.

كل هذه العوامل ساهمت بتداخل كبير ، في امكانية نشوء الحياة على كوكب الأرض ، وهي عوامل جعلت من كوكب الأرض مميزاً حتماً عن بقية كواكب المجموعة الشمسية ، وربما عن كواكب بقية المجموعات في المجرة ، أو المجرات الأخرى ^(١).

فما الذي يقوله كتاب الله عن شبكة الظواهر التي جعلت كرتنا الأرضية هذه صالحة للحياة ... ولنبدأ بظاهرة الليل والنهار ... إذ لولا تدوير الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ، ميلها بزاوية مرسومة لمنح الفصول الأربعة عبر رحلتها الدورية هذه ... ولولا وضع الشمس في مكانها تماماً دون زيادة أو نقصان ، لما كان هناك في كرتنا الأرضية ليل أو نهار ، ولما كانت فرصة بأية درجة من الدرجات لساعات يسكن فيها الناس من عناء النهار ، تقابلها ساعاتٍ أخرى يكدحون فيها لتسيير شؤون حياتهم ، ولما كانت هناك أية مساحة للنوم وأخرى للعمل ، ولا أية فرصة لمعرفة السنين والحساب ... انها إرادة الله (جلّ في علاه) التي ساقته هذه الكرة إلى اختلاف الليل والنهار منذ لحظات الخلق الأولى وإلى أن يقوم الحساب ... فلنر : ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ

الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتُونَ﴾ (سورة يونس : الآية ٦).
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ تَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (سورة يونس : الآية ٦٧).
﴿... وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٣). ﴿... يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الرعد : الآية ٣). ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ...﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣٣). ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةً اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَكَلَّمُوا عِدَّةَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَا تَفْصِيلًا﴾ (سورة الإسراء : الآية ١٢). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ...﴾ (سورة الحج : الآية ٦١). ﴿يَقَلْبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (سورة النور : الآية ٤٤). ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦٢). ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة النمل : الآية ٨٦). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

(١) أحمد خيرى العمري : ليظمنن عقلي : ص ١٠٩-١١٣.

... ﴿ (سورة لقمان : الآية ٢٩) . ﴿ وَالتَّهَامِرِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ﴿ ٤ ﴾ ﴿ (سورة الشمس : الآيتان ٣-٤) . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ﴿ ١ ﴾ ﴿ وَالتَّهَامِرِ إِذَا نَجَلَى ﴾ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ (سورة الليل : الآيتان ١-٢) . ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ ١ ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ (سورة الضحى : الآيتان ١-٢) . ﴿ فَانِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ... ﴾ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٦) . ﴿ ... يُغْشَى اللَّيْلَ التَّهَامِرِ يُطَلِّبُهُ حَيْثُهَا ... ﴾ ﴿ (سورة الأعراف : الآية ٥٤) . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالتَّهَامِرَ ... ﴾ ﴿ (سورة النحل : الآية ١٢) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالتَّوَمَّ سُبَاتًا وَجَعَلَ التَّهَامِرَ نُشُورًا ﴾ ﴿ (سورة الفرقان : الآية ٤٧) . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِغِيَابٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ التَّهَامِرَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ ٧٢ ﴾ ﴿ وَمَنْ مَرَّ حَيْثُ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالتَّهَامِرَ تَسْكُنُوا فِيهِ وَكَبْتُمْ عَنْهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَلَمْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٧٣ ﴾ ﴿ (سورة القصص : الآيات ٧١-٧٣) . ﴿ وَأَيُّ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسَلَخَ مِنْهُ التَّهَامِرَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٣٧) . ﴿ ... وَكَاللَّيْلِ سَابِقِ التَّهَامِرِ ... ﴾ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٤٠) . ﴿ ... يُكْوِمُ اللَّيْلَ عَلَى التَّهَامِرِ وَيُكْوِمُ التَّهَامِرَ عَلَى اللَّيْلِ ... ﴾ ﴿ (سورة الزمر : الآية ٥) .

فلم تكن - إذن - بحاجة إلى الصليبي المبشر السفاح ماجلان لاكتشاف كروية الأرض ، كما كنا نتلقى عن معلمينا في المدارس ... ها هو ذا كتاب الله يؤكد الأمر في هذه الآية الكريمة التي تدل بمفردتي التكوير على كروية الأرض ... ومهما يكن من أمر فان معجزة خلق الليل والنهار ، وجعلهما ثابتتين على الدوام يعقب أحدهما الآخر دونما أي خلل في تعاقبهما ، فيقدمان بذلك خدماتهما للإنسان ليلاً ونهاراً ... اضلاماً وإشراقاً ... ولذا يعقب كتاب الله على معجزته هذه بأن الأمر جد ، وأنه ليس ثمة أية مساحة للصدفة أو العشوائية في هذا الإحكام لرحلة الليل والنهار : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ لِقَوْمٍ لَوْلِي الْأَبْصَارِ ﴾ ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ وَكَلَمْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أما الشمس والقمر فتلك معجزةً أخرى تنتفي بوجودها أية مساحة للصدفة على الإطلاق ،
يكفي أنها من صنع الله الذي أتقن كل شيء .

لقد وضعت الشمس في مكانها تماماً ... هذا الفرن الذري الذي يتفجر في كل لحظة
بمليارات السرعات الحرارية والذي يقدم خدماته الرباعية للإنسان : الاضاءة ، والتدفئة ، والتبخير ،
وصناعة الطعام بامتزاج الضوء بالكربون بمادة الكلوروفيل الخضراء ... فماذا لو كانت الشمس
أبعد قليلاً عن موضعها الراهن ، ألا تتجمد الحياة على سطح الأرض في دقائق معدودات ،
وماذا لو كانت أقرب قليلاً ألا يقود ذلك إلى ارتفاع رهيب في درجات الحرارة تستحيل معها
الحياة ؟ أية صدفة هذه التي وضعت هذا الفرن الذري الذي لا تنقضي عجائبه ولا ينقطع سخاؤه ،
في هذا الموضع المناسب تماماً لاستمرارية الحياة على الأرض ؟ ألا يدعونا هذا للتفكير
والتدبر في خلق الله (جلّ في علاه) ، ذلك الذي يضع الأمور في نصابها تماماً ... لا زياد ولا
نقصان ، ولا تقديم ولا تأخير ؟ " إن الشمس هي من الجيل الثاني أو الثالث من النجوم ، مكونةً
من عناصر كيميائية أخرى ، بعد الهيدروجين والهيليوم وهي تولد كمية كبيرة من الطاقة وتخسر
من طاقتها التي تصدرها كل يوم بمقدار ٤ مليون طن في الثانية الواحدة ! لكن بسبب كتلتها
الهائلة فانها تستطيع إنتاج الطاقة لمديات زمنية متطاولة. والشمس متذبذبة فهي تتكمش وتتسع
قليلاً ، باستمرار ، وهذا ما يساعدها على عدم الانفجار. فبسبب الانفجارات النووية داخل
الشمس ، يزداد الضغط عليها ، وفي داخلها ، وبذلك تتمدد قليلاً ، وعند التمدد يتم تبريدها ،
وبالتالي تقل معدلات الاندماجات النووية وبالتالي يقل الضغط ، وبسبب ذلك يحصل انكماش
فتزداد الجاذبية ، ويزداد الضغط عليها وبالتالي تزداد معدلات الاندماجات النووية ، وهكذا تتكرر
العملية باستمرار. فهذا التوازن الهيدروستاتيكي هو الذي يساعدها في محافظتها على كيانها.
ولكن هذه العملية لا تستمر إلى الأبد ، لأن كمية الهيدروجين محددةً داخلها ، مهما كانت كبيرة
... وبالتالي ستتناقص إلى أن تصل إلى درجة جعلها غير قادرةً على خلق اندماجات نووية ،
وبالتالي تتوقف الانفجارات النووية ، فيبقى داخل الشمس كمية كبيرة من الهيليوم ، وهو بطبيعته
أثقل من الهيدروجين أربع مرات ، فتتولد فيها قوة جاذبية شديدة تجعلها تعمل على سحب
الشمس نحو الانكماش والتحول إلى مرحلة التكوين كما بينها القرآن الكريم بقوله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ

كُورِتْ ﴿ (سورة التكوير : الآية ١) وهي ضم الشيء بعضه إلى بعض. فانكماش الشمس انكماشاً عظيماً يجعل الضغط داخلها يتزايد ، ودرجة الحرارة ترتفع إلى ٢٥ مليون درجة ، وبما أنه أصبح في باطنها نسبة كبيرة من الهيليوم وقليل من الهيدروجين ، فهذا ما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة باطن الشمس ، فيندمج الهيليوم (ثلاث ذرات من الهيليوم) وتتحول إلى كربون فتتولد طاقة هائلة ، وعصف نووي ، وضغط مئات أضعاف من اندماج الهيدروجين. فمن مميزات الهيليوم أنه عندما يكون تحت ضغط هائل ويحدث فيه انفجار نووي ، يؤدي بالضرورة إلى انفجار كل الهيليوم الموجود في باطن الشمس. وبالتالي ستتحول الشمس من جسم منكمش إلى جسم منتفخ انتفاخاً سريعاً جداً ، بسبب الضغط الهائل من الانفجارات الهيلومية ، فتقوم بابتلاع كوكبي عطارد والزهرة وتقترب اقتراباً شديداً من الأرض. فعندما تتضخم الشمس وتنتفخ ، يتحول قطرها من (مليون و ٤٠٠ ألف) كم إلى (٣٠٠ مليون) كم ، وفي فترة قصيرة جداً جداً ، ربما ساعات ، مما يؤدي إلى غيابها وطلوعها عندنا وكأنها تطلع من المغرب ^(١).

أما القمر ، فتلك معجزة أخرى ، بالنور الذي يبثه على الأرض ، عبر ليلها المعتمة ، وبدورانه حول الأرض شهراً بعد شهر ، فيما يعطي البشرية القدرة على حساب الأيام والأشهر والسنين ، وفيما يقوم به في عملية المدّ والجزر ، في البحار والسطوح المائية ، فيسقي الأرض بعد مواتها ؟ ألا يدعوننا هذا إلى التدبر في خلق الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ إذن لنتابع الآيات التي تحدثنا عن الشمس والقمر : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ

ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ... ﴾ (سورة يونس :

الآية ٥). ﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ٢).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٣). ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣٣). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ ... ﴾ (سورة الحج : الآية ١٨).

(١) هافال عازف برواري : إشارات كونية من القرآن ، ص ٩٢-٩٣.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٦١). ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنى يُؤَفِّكُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٦١). ﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٩). ﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (سورة الزمر : الآية ٥). ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ٥ ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ٦ ﴿ (سورة الرحمن : الآيتان ٥-٦). ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (سورة نوح : الآية ١٦). ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ (سورة النبأ : الآية ١٣). ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ ١٦ ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ ١٧ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ ١٨ ﴿ (سورة الانشقاق : الآيات ١٦-١٨). ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ١ ﴿ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا ﴾ ٢ ﴿ (سورة الشمس : الآيتان ١-٢). ﴿ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٦). ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرٍ وَإِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٢). ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ٣٨ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَّانِينَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ٣٩ ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَكَاللَّيْلِ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ٤٠ ﴿ (سورة ياسين : الآيات ٣٨-٤٠).

ها هنا أيضاً ، يدين كتاب الله أولئك الذين وضعوا غشاوة الجهل والانكار على أعينهم وأبصارهم فلم يعد بمقدورهم أن يروا معجزة الشمس والقمر كما تتبدى واضحة لكل ذي عقلٍ ونظر : ﴿ ... فَأَنى يُؤَفِّكُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٦١). ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (سورة الرحمن : الآية ١٣). ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الرعد : الآية ٤) !!

وتمتد يد الله القديرة فتضبط حركة الشمس والقمر وفق مسافاتٍ لا تتزحزح ولا تميل ، فهما يجريان في أفلاكهما التي صممت لحركتهما الدائبة التي لا تتوقف حتى أجلها المقدّر في علم الله الأزلي ، وهما تمارسان سياحتهما عبر السماوات في مجالاتٍ محددة لا تتدد ولا تخرج عن المساق

... ومن ثم يجيئ هذا التسخير المعجز واحداً من بين عشرات بل مئات غيره من معجزات الخلق وآيات الله في الأنفس والآفاق.

وثمة اللمسات الجمالية لهاتين الكتلتين المدهشتين ، فليست المنفعة وحدها هي التي تحكم وظيفتهما على جلالة قدرها ، وانما هنالك إلى جانبها ما تبتانه من جمال يؤكد غائية الخلق بما لا يقبل مباحة ولا جدلاً : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا... ﴾ (سورة يونس : الآية ٥). ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ (سورة نوح : الآية ١٦). ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ (سورة النبأ : الآية ١٣). ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ ١٦ ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ ١٧ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ ١٨ ﴿ (سورة الانشقاق : الآيات ١٦-١٨). ﴿ فَانقُ الصَّبَاحِ... ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٦). ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَمَرًا مَتَانِرًا حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٩) ... وكلنا قرأ عشرات القصائد ومئاتها ، تلك التي تغنى بها الشعراء بضوء القمر ، وبنوره الذي ينثه على الكائنات والأشياء عبر الليالي ، ولا تزال قريحتهم وستظل تتغنى بهذه الظاهرة الفريدة في بنيان الكون والعالم : ﴿ ... مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ... ﴾ (سورة يونس : الآية ٥) ومن ثم دعيت الشمس والقمر ، جنباً إلى جنب مع النجوم والجبال والشجر والدواب للإذعان لأمر الله والسجود له (جلّ في علاه)، أليستا هما من صنعه وبتقديره فماذا لو لم يشهد عالمنا هذا شمساً ولا قمراً؟ كيف سيكون الحال : ﴿ ... ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٦).

ونجىء إلى معجزة الخلق الأخرى في هذا العالم : البحار ، ذلك الخزين الاستراتيجي من الماء الذي يغطي خمسة أسداس الكرة الأرضية ، يتبخر ويفيض خيراته على البشرية مطراً غزيراً منذ آلاف السنين ، فلا ينقص ولا يفيض ، يقدم للإنسان خدماته الكبرى يوماً وسنة بسنة : امتطاء لظهره بقدرة الله وحده ، واستخراجاً لكنوزه من اللؤلؤ والمرجان لتزيين الحياة ، وإطعاماً لملايين الناس بأسماكه التي تظل تتكاثر وتتكاثر وتزداد عدداً رغم ما يلاحقها من صيد الصيادين.

ولطالما حدثنا كتاب الله عن هذه الوظيفة الرباعية للبحار : التبخير والنقل والإطعام والزينة ، وأدار كاميرته المدهشة لالتقاط الشواهد عليها ... ولطالما حدثنا عن تسخير الله لهذه

الظاهرة الكبرى ورحمته بالناس بشكمتها ، وهي المترعة بالملوحة ، عن أن تطفئ على المياه العذبة وتدمر الحياة ... وعن الرياح التي يسيّرها (جلّ في علاه) لتمكين المراكب ذات الأشرعة من اجتياز المسافات الطوال في المحيطات والبحار ، والتنقل من قارة إلى أخرى ومن مكان إلى مكان. وقال مندداً بالذين يخالفون عن أمره بأنه : ﴿ **إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ مَرَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ (سورة الشورى : الآية ٣٣). وقد يقول قائل من أولئك المتشككين : وماذا في ذلك ؟ فان سكون الريح إذا كان يؤثر على السفن الشراعية ويوقف حركتها الأيام والأسابيع الطوال ، فإنه لن يؤثر بحالٍ على السفن البخارية ومن بعدها الكهربائية والذرية. ولكن القرآن الكريم يدير المنظور فيصنع هؤلاء بإجابته القاطعة : ﴿ **أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ (سورة الشورى : الآية ٣٤) حيث يسقط حجتهم ، ويبين لهم أن هنالك أكبر بكثير من سكون الريح ووقف السفن الشراعية ... هنالك ضرب السفن ، وتفكيكها وإغراقها بمن عليها وما فيها في دقائق ولحظات ، أية كانت هذه السفن ، بخارية أو كهربائية أو ذرية ... وما أكثر السفن والغواصات التي أغرقها الله في القرنين الأخيرين ، حيث لم يتبق مكان للسفن الشراعية التي تدفعها الريح ... وليست حادثة الغواصة الذرية السوفياتية ببعيدة عن الأذهان ، وليست واقعة السفينة الأسطورة (تاي تانك) عام (١٩١٣م) ببعيدة عن الأذهان هي الأخرى ... لقد بنيت لكي تكون أكبر سفينة يشهدها التاريخ البشري على الاطلاق ... وأقلعت من ساحل إيرلندة لكي تجتاز المحيط الأطلسي في طريقها إلى أمريكا ، ويقف صاحبها الملياردير على سياجها وهي تبدأ رحلتها تلك ، لا ليسمي باسم الله ، ولكن ليقول بأن الضمانات التي وضعت فيها تتحدى أي شيء ، لا بل أنه مضى في تبجحه إلى القول بأنه يتحدى الإرادة الإلهية إن كانت قديرةً على إغراق سفينته العملاقة تلك !

وفي داخل السفينة وهي تجتاز المحيط ، في صالاتها وباراتها ، ومواخيرها وغرفها ... مضى المسافرون يرقصون ويشربون ويغنون ويضربون المواعيد ... و ... و ... مطمئنين أشد الاطمئنان إلى أن ناقلتهم تلك لن يصيبها أذى ، وأنهم سيصلون آمنين إلى أهدافهم ، وإذا بها على حين غفلة تضرب جبلاً جليدياً لا يظهر منه سوى الخمس ، والأخماس الأخرى مخفيةً

تحت الماء ، فيشطرها شطرين ويقودها بمعظم من فيها ، وهم آلاف مؤلفه ، إلى القاع :
﴿أَوْ يُؤْفَكْنَ بِمَا كَسَبُوا وَيُفْعَلُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (سورة الشورى : الآية ٣٤).

وحقاً إن الله (سبحانه وتعالى) ، الغفور الودود الرحيم ، عفا عن الكثير من الحالات المشابهة ، فوصلت السفن إلى أهدافها بسلام دون أن يصيبها أذى ، رغم ما جرى فيها من موبات ، ولكنه جلت حكمته يريد أن يقدم وسيلة ايضاح بين الحين والحين ، يسد بها أفواه أولئك المتشككين ، أو المتشبهين بالرؤية الأحادية العوراء ، فيقود هذه السفينة أو الباخرة أو الغواصة إلى مصيرها المفجع.

وثمة ملاحظة يتحتم أن تقال في معرض حديثنا هذا ، حيث تأكيد القرآن الكريم على الفلك التي تحملها المياه وعلى تسخير البحر لتجري فيه المراكب ... ألم يكن أولى بنا أن نكتشف نحن القاعدة الفيزيائية التي تمكن المياه من حمل الأثقال ؟ أكان يتحتم لمكتشف كأرخميدس أن يقوم بهذا الكشف ؟ وكذلك الحال في الآيات التي تتحدث عن الطيور التي تسبح في الفضاء :
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُنْسِكُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (سورة الملك : الآية ١٩) ألم يكن أولى بنا أن نسبق الآخرين في اكتشاف قدرة الهواء على حمل الأجسام قبل أن يكتشفها الغربيون؟! صحيح أن محاولات أولية جرت في هذا الاتجاه كتلك التي نفذها الأندلسي عباس بن فرناس وذهب ضحيتها ... ولكن هذا وحده لا يكفي ، فان الكشوف لن تتحقق وتؤتي ثمارها إلا بالجهود المتواصلة والمثابرة المحمومة للوصول إلى الأهداف.

يكفي أن كتاب الله يعطينا الإشارات ، ويقدم لنا الشفرات ، وهو يتحدث عن شبكة من الأمور التي تعنى بها الفيزياء والرياضيات ... ولقد جهد أجدادنا زمن تألقهم الحضاري في الاستجابة لهذه الإشارات وفك رموز جانب من الشفرات ، ولكنهم لم يواصلوا الطريق لجملة من الأسباب التي قادت حضارتنا إلى ما يشبه الشلل ، بينما مضى الغربيون بجهودهم المدهشة يبحثون وينقبون ويكتشفون ... ألم يكن ابن غانم الموريسكي قد ألف كتاباً بعنوان : (العلم النافع في صناعة المدافع) تلك التي ترمي بالبارود فسبق لها الغربيين ، ولكن نكستنا في الأندلس وخروجنا منها قتلاً أو تنصيراً أو ترحيلاً إلى الشمال الإفريقي ، أوقف محاولات كهذه من أن

تواصل الطريق وتصل إلى الثورة الصناعية فتسبق دول أوروبا الغربية ... ولكن للتاريخ وللعمل الحضاري سننه ونواميسه ولا ريب.

فلنتابع جملةً من الآيات التي تتحدث عن تسخير البحار بأمر الله (جلّ في علاه) :

﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٢). ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (سورة الإسراء :

الآية ٦٦). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ... ﴾ (سورة الحج :

الآية ٦٥). ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٥٣). ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَكِتَابَتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة الروم : الآية ٤٦). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ٣١). ﴿ ... وَعَلَى الْفُلْكَ تُحْمَلُونَ ﴾ (سورة غافر : الآية ٨٠). ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَكِتَابَتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ١٢). ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الرحمن : الآيتان ١٩-٢٠). ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَكِتَابَتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٤). ﴿ ... وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ... ﴾ (سورة النمل : الآية ٦١). ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكَ تُحْمَلُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ٢٢). ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكَ الْمَسْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة ياسين : الآيات ٤١-٤٤). ﴿ ... وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ تَلَسْتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الزخرف : الآيتان ١٢-١٣).

والمهم أنها إرادة الله وحده وآياته البيّنات ما يفسر لنا فيزيائياً قدرة المياه على حمل الأجسام الثقيلة ، وإلا ما كان هذا الذي نشهده بأمر أعيننا لعلنا نشكر الله (جلّ جلاله) على سخائه ونعمائه ... لعلنا ...

ثم يجيء الدور في بناء العالم على ما تمثله الجبال من وزن حركة كرتنا الأرضية التي لولاها لظلت تميد بنا وبالكائنات كافة ذات اليمين وذات الشمال فيما يستحيل معه القيام بأي نشاط حضاري ، وفيما يحول حياتنا على الأرض إلى جحيم لا يطاق وقلق أبدي من الاهتزاز الدائم الذي لا يستقر على حالٍ.

أهي الطبيعة التي نفذت هذا (البلاس) من أجل استقرار حركة الأرض وتمكين البشرية من مواصلة طريق الحياة والتقدم والرفي ؟ أم هي الصدفة العمياء التي صنعت هذا كله ؟ فمهما قيل بهذا الصدد من نظريات وأطروحات كافرة فاجرة تسعى إلى سحب يد الله المبدعة (جلّ جلاله) وحاشاه ، من صياغة العالم الآمن المستقر السعيد ، فهي لن تكون في بدء التحليل ونهايته سوى عبث صبياني لا يمكن التسليم به بحالٍ من الأحوال. وها هي الكشوف الأكثر حداثةً في ميدان الجيولوجيا ، وفي ساحات فلسفة العلم تؤكد أن تلك المعطيات الساذجة لا تعدو وأن تكون ، بتعبير (سوليفان) في (حدود العلم) : (نظريات السخف الطائش) !

والآن فان لنا أن نتابع إرادة الله سبحانه وتعالى التي شاءت لكرتنا الأرضية هذه ألا تبلى بالتأرجح الدائم الذي تستحيل معه الحياة ، وأن تمارس بناء العالم بأكبر قدر من الدقة والإحكام :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ٣). ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ... ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣١). ﴿ ... وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ١٠). ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٥). ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَاراً ... ﴾ (سورة غافر : الآية ٦٤).

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ ... ﴾ (سورة ق : الآية ٧). ﴿ ... وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ ... ﴾ (سورة الحجر : الآية ١٩). ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ... ﴾ (سورة المرسلات : الآية ٢٧).

﴿ ... وَجَعَلَ لَهَا رِوَاسِيَ ... ﴾ (سورة النمل : الآية ٦١). ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ (٦) ﴿ وَالْجِبَالَ

أوتاداً ﴿٧﴾ (سورة النبا : الآيتان ٦-٧). ﴿وَالْجِبَالُ أَمْزَاجٌ﴾ (سورة النازعات : الآية ٣٢). ﴿وَالِي الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (سورة الغاشية : الآية ١٩). ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً...﴾ (سورة النمل : الآية ٦١).

وبمجرد إلقاء نظرة بانورامية من الطائرة على توزيع الجبال وسلاسلها على القارات ، تتبين لنا عدالة صنع الله (سبحانه وتعالى) في بناء العالم وحمايته من التآرجح الدائم ، حيث لا تكاد قارة من القارات ، أو حتى مساحة متسعة من الأرض تخلو من الجبال التي تتراوح بين تلك الجبال الشامخة في ارتفاعها ، وتلك المتوسطة أو المنخفضة ، وهي في كل الأحوال وزعت هذا التوزيع العادل لكي تكون رواسي لكرتنا الأرضية ، وأوتاداً تمسك بها عن التآرجح والميل فيقر قرارها ، لقد نصبت الجبال بإرادة الله وحده في سياق بنائه للعالم وفق أكثر الطرائق إحكاماً وإعجازاً !

ثم ماذا عن تمهيد الأرض وجعلها صالحةً للتنقل والحركة والذهاب من مكانٍ إلى مكانٍ ، فيما تقتضيه ضرورات الحياة البشرية والفعل الحضاري ، حيث كان يمكن أن يكون سطح الكرة الأرضية على درجة كبيرة من التعقيد الطبوغرافي ، بحيث أن تكنولوجيا العالم كله لو سخرت لأزالته وتسويته لاستحال عليها ذلك ، لكنها بإرادة الله وحده التي صممت العالم هذا التصميم المدهش الذي مكن الإنسان من مواصلة الحياة والإعمار على سطح كرتة هذه التي مهدت له مسبقاً هذا التمهيد المحكم ... فلنرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ...﴾ (سورة الرعد : الآية ٣).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ...﴾ (سورة ق : الآية ٧). ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَكَّنَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا...﴾ (سورة طه : الآية ٥٣). ﴿... وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٣١). ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف : الآية ١٠). ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا...﴾ (سورة ق : الآية ٧). ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٨). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ مَرْزِقِهِ وَإِلَيْهِ تُشْجَرُونَ﴾ (سورة الملك : الآية ١٥). ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ سَبَاطًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿لِتَسْلُكُوا

مِنْهَا سُبُلًا فَبَجَاجًا ﴿٢٠﴾ (سورة نوح : الآيتان ١٩-٢٠). ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ (سورة النبا : الآية ٦). ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (سورة الغاشية: الآية ٢٠). ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ (سورة الشمس : الآية ٦). ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا...﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٢). ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ مَرَوِّسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَتَاهُمْ أُسْبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة النحل : الآية ١٥).

كل الضمانات المعتمدة في الآيات السالفة تقود إلى الله (جلّ في علاه) ... فأية صدفة هذه التي صنعت هذا كله ؟ وأية طبيعة عمياء أمرت به وهي لا تملك عقلاً يمكنها من تحديد الأفعال ؟ وأي سخف طائش هذا الذي يقول به الملاحدة ، فتتلقفه منهم معظم القنوات الفضائية وتمضي معصوبة العينين دون أن تلتفت مجرد التفاتة إلى صنع الله القدير (جلّ في علاه) !؟ ومرة ثانية وثالثة ورابعة : إن بناء العالم بهذا القدر المحكم من الصياغة ، والتي سنواصل متابعتها عبر هذا البحث ، لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يجيئ نتيجة صدفة عمياء ، أو طبيعة خرساء ، أو سخف طائش ، رغم أن اتباع المدرسة المادية الفاجرة هذه يظلون يرددون هذا مع أنفسهم ومع الآخرين ، ويظلون يرددونه حتى أصبح بالنسبة إليهم بمثابة الحقائق المطلقة المسلّم بها ، والتي لا تقبل ، رغم سخفها وفجاعتها ، ارتطاماً بطوائف الأشياء ، وبنسق الخلق ونواميسه ، جدلاً ولا نقاشاً.

فماذا عن الأمطار التي لولاها ، ولولا استمراريتها في إيصال القطرة العذبة إلى أفواه الإنسان وضرعه وزرعه لما قامت للحياة قيامة ؟

نحن نعلم ، على مستوى الرياضيات والفيزياء ، أن حدوث ظاهرة ما بمفردها قد يكون وليد الصدفة التي لا هدف لها ولا غاية ... ولكن عندما تتبني عليها ثانية لكي تقودها إلى هدف محدد ، فإن الصدفة تضعف وتغيب وتتلاشى ... فكيف إذا انبنت عليها ثمانية حالات توافقية أخرى ؟ ألا يتوقف مؤشر الصدفة عند نقطة الصفر المطلق لكي يسمح للغاية أن تعمل عملها في هذه الظاهرة المدهشة التي طالما نبّه كتاب الله عليها قراءه في أكثر من مائة وستين آية أو مقطع قرآني ، لكي يتأكدوا بما لا يسمح لأي مجال للجدل والمناقشة ، أن وراء ظاهرة الامطار هذه إرادة علوية قديرة فاعلة مبرمجة ، هي التي ترتب الأسباب على المسببات ، وتسوق المقدمات إلى نتائجها المحتومة !!؟ وهي ها هنا إيصال الماء العذب للإنسان والحيوان والنبات

على السواء ، بعد جملة من العمليات الكبرى التي يعقب بعضها بعضاً ، والتي في حالة غياب أية حلقة منها ، ستبوء المحاولة إلى الفشل المحتوم !؟

إننا هنا بازاء ثمانية حلقات محكمة الأداء ، يقوم بعضها على البعض الآخر ، لكي ما تلبث أن تؤول في نهاية الأمر إلى المطلوب والمطلوب هو إدامة الحياة البشرية والطبيعية بايصال الماء العذب لسقيها وإدامتها ، والذي لولاه لتوقفت عجلة الحياة في أيام معدوداتٍ ... فما هي ذي الحياة تجتاز آلاف السنين وهي ضامنة حقها في الحصول على الماء من لدن خالق السماوات والأرض ، ومبدعها ، (جلّ في علاه) ...

نقطة البداية تتمثل في تكوين هذا الخزين الاستراتيجي الهائل من الماء في البحار والمحيطات التي تغطي خمسة أمداس كرتنا الأرضية هذه ، فلا يتعرض للنفاد أو الجفاف ، حتى لو مضى عليه آلاف السنين ومئات الآفها ، إنه بحق خزين استراتيجي محسوب حسابيه في علم الله الأزلي ... ومن أجل أن تظل أعماق هذا الخزين صالحة للحياة ، فان مياهه المتجمدة يخف وزنها - بإرادة الله وحده - لكي ما يلبث أن ترتفع إلى السطح ويبقى ما دونها في حالته السائلة ... ولكن السؤال الذي يبرزها هنا : ماذا لو تحرك هذا الخزين في عمليات سونامي شاملة كبرى وطغى على السدس المحسور من اليابسة ، ألا يعني ذلك غرق الحياة وبوارها في دقائق معدودات ؟

ها هنا ، وبعد التخزين الكبير تجيئ موافقة أخرى تتبني عليه ... انها (التسكين) الذي طالما حدثتنا عنه آيات القرآن الكريم : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَجِجْراً مَخْجُوراً ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٥٣) . ﴿ ... وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ... ﴾ (سورة النمل : الآية ٦١) . ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الرحمن : الآيتان ١٩-٢٠) .

إذن بعد عملية التخزين الكبير تجيئ عملية التسكين المدهش الذي يلجم مياه البحار والمحيطات عن أن تتحرك وتثور وتطغى على اليابسة فتقضي على الحياة ... هذا إلى دقة وإحكام التوزيع الحراري للكورة الأرضية الذي يحمي الكتل القطبية من الذوبان والطغيان على اليابسة.

ونحن نعلم أن الماء الساكن سرعان ما يتعرض للفساد ، ويصبح بيئة صالحة للعفن ولأنواع لا تحصى من الميكروبات التي بمقدورها أن تغزو اليابسة وأن تدمر الحياة على الأرض في مدياتٍ زمنية قصيرة وقصيرة جداً ... وهنا تجيء العملية الثالثة (التمليح) : وضع الملح في مياه البحار والمحيطات لحفظها من الفساد ، حتى لو مضى عليها آلاف السنين ... فأية صدفة هي تلك التي ترتب الأسباب على المسببات ، فتخزن وتسكن وتملح وفق ترتيب قصدي تديره إرادة عليا وتغيب فيه أية صدفة على الإطلاق ؟

ولكن ماذا عن تحويل هذا الماء المالح الذي لا يمكن شربه إلى ماء عذب صالح للشرب والسقي والاستخدام اليومي ؟ ها هنا تتبني عملية رابعة على مسار الظاهرة ، وهي عملية (التبخير) التي تفك الارتباط بين ملوحة مياه البحار والمحيطات وبين عذوبتها ، بتسليط قدر مناسب من الحرارة على سطح هذا الخزين الهائل من الماء وتحويله إلى حالة بخارية خفيفة تمكنها من الارتفاع إلى فضاء البحار والمحيطات وقد رشح منها ملح البحار !؟

فمن الذي وضع الشمس ، هذا القرن الذري المتفجر منذ آلاف السنين ، والموضوع في مكانه المناسب تماماً من الأرض ، والذي يدفع إليها بالنسبة المعقولة من الحرارة لكي تمارس عملية التبخير ، فضلاً عن اسهامها في عملية التمثيل الكلوروفيلي الذي تتشكل بموجبه الثمار والبذور والتي بدونها لن تتمكن الحياة من الاستمرار لأسابيع معدودات ؟ ومن الذي وضع الأرض في مكانها المناسب من الشمس ؟ فلو أنها ابتعدت عنها قليلاً لتجمدت الحياة وقضي عليها ، ولو أنها اقتربت منها قليلاً لتعرضت للاحتراق ؟

ولكن ، رغم هذه العمليات الأربع ، لم يصل بعد شيء من الماء العذب إلى الإنسان وإلى ضرعه وزرعه ... هنا تجيء العملية الخامسة بإرادة الله وحده : (التحريك) وذلك بتسخير الرياح لتحويل هذا الكم الهائل من البخار المعلق في سماوات البحار والمحيطات ، إلى سماء اليابسة ، استعداداً لنزول المطر ، وإذا بنا نجد أنفسنا قبالة رياح تتشكل وتتحرك باتجاهات مختلفة ، تذكرنا بآليات المكائن والأجهزة الميكانيكية التي تتحمل مسؤولية الحركة ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى أعلى وإلى أسفل ... فهناك الرياح الموسمية ، والعكسية ، والتجارية والاعصارية ... و ... تندفع بكل اتجاه لكي تمارس مهمتها بالعدل والقسطاس فتوزع السحب على أكبر قدر من

اليابسة^(١) ... ولكن ، مرةً أخرى ، فرغم هذه العمليات الخمس ، فإن الناس وضرعهم وزرعهم لم يتلقوا بعد شيئاً من الماء العذب الذي يديمون به حياتهم ويقضون حاجاتهم. فما تلبث الحلقة السادسة أن تجيء : تحويل الحالة البخارية للماء المعلق في سماوات الأرض القريبة ، إلى حالة سائلة ، بتلقيح السائب بالموجب وتشكيل القطرات العذبة الثقيلة التي تشدها جاذبية الأرض إلى التساقط مطراً على الأرض : ﴿ وَأَمْرُسْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ ﴾ (سورة الحجر : الآية ٢٢).

إن بيت القصيد في الحلقات الثمانية هو (المطر) ، فهو الذي طالما وصفه القرآن الكريم بأنه يحيي الأرض بعد موتها ، ويسقي الأناسي والأنعام والزرع ، ويخرج الثمرات المختلفة الألوان، ويمنح الرزق للعباد ، ويزين الحياة الدنيا ، وينبت الحدائق ذات البهجة ، ويبدع الأزواج من شتى الصنوف ، ويفتح على الناس البركات ، ويملاً ساحات العالم بالخضرة الواعدة وينشئ جنات النخيل والأعناب والحبوب والزيتون والرمان ؟

والآن ، فإن تكنولوجيا العالم كله ، على تقدمها الأسطوري المدهش ، لا يمكن أن تقوم مقام الصنع الإلهي بإنزال المطر بهذا الكم الهائل الذي يغطي مساحات الأرض ... ولقد جرت محاولات في هذا السبيل ولكنها في نهاية الأمر لم تأت بطائل على الإطلاق. ومن ثم كان الإذعان لأمر الله (سبحانه وتعالى) حتى من أشد الناس كفراً ومروقاً : ﴿ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا كَيُوقِنُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِ أَنْزَلَ لَهُ مَاءً قَالُوا سَحَابٌ مِمَّا يُمُتَرُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٦٣). ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ أَلَمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُنْزِلِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ ٦٩ ﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿ ٧٠ ﴾ (سورة الواقعة : الآيات ٦٨-٧٠).

في الحلقة الثامنة من هذا المسلسل المدهش ينقسم الماء النازل من السماء مطراً ولحكمة الله ورحمته بعباده إلى ثلاثة أقسام كي لا يذهب هدراً إلى البحر : يمضي قسم منها ليشكل الأنهار ويغذيها بالماء ، ويمضي القسم الآخر إلى باطن الأرض وتجاويفها لكي يخزن هناك ،

(١) تنظر الآيات : (الأعراف ٥٧ ، الروم ٤٨-٤٩ ، فاطر ٩ ، الفرقان ٤٨ ، النمل ٦٣ ، الروم ٤٦ ، فاطر ٩ ، الجاثية ٥).

ثم ما يلبث أن يتدفق آباراً ومجاري وعيوناً لتلبية حاجات الإنسان ، بوسيلة آلية أو بغير ما وسيلة ، انها ما يسميه الجيولوجيون وعلماء الري : (المياه الجوفية) التي تعين الأنهار على تأدية وظيفتها الأساسية في إدامة الحياة^(١).

يقول رئيس قسم الجيولوجيا (طبقات الأرض) في كلية العلوم بجامعة الموصل عن آخر كشف لعلماء الجيولوجي : إنه جدار طيني ، غير مسامي ، عازل ، وهو الجدار الثالث لمخازن المياه الجوفية ، والذي يمنع تسرب قطرة واحدة من الماء في التجاويف الأرضية ، ويحمي هذا الخزين العجز لحين الإفادة منه في إدامة الحياة ، حيث قد لا تكفي ، أو تصل مياه الأنهار إلى كل بقاع الأرض. فكأنه بذلك يؤكد الآيات الأربع التي تتحدث عن هذه الظاهرة المدهشة : ﴿ وَأَمْسَكْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ ﴾ (سورة الحجر : الآية ٢٢) ، ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴾ (سورة الكهف : الآية ٤١) ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٨) ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (سورة الملك : الآية ٣٠).

وأما القسم الثالث من مياه الأمطار النازلة من السماء فيذهب إلى أعالي الجبال والمناطق الباردة حيث درجات الحرارة المنخفضة تسوقه إلى التجمد في كتل هائلة ، تمثل هي الأخرى خزناً دائماً يتدفق مجاري وشلالات لكي يغذي الأنهار في مواسم الحرّ والجفاف والصيهد ينخفض مستواها من جهة ، ويتعرض الثلج المتجمد للذوبان من جهةٍ أخرى.

فيا سبحان الله على هذا الإحكام في واحدة فحسب من الظواهر الطبيعية والذي تنتقي معه الصدفه رياضياً وفيزيائياً بأي شكل من الأشكال ، وتتأكد الغائبة التي تسوق الظاهرة عبر مراحلها المتعاقبة المبنية بعضها على بعض بإرادة فوقية إلى هدفها المرسوم.

والآن ، وبعد أن اكتمل معمار العالم عبر الزمن المتطاوّل الذي اجتازه ، وخلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبحار والجبال الرواسي ، ومهدت الأرض ، وأنزلت الأمطار ، يجيئ الدور على إطعام الجوعى ، وتقديم أطباق الفواكه والأثمار ، وتنويع هذه الأطباق ،

(١) تنظر الآيات : (البقرة ٧٤ ، ٦٠ ، الأعراف ١٦٠ ، الإسراء ٩٠ ، الحج ٤٥ ، المؤمنون ٥٠ ، الشعراء ١٣٣-١٣٤ ، الزمر ٢١ ، الدخان ٢٥-٢٦ ، النازعات ٣١ ، القصص ٢٣).

والسخاء في توفيرها للناس والحيوان ، والتفنن في طعومها وأشكالها وألوانها ، وفي عرضها سائغةً لكل جائع ، معروضةً لكل طالبٍ ، فلا تشح ولا تغيب ... ها هي الآن تعرض نفسها لكل من يريد ... هينةً لينةً ... انها مرةً أخرى صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وسخاؤه الكبير الذي ما له من حدود ... فما من كائن على هذه الأرض ، ولا من دابةٍ إلا على الله رزقها ... فهو (جلّ جلاله) يضرب بعمله الجليل هذا النظريات الوضعية التي تقوم على الظن والهوى والتخمين ، بما فيها نظرية مالطوس التشاؤمية التي قال فيها بأن اليوم الذي سيغيب فيه التناسب بين الانفجار السكاني وحاجة الناس للغذاء سيجيئ طال الوقت أم قصر ، فيما يقود الحياة البشرية إلى البوار . مع هذه الأطباق السخية التي ما لها من نفاذ ، ومن ورائها يد الله القدير والمبدع (جلّ في

علاه) ، فليس ثمة ما يوحي بانعدام التكافؤ بين الناس وبين ما يمكنهم من مواصلة الحياة . ونجى من ثم إلى دنيا النبات التي تمثل واحدةً من أهم صفحات خلق العالم وتكوينه وقدرته على الاستمرار ، ولولاها لما قامت للحياة على اطلاقها قيامة ، ولانطوت صفحاتها في أيام قلائل ولربما في ساعاتٍ معدوداتٍ ، فهو الذي يمون الحياة بالخزين الغذائي الدائم الذي يقوم قوامها عليه إنساناً وضرعاً وزرعاً ... هذا الخزين المتجدد بإرادة الله وحده والذي يمنح الحياة الدنيا قدرتها على مواصلة البقاء ...

يحدثنا كتاب الله في عدد كبير من آياته البينات كيف يتشكل ، وكيف يتنوع ، وكيف يتوزع بالعدل والقسطاس فلا يتخم الواجدون ولا يتضور المحرومون جوعاً ... وكيف يقدم المنفعة والجمال معاً للحياة الدنيا فيزيدها بهجةً وألقاً ، وكيف يضرب به الأمثال على التنامي والذبول ، وكيف تصير مجالاً للعطاء الذي يقود صاحبه إلى الفلاح ، والشح الذي يقوده إلى التهلكة ... وبسبب من هذا كله ، من الدور الكبير الذي تمارسه دنيا النبات في هذه الحياة الدنيا ، يجيئ التحدي الإلهي لكل الادعاء الذين يبررون فك الارتباط بين هذا الخلق المعجز في تكوين العالم ، وبين مبدعه : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ ﴾ (سورة لقمان : الآية ١١).

فلنتابع عبر رحلتنا هذه في خلق العالم ، جانباً مما حدثنا عنه القرآن الكريم بخصوص دنيا النبات : ﴿ ... وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زُرُوعًا ثَمِينًا ... ﴾ (سورة الرعد : الآية ٣) . ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْ مَّجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ غَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي

الْأَكْلُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ (سورة الرعد : الآية ٤) . ﴿ ... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَرِزْقًا لَكُمْ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٢) . ﴿ وَالْأَرْضُ مَرَدُّهَا وَمَذَابُهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا مِرْوَاسِيًّا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿ ١٩ ﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿ ٢٠ ﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيَانُهُ وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿ ٢١ ﴾ (سورة الحجر : الآيات ١٩-٢١) . ﴿ ... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَنْزِلًا مِنْ بَنَاتٍ شِسَىٰ ﴿ ٥٣ ﴾ كُلُّوا وَأَمْرًا أَنْعَمَ لَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿ ٥٤ ﴾ (سورة طه : الآيات ٥٣-٥٤) . ﴿ ... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بَهِيجٍ ﴿ (سورة الحج : الآية ٥) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿ (سورة الحج : الآية ٦٣) . ﴿ أَوْ كَمْ يَبْرُوا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ كَرِيمٍ ﴿ ٧ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٨ ﴾ (سورة الشعراء : الآيات ٧-٨) . ﴿ ... وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِلَّا اللَّهُ بِرَبِّكُمْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿ (سورة النمل : الآية ٦٠) . ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ (سورة العنكبوت : الآية ٦٣) . ﴿ ... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ كَرِيمٍ ﴿ ١٠ ﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ... ﴾ (سورة لقمان : الآيات ١٠-١١) . ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزِلَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٣٦) . ﴿ أَوْ كَمْ يَبْرُوا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿ (سورة السجدة : الآية ٢٧) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ ٢٨ ﴾ (سورة فاطر : الآيات ٢٧-٢٨) . ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٨٠) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... ﴾ (سورة الزمر : الآية ٢١) . ﴿ ... وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ... ﴿ (سورة فصلت : الآية ٤٧). ﴿... وَأَبْتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ (سورة ق : الآية ٧). ﴿ وَزَرَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَآبَيْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ (سورة ق : الآيات ٩-١٠). ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿ (سورة الذاريات : الآية ٤٩). ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَلَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ (سورة الواقعة : الآيات ٦٣-٦٤). ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَلَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ (سورة الواقعة : الآيات ٧١-٧٢). ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ (سورة نوح : الآيات ١٠-١٢). ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا ﴿١٤﴾ لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ (سورة النبأ : الآيات ١٤-١٦). ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ (سورة النازعات : الآيات ٣٠-٣١). ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَّبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَابْتَنَّا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَخَلًّا ﴿٢٩﴾ وَحَدَاقٍ غَلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَآتَاعًا لَكُمْ ﴿٣٢﴾ (سورة عبس : الآيات ٢٤-٣٢). ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ (سورة قريش : الآيات ٣-٤). ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ... ﴿ (سورة المائدة : الآية ٦٦). ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْوُجُوهِ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٥). ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٩). ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا

حَقَّةً يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ١٤١) . ﴿ ... فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٧) . ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ بِآيَاتِهِ بِأَذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُهُ إِلَّا نَكِدًا ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٨) . ﴿ ... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٢) . ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ﴿ ١٠ ﴾ يُبَيِّنُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النحل : الآيتان ١٠-١١) . ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ٦٧) . ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَنِغَ لِلْأَكْلِينَ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ (سورة المؤمنون : الآيتان ١٩-٢٠) . ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ ٣٣ ﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ ﴿ ٣٤ ﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٣٥ ﴾ (سورة ياسين : الآيات ٣٣-٣٥) .

عبر هذه الآيات المزدحمة ، والتي تدير المنظور على ظاهرة الانبات من جوانبها كافة ، يحدثنا كتاب الله عن جملة من الأمور التي تبدأ بمعجزة الزوجية التي تتنامى بواسطتها الحياة ، وبالماء الواحد الذي يخرج جنات الأعناب والزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات مختلف ألوانها ، متشابهة وغير متشابهة ... ليس هذا فحسب بل يفضل بعضها على بعض في الأكل وتلك هي معجزة أخرى في عالم الخلق ... وبالوزن المرسوم الذي يحكم به عالم النبات القادم من خزائن الله فما ينزل إلا بقدر معلوم ، وفق حاجة الإنسان والحيوان ، لا يزيد ولا ينقص إلا بإرادة الله ... وبالأرض الهامدة التي إذا ما تلقت الماء اهتزت وربت وأخضرت وأنبئت من كل زوج بهيج ... وبالجمال المرتبط بظاهرة الإنبات من أجل بث البهجة التي ما كان للناس جميعاً أن ينبتوا شجرها ... وبحياة الأرض القاحلة الجرداء بعد موتها حيث ينزل الماء ليبعث فيها الحياة ... وبمعجزة الشجر الأخضر الذي يصير ناراً يوقد عليها الناس ... ومن ثم يجيئ التحدي الكبير : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ ﴾ ﴿ ٦٣ ﴾ أَلَمْ تَزِرْ وَرْعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّامِعُونَ ؟ ﴾ ﴿ ٦٤ ﴾ (سورة الواقعة :

الآياتان ٦٣-٦٤). ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّامِرَاتِ اللَّي تُوْمِرُونَ ﴾ (٧١) ﴿ أَلَمْ نُنشَأْكُمْ شَجَرَةً بِهَا أَمْرٌ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ؟ ﴾ (٧٢) (سورة الواقعة : الآياتان ٧١-٧٢). حيث لا جواب انما هي إرادة الله وحده التي تصنع هذه الأعاجيب في دنيا النبات والفرص الكبيرة التي يمنحها الله سبحانه وتعالى لأولئك الذين يلتزمون صراطه المستقيم فيعقد عليهم نعمه مخاطباً إياهم : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ (١١) ﴿ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١٢) (سورة نوح : الآياتان ١١-١٢). ﴿ ... لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... ﴾ (سورة المائدة : الآية ٦٦). ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً ... ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٨) ... وبالمياه الدافقة التي تنزل من السماء بإرادة الله فتخرج الحب والنبات والجنات الملتفة ... ويدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى معجزة إطعامه هذه كيف يصب الله (سبحانه وتعالى) الماء صباً. وكيف يشق الأرض شقاً. فينبت فيها عنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهةً وأباً ... الطعام المعروض للناس ولضرعهم على السواء.

والله وحده (جلّ في علاه) هو الذي يفلق الحب والنوى ، تماماً كما يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ... وثمة آية تثير الدهشة في سورة الأنعام تجيئ علوم النبات المعاصرة فتؤكد ما ورد فيها حرفاً بحرف تلك التي تقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نَخْرُجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً ... ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٩) ، ها هنا حيث لا تتشكل ثمار النبات إلا بعد أن تجتاز ثلاثية التعامل مع ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون ومادة الكلوروفيل الخضراء ، ولهذا يجيئ إخراج الحب المترابك بعد إخراج الخضر.

وثمة فضلاً عن المنفعة التي يقدمها النبات ، تأكيد في كتاب الله على الجانب الجمالي الذي يضرب ما يقوله الملاحدة والطبيعيون ، القائلون بعبثية الخلق وقيامه على الصدفة ، ويجعل له هدفة وقصداً ومغزى : ﴿ ... وَرَمَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ نَرْوَجٍ بَهِيجٍ ﴾ (سورة الحج : الآية ٥). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضرةً ؟ ﴾ (سورة الحج : الآية ٦٣). ﴿ ... وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مِمَّا

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْتُوا شَجَرَهَا ... ﴿ (سورة النمل : الآية ٦٠) . ﴿ ... وَأَبْتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَرْعٍ
بِهَيْجٍ ﴿ (سورة ق : الآية ٧) . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿ (سورة ق : الآية ١٠) . ﴿ ... انظُرُوا
إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ... ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٩) !!

إن الذي يبني داراً أو قصراً كبيراً لاستقبال الساكنين ... ألا يهيئ لهم الموائد والأطباق
العامة لكي يستمتعوا ويشبعوا بطونهم ، ويتمكنوا بعدها من ممارسة أعمالهم المتشعبة ... كذلك
شاءت حكمة الله (جلّ في علاه) في تقديم هذه الوجبات السخية من الطعام لساكني الكرة
الأرضية لكي يتمكنوا من مواصلة مشوارهم الحضاري ... ومن أجل هذا يجيئ التأكيد أكثر من
مرة على أن هذه الظاهرة الفذة في الخلق ، لا يدركها ويقدرها حق قدرها إلا أولو العلم والنهي ...
ومن ثم تتردد هذه الثيمة القرآنية : ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الرعد : الآية ٤) .
﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى ﴾ (سورة طه : الآية ٥٤) . ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
(سورة النحل : الآية ٧٩) . ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الرعد : الآية ٣) . ﴿ ...
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٥٢) ... وفي مقابل هذا سيل من الآيات التي تدين
من لا يملكون بصائر وعقولاً ترى معجزة الخلق هذه مكشوفة أمامهم على مصراعيها : ﴿ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الشعراء : الآية ٨) . ﴿ ... بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (سورة
النمل : الآية ٦٠) . ﴿ ... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٦٣) . ﴿ ... أَفَلَا
يُبْصِرُونَ ﴾ (سورة السجدة : الآية ٢٧) . ﴿ ... فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٥) . ﴿ ...
أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٥) .

ومن أجل ذلك كله جاءت كلمات الله لتؤكد : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾
(سورة فاطر : الآية ٢٨) فليس علماء الشريعة وحدهم الذين يستحقون هذه الصفة إنما أصحاب
العلوم الصرفة من فلك وجغرافيا ونبات وحيوان ... ومن أجل ذلك تحداهم كتاب الله : ﴿ قُلْ

أَمْ آيَاتُهُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَمْ قُلُوبُهُمْ غَمُورٌ فَمَا تَتْلَوْنَ إِلَّا كِتَابَ الْفُتُورِ ﴿٤﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٤).

وثمة منحة إلهية أخرى تجيء بعد اكتمال معمار العالم ، وبموازاة دنيا النبات ... انها عالم الحيوان الذي أريد به اطعام الإنسان والحيوان ، وتهيئة وسائط النقل لهذا الكائن الفريد الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وفضله على كثير من الخلق تفضيلاً ... فضلاً عن إشباع حاجته للجمال ، والشفاء ، والتدفئة ، والفرش ، والبناء والتأثيث وهو (جلّ جلاله) ينوع في خلقه هذا ما بين دابة تمشي على بطنها وأخرى على رجلين وثالثة على أربع ورابعة تطير في الهواء وهي تخفق بجناحيها ، فلا تمسكها عن السقوط إلا إرادة الله ... وينوع جلت قدرته في أشكالها وألوانها التي تبهر العين وتشبع حاجتها للجمال. وكلنا رأى على شاشات التلفاز تلك العروض اللونية الباهرة للكائنات المائية وهي تسبح في مياه البحار والمحيطات ، فتأخذنا الدهشة لهذه القدرة التي لا نهاية لإبداعها وتنويعها ، وكلمات الله التي ما لها من نفاذ !! وهو جلت قدرته أعلن ضمانه لإدامة رزق الإنسان والحيوان ، وإطعامهما المستمر ، فليس ثمة ما تقوله بعض النظريات الظنية كمنظرية مالثوس من أنه سيجيء اليوم الذي تزداد فيه كثافة البشرية فلا يعود الطعام كافياً لإشباعها فتتعرض للانقراض والزوال ... ها هنا شيء آخر يضرب هذه الظنون بالحقيقة الثابتة وهي إرادة الله التي كفلت للزرق للإنسان والحيوان معاً ما دام هنالك نفس في هذه الدنيا : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ مَرْزُقُهَا ... ﴾ (سورة هود : الآية ٦).

وكل هذه الكائنات الحية تمارس إذعانها لأمر الله وطاعتها له سبحانه وتعالى بالسجود والتسبيح كل على طريقته الخاصة التي قد لا نفقه نحن لغتها ، ولكنه الأمر الواقع الذي تشير إليه وتؤكد أكثر من آية كما سنرى.

ويبدو في ضوء هذه المعادلة المدهشة سخف أولئك الفلاسفة النباتيين الذين يحرمون ما أنزل الله فيمتنعون عن أكل اللحوم إشفاقاً على الحيوانات ... وأكثر سخفاً منهم تلك الطائفة الهندوسية التي تحرم أكل لحم البقر ، وتدعها تسرح في مدنهم وقراهم ، وتلحق الأذى بالناس وعروض التجارة ، وليس ثمة من يمدّ يده لمنعها ، والذين يجراون على ذلك تطالهم سكاكين الطائفية فتذبح منهم العشرات والمئات ... وأكثر سخفاً وفجاجةً من هؤلاء وأولئك ، تلك الطوائف

التي تنزل بعبادتها إلى درك البهيمية فتعبد هذا الحيوان أو ذاك ، وتتخذ لهم أصناماً تسجد لها من دون الله ... بل إن بعض الطوائف الضالة تذهب بهم عبادتهم بعيداً باتجاه الأعضاء التناسلية لهذا الحيوان أو ذاك !

أفلا يتحتم بعد هذا كله ، ومع هذا كله ، أن نتوجه بالشكر والامتنان لله الذي منحنا نعمه الكبيرة هذه ، وفي المقدمة فئة العلماء الذين يدركون جيداً ، بسبب دراساتهم المعمقة ، وآلياتهم الدقيقة ، أسرار هذا الكائن العجيب الذي ما كان يمكن أن يكون لولا إرادة الله سبحانه وتعالى الذي لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته ولو جيء بمثله مدداً !!

وثمة لمسات تحدثنا عن معجزة الخلق في أكثر من اتجاه ، فضلاً عن التنويع والتلوين ... ذلك الحليب الأبيض الصافي الذي ينطوي على العديد من الفوائد ، والذي يخرج من بين فرثٍ ودمٍ لبناً سائغاً خالصاً للشاربين ... من الذي جعله يخرج بهذه الصفة المدهشة ، من بين أكادس من الفضلات والدماء غير إرادة الله ؟ والعسل ، الذي يحدثنا كتاب الله أن فيه شفاء للناس ، والذي كتبت في ذلك مئات البحوث وأخرجت عشرات الانسكلوبيديات ، من الذي أوحى لصانعيه من النحل ، سواء اتخذت الجبال بيوتاً أو الشجر أو مما يعرش الناس ، أن تقدم هذا الطعام اللذيذ ، الذي جربنا جميعاً ، كيف يشفينا من الأوجاع والأسقام.

ومن أجل ذلك كله ، طالما نادتنا آيات القرآن الكريم ، بل نادت أولئك الضالين الذين غطوا أعينهم بطبقة من الرماد ، وقلوبهم بالران والقار ... أن يبصروا ابداعية الله في الخلق ، وأن في ذلك كله لآيات لقومٍ يتفكرون : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ أَيْدِيًا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ﴿ ٧١ ﴾ وَذَلَّلْنَا لَهُم فَنَمًّا مَّرْكُوبُهُمْ وَمِنَّمَا يَأْكُلُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٧٣ ﴾ (سورة ياسين : الآيات ٧١-٧٣).

إن عالم الحيوان هذا أمر مستودع في كتاب الله ، سواء في رزقه أم في مستقره ، وهو يتشكل من أمم أمثالنا ... ثم إلى ربهم يحشرون ... فلتطمئن تلك الطوائف الساذجة من الناس ، والداعية إلى عدم قتل الحيوان وسفك دمه إشفافاً عليه ... لتطمئن ، فهي بمجرد أن تشغل عقولها بتكاء ، وتتجاوز العمى الذي حجبت به على أعينها ، سترى رأي العين الحكمة من هذا كله الذي يجري على مسرح الحياة أو يمدّها بالبقاء والجمال.

يوماً ، وأنا أتلو هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٦) فيتعرض علي أحد المتشككين قائلاً : حقاً أن البعوض يمثل مشكلة فلسفية ! فقلت له : كيف ؟ أجب : كيف تبرّر أسباب خلق هذا الكائن التافه الصغير ، الذي طالما أقلقنا خلال النوم ، وطن في آذاننا الساعات الطوال ، وامتص دماءنا ، ولم يدعنا نغفو لحظة واحدة ... هل ثمة مبرر لخلقه على الإطلاق ؟

قلت له : ارجع إلى الآية القرآنية التي تتحدث عن هذا الكائن الصغير فستجد الجواب على سؤالك المحير ، والإجابة على ما تسميه معضلة فلسفية. فلما تلوتها عليه لم يكذب يفقه منها شيئاً ، وأعاد القول بأنها معضلة ليس لها من جوابٍ شافٍ !
أجبتة : ولهذا ضرب القرآن الكريم بها مثلاً ، وجعل الناس ينقسمون ازاءها إلى صنفين : المؤمنون الذين " يعلمون " أنه الحق من ربهم ، والكفار الذين يقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ ولاحظ معي صفة " العلم " التي ألحقها بالمؤمنين ، وكأنه يريد أن يقول : انه بالإيمان والعلم معاً يمكن أن نعثر على الجواب.

الإيمان بالتسليم المطلق لحكمة الله (جلّ جلاله) في الخلق ، بدءاً بأكبر الكائنات الحية حجماً وانتهاءً بأصغرها ... والعلم الذي سيكشف لنا حيناً بعد حين أبعاد الحكمة من خلق كائنات كهذه ... هذا إلى أن البعوض ، وكل الحشرات المؤذية الأخرى ، تمثل تحدياً للإرادة البشرية وتتطلب استجابة من نوعٍ ما ... ومن مجموع هذه الاستجابات تتشكل الحضارات البشرية ... انني أتذكر هنا ما ذكره المؤرخ البريطاني المعاصر (ارنولد توينبي) من أن الحضارة المصرية التي هي واحدة من أقدم الحضارات في العالم ، ما كانت لتحقق لولا قدرة المصريين القدماء على الاستجابة لتحديات البيئة المصرية الصعبة المترعة بالمستنقعات والبعوض والملاريا ... فشمروا عن ساعد الجد ، وطمروا المستنقعات ، ولاحقوا البعوض ، وأوقفوا زحف الملاريا ، وصنعوا حضارتهم المصرية تلك. وأتذكر أيضاً كيف أن الصين أعلنت يوماً عن حملة شاملة لمحو الذباب المتكاثر في البيئة الصينية ، وابتكرت لذلك الوسائل ، وأخذت بالأسباب ، واعلنت عن سلسلة من النشرات التي تلقفها الصينيون ولاحقوا الذباب وكادوا أن يأتوا عليه ... وغير هذين

المثاليين عشرات بل مئات الأمثلة ، ليس أقلها خطراً الإفادة من سموم العقارب والحيات لتصنيع الأمصال المضادة للسم ونجاحها المدهش.

ثم إن هذه الكائنات التافهة ، كما قد يخيل للبعض ، كشفت المتابعات العلمية في تركيبها الحيوي المدهش ، في صنعها وتصميمها ، بما في ذلك خراطيمها التي تعد بالعشرات والتي تصنف وفق وظائفها ، فبعضها للمس وبعضها الآخر للامتصاص ، وفئة ثالثة للتحليل ، فكأنها معمل كيميائي في أقصى درجات التعقيد. والقرآن الكريم عندما يقول : ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فان دلالة الكلمة تذهب إلى الكائنات الأصغر منها حجماً ، والتي تحتوي هي الأخرى بقوة الكشف العلمي على تركيبها المدهش ...

إن عالم الطبيعة ينطوي على شبكة من التوازنات الحيوية ، من أجل إدامة الحياة وتوفير لقمة العيش للكائنات جميعاً. فلا يقل أحد من أن الكائن الفلاني لا حكمة من خلقه وحاشا لله. وثمة فارق كبير بين أمة استقرها الذباب ، فقررت أن تعلن الحرب عليه ، وبين أمة أخرى تركته يتكاثر في ديارها ويتساقط على أطعمتها فيلوثها بالميكروبات ويسوق آلاف المواطنين إلى زنزانات الأوجاع والأمراض ... أكان يمكن أن يحدث هذا لو أن الإنسان أدرك الحكمة التي تكمن وراء خلق البعوض والذباب !؟

والآن فإلى هذه المنظومة المنتقاة من الآيات القرآنية الخاصة بدنيا الحيوان : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ مِنْ رِزْقِهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة هود : الآية ٦).
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ ...﴾ (سورة الحج : الآية ١٨).
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النور : الآية ٤١).
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى مَرْجَلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة النور : الآية ٤٥).
﴿... وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ...﴾ (سورة لقمان : الآية ١٠).
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا

يُصِرُّونَ ﴿ (سورة السجدة : الآية ٢٧) . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ (سورة فاطر : الآية ٢٨) . ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ تَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَتُبَلِّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ... ﴿ (سورة غافر : الآيات ٧٩-٨٠) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُسْكِنُ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿ (سورة الملك : الآية ١٩) . ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتَ ﴿ (سورة الغاشية : الآية ١٧) . ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَدٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُدْرِكُهُ أَلْيَدٌ مَرِيضَةٌ يَحْشُرُونَ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٣٨) . ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِنْ مَرَرِكُمْ اللَّهُ ... ﴿ (سورة الأنعام : الآية ١٤٢) . ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٥ ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿ ٦ ﴾ وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّدُنْكُمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ ٧ ﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ تَرْكَبُوهَا وَرِبَيعَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ ٨ ﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَكُوْشَاءٌ لَهَذَا كُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٩ ﴾ (سورة النحل : الآيات ٥-٩) . ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿ (سورة النحل : الآية ٦٦) . ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ ذَلَاكَ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ٦٩ ﴾ (سورة النحل : الآيات ٦٨-٦٩) . ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَسَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿ (سورة النحل : الآية ٨٠) . ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ (سورة المؤمنون : الآية ٢١) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاءٍ عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿ ٧١ ﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿ ٧٣ ﴾ (سورة ياسين : الآيات ٧١-٧٣) .

وامتداداً لتقديم أطباق الفواكه والثمار واللحوم ، وتزيين الحياة الدنيا بألوان الجمال المدهشة
وصنوفه المبدعة ، هنالك تأكيد القرآن الكريم على مبدأ استمرارية الرزق في الحياة الدنيا ، ومع
الرزق أنواع النعيم التي لا تعد ولا تحصى والتي تتدفق على البشرية ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً
... والتي يصعب إحصاؤها لغزارتها وتنوعها ، والتي تقدم بسخاءٍ عجيب ، والتي أسبغت علينا
ظاهرةً وباطنةً ، والتي تجيء في كثير من الأحيان موازيةً للجهد البشري في الاستقامة على
الطريق والاستجابة لدعوات الأنبياء (عليهم السلام) .

إنه عطاء الله (سبحانه وتعالى) الذي ما له من حدود ... ذلك الذي جعل لنا ما في
الأرض جميعاً ، وذراً لنا ما فيها مختلفاً ألوانه ، وخلق لنا الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن
أنفسنا مما لا نعلم ...

الرزق والعطاء الدائم الذي ما له من نفاذ ... من أجل إدامة الحياة وتطمين حاجات الناس
والحيوان إلى الطعام والشراب والملبس والمسكن ، وتعشقهم للزينة والجمال ... ومن ثم يجيء
التحدي الكبير في كتاب الله لكل أولئك الذين يرون هذا بأمر أعينهم ويلمسوه بأيديهم ولكنهم
ينكرونه ... يطلب منهم البرهان إن كانوا صادقين ... فهل قدروا أو يقدررون على الردّ ازاء هذا
التحدي ؟ ﴿ ... وَمَنْ يَزِرْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
(سورة النمل : الآية ٦٤) . ﴿ آمَنْ هَذَا الَّذِي يَزِرْكُمْ إِنْ أَمْسَكَ مِنْهُ رَبُّكَ ؟ ﴾ (سورة الملك :
الآية ٢١) .

ولكن أنى لهؤلاء الذين اختاروا العمى على الإبصار أن يروا ويقدرُوا هذا كله ؟ فلنقرأ في
كتاب الله بعيون مفتوحةً وعقل يعرف كيف يرى الظواهر والأشياء على حقيقتها ... فحينذاك
سيسوقه هذا الذي يراه بعينه وعقله إلى شهادة لا إله إلا الله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
مَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة هود : الآية ٦) . ﴿ وَأَنْتُمْ مِنْكُمْ مِنْ كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآية ٣٤) . ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ
رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ (سورة الإسراء : الآية ١٠٠) . ﴿ أَلَمْ
تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ... ﴾

(سورة لقمان : الآية ٢٠). ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ... ﴾ (سورة سبأ : الآية ٢٤). ﴿ ... وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة النمل : الآية ٦٤). ﴿ ... يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الشورى : الآية ١٢). ﴿ أَمْ نَحْنُ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ... ﴾ (سورة الملك : الآية ٢١). ﴿ وَالْوَالِدَاتُ أُمَّهَاتُهُمْ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ لِّاسْتِفْتَاؤِهِمْ مَاءٌ غَدَقًا ﴾ (سورة الجن : الآية ١٦). ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة قريش : الآيتان ٣-٤). ﴿ وَوَلَّاهُمُ أَقَامُوا التُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَّا كَلُومًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... ﴾ (سورة المائدة : الآية ٦٦). ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٠). ﴿ وَوَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٩٦). ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٩). ﴿ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٣). ﴿ وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٨). ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَالَجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٦).

وثمة وقفاتٍ عديدة في كتاب الله عند المسألة الجمالية في بناء العالم ، وما ذلك إلا لتأكيد قصدية الخلق وغائيته ، وإلا لو كانت الطبيعة العمياء هي التي خلقت هذه الكائنات ، كما يرى دعاة الصدفة الحمقاء ، لما كان الأمر بحاجة إلى إقامة هذا المهرجان الرائع من التزيين والتجميل على صفحات الكائنات ، وفي تكوينها وممارساتها ، والذي يصل حدَّ الإعجاز ، ويشير الدهشة في عيون وبصائر كل من يرى ويبصر !! فما الذي يدل عليه هذا ؟

إن بناء العالم يقوم على ركيزتين أساسيتين هما المنفعة والجمال ... وجهان لحقيقة واحدة ... وبإيجازٍ شديد ، فإن هناك هدفاً من وراء هذا كله يقودنا ولا ريب إلى أن الذي أقام بنيان

العالم وفق هذه الثنائية ، انما هي إرادة مسبقة تنطوي بالضرورة على قصدية للغاية التي أنشئ لها العالم من أجل أن يليق بالكائن القادم الذي فضل على كثير من الخلائق ، وأريد له أن يحيا حياة آمنة سعيدة مترعةً بالبهجة والفرح ، حيث تنتقي الصدفة من عملية الخلق ... فهل تملك الطبيعة العمياء ذائقةً جمالية لكي تصنع هذا كله ، أم تحكمها الفوضى لا الصدفة التي لا تملك من أمرها شيئاً؟!

والآن لنأتي للتأشير على بعض ما أراد الله أن يقوله بخصوص الجمال ؟ السماء الدنيا القريبة زينت بكواكبها ومصابيحها للناظرين إليها من الكرة الأرضية ... والأرض الموات ينزل عليها الماء من السماء فتهتز وتربو وتنتبت من كل زوج بهيج ... والخليقة نباتها وحيوانها وإنسانها وتكوينها الجيولوجي أريد لها أن تتزين وتتوَّع بالألوان المختلفة والغريب السود ... والناس والدواب والأنعام تختلف أشكالها وألوانها ... والنخل بإسقاتٍ لها طلعٌ نضيد ... والله سبحانه وتعالى يقسم بانتنتين تثيران الدهشة لما تنطويان عليه من جمالٍ ساحر : الشفق والقمر إذا اتسق ... وثمة نداء في كتاب الله يحمل دلالاته فيما نحن بصدده : ﴿... انظروا إلى ثمره إذا أشمر ويتبعه إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ (سورة الأنعام : الآية ٩٩) ، والأنعام التي تقدم لنا منافع كثيرةً بما في ذلك الدفء والطعام ... تنطوي هي الأخرى على بعدها الجمالي حيث أن لنا فيها جمال حين تريح وحين تسرح ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... والبحار التي تقدم هي الأخرى خدامتها المنفعية للناس كافة ركوباً وإطعاماً ، وتقدم معها الحلية التي تتزين بها النساء من لؤلؤ ومرجان ... وثمة حركة الظل والنور بكل ما تنطوي عليه من هدوء وانسيابية وجمال : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴿٤٥﴾ ثم قبضناه إلینا قبضاً يسيراً ﴿٤٦﴾ (سورة الفرقان : الآيتان ٤٥-٤٦).

" إنها حركة يبلغ من لطفها أنها تكاد لا تتحرك ! ويزيد من لطفها والايحاء ببطئها الشديد كلمة (ساكناً) مع أنها لا تتم في واقع الأمر : ﴿... ولو شاء لجعله ساكناً!﴾ فمع أنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعله ساكناً ، إلا أن وجود اللفظة يلقي ظلها في النفس ، وهذا بعض المقصود من إيرادها. وظلها هو تبطئ حركة الظل حتى لتشبهه السكون. وتلك حقيقة (طبيعية) فحركة الظل وثيدة جداً لا تكاد تظهر ، لكن التعبير يجسد هذا البطء ويعطيه (مساحةً) في

الخيال ، لم يكن ليكتسبها لو كان الوصف تجريدياً بحتاً بغير تصوير ولا تخيل. وكذلك تتم صورة البطء بتكملة الحركة في الاتجاه الآخر : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا قَبْضًا سِرًّا ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٤٦). ولكن لفظة معينة هنا تعطي المشهد كله معنى عميقاً عجبياً يغير (نغمة) اللوحة كلها ، ويعطيها روحاً جديدة لا يتيسر بيانها بالألفاظ ! إنها كلمة : ﴿ إِلَيْنَا ﴾ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَا إِلَيْنَا ﴾ هذه ، الكلمة تخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود الذي كانت فيه ، فإذا بها أمر آخر غير هذه الأرض. إنها يد الله (سبحانه وتعالى) تمتد لتقبض الظل ﴿ إِلَيْنَا ﴾ ، إلى الله سبحانه وتعالى الذي لا يتحدد بمكان ولا حيز ولا نطاق ! إن الظل (المتجسم) هنا في الأرض ، لم يعد كائناً أرضياً محدود النطاق ولكنه صار ... صار ماذا ؟ صار شيئاً كونياً غيبياً مبدؤه هنا في الأرض ونهايته عند الله (سبحانه وتعالى) الذي ليس له انتهاء ! وهذا كله يتناسق مع سياق الآية الذي ترد فيه مشاهد الطبيعة في صورة الرحمة الإلهية على الناس ... وهي جو كله رحمة وعطف وودّ وإيناس " (١).

ها نحن إذن ازاء المهرجان الجميل الذي أزينت به حياتنا الدنيا من أجل أن تتأكد لنا قصدية الخلق وآيات الله في العالم ... ودائماً كان الخطاب القرآني متوجهاً إلى العلماء : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ٢٨). ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٢). لأنهم الأقدر على سبر غور هذا المهرجان وإدراك سره المعجز وغاياته التي تكنس في طريقها كل سخر طائش أو صدف عمياء ... فلنتابع ذلك كله في كتاب الله : ﴿ وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرِيَاهَا لِلنَّاطِرِينَ ﴾ (سورة الحجر : الآية ١٦). ﴿ ... وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ نَرُوحٍ بِهَيْجٍ ﴾ (سورة الحج : الآية ٥). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ ٢٧ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ... ﴾ (سورة فاطر : الآيتان ٢٧-٢٨). ﴿ إِنَّا نَزَّلْنَا الذُّبَابَ نَزِينَةً الْكَوَاكِبِ ﴾ (سورة الصافات : الآية ٦). ﴿ ... ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ

(١) محمد قطب : منهج الفن الإسلامي ، ص ٢٢٢-٢٢٣.

نَزْرَعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... ﴿ (سورة الزمر : الآية ٢١) . ﴿ ... وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ (سورة فصلت : الآية ١٢) . ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَمَرَبَّنَاهَا وَمَا
 لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿ (سورة ق : الآية ٦) . ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَزْرَاجٍ بِهَيْجٍ ﴿
 (سورة ق : الآية ٧) . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿ (سورة ق : الآية ١٠) . ﴿ وَقَدْ نَزَّلْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
 بِمَصَابِيحٍ ... ﴿ (سورة الملك : الآية ٥) . ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالنُّشُقِ ﴿ ١٦ ﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿ ١٧ ﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا
 اتَّسَقَ ﴿ ١٨ ﴾ (سورة الانشقاق : الآيات ١٦-١٨) . ﴿ ... انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ (سورة الأنعام : الآية ٩٩) . ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا
 تَأْكُلُونَ ﴿ ٥ ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ﴿ ٦ ﴾ وَنَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا
 بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ ٧ ﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرِبَاطَةً يَخْلُقُ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿ ٨ ﴾ (سورة النحل : الآيات ٦-٨) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
 مِنْهُ حَبْلَةً تَنْسُجُوهَا ... ﴿ (سورة النحل : الآية ١٤) . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
 أَلْسِنَتِكُمْ وَالْأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿ (سورة الروم : الآية ٢٢) .

ومن الواضح - كما يقول سوليفان في (حدود العلم) أن حقيقة كون العلم مقصوراً على
 معرفة البنى ، هي حقيقة ذات أهمية إنسانية عظيمة ، لأنها تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة
 لم يبت فيها بعد ، ولم يعد يطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل موضوعي لاستجابتنا
 للجمال ، أو شعورنا السحري بالاندماج مع الله (سبحانه وتعالى) ... إن مثل هذه الأمور يمكن
 أن تكون مفاتيح لطبيعة الحقيقة ، وقد اعتبرت كذلك في كثير من الأحيان. وهكذا فإن تجاربنا
 المختلفة قد أصبحت كما كانت على قدم أكثر تساوياً ...

إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي ليسا بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في السابق. وإن من حق الرؤى الباطنية (Mystics) أن يكون لها مكان في هذا العالم العلمي الجديد^(١).

إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي إذاً ليسا بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في السابق ، يوم أن اندفع العلم المراهق والنظريات الاجتماعية والنفسية التي بنيت عليه ، يضرب هذه التطلعات ، ويسقط تلك الأحاسيس ، راداً الحياة البشرية إلى مجموعة ميكانيكية محددة صارمةً من الأفعال وردود الأفعال ... مسطحاً هذه الحياة الكثيفة المعقدة المتشابكة ، مدمراً امتداداتها المتقاطعة ، جاعلاً إياها تتحرك على خطٍ واحد وفق امتدادٍ واحد ، وبأقل قدر من تبادل التأثير بين الذات والموضوع وأشدّه انحساراً ... والإنسان ، ذلك المجهول : (إذا استخدمنا تعبير كاريل) أصبح ظاهرة مادية اخضعت للتحليل والاختبار ، من أجل الوصول بالفسر والإكراه، إلى تفسير نهائي لسلوكه ... فكان يندفع حيناً بتأثير دافعه الجنسي ، وكان يتحرك حيناً آخر على هدى ضرورة عمياء للبقاء والارتقاء ، وكان يتطور حيناً آخر ، مسلوب الإرادة ، بضغط التبدل في وسائل الانتاج ، وكان يمارس حياته حيناً رابعاً من خلال عقل جمعي لا يأبه بحياة الأفراد وخصوصياتهم.

إن الكشوف الفيزيائية الأكثر حداثةً تترك لنا مجالاً أكبر من الحرية لكي نضفي الاعتبار أو المغزى التقليدي على خبراتنا حول الجمال والدين أو لنقل بالاختصار : إنها لا تعزز بصورة إيجابية أيّاً من التفسيرات التي جاءت بها الأديان للعالم ، لكنها تقطع الطريق على تلك المناقشات التي قامت لتثبت أن أيّاً من هذه التفسيرات (الدينية) ما هو مجرد وهم. لقد فعلت هذا عندما أظهرت أن العلم لا يعالج إلا ناحية جزئية من الحقيقة ، وأنه لا يوجد أدنى سبب يبرر الافتراض بأن كل ما يجله العلم أو يتجاهله ، هو أقل حقيقة مما يعرفه^(٢).

وثمة ما يرتبط بالظاهرة الجمالية في بناء العالم ذلك هو اتقان الصنع ووزن الخلائق والأشياء فان كل شيء عند الله سبحانه وتعالى بمقدار : ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (سورة

(١) حدود العلم ، ص ٣٩-٤٠.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٨-٤٩.

الرد : الآية ٨). وكل شيء خلقه بقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر : الآية ٤٩). وكل شيء موزون وفي موقعه تماماً ﴿... وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (سورة الحجر : الآية ١٩). وما ينزل إلا بقدر معلوم ﴿... وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الحجر : الآية ٢١). ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي آتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل : الآية ٨٨). ذلك أن الذي يطل على العالم من فوق ، برؤية طائر ، يرى هذا الذي يتحدث به القرآن الكريم ، أما على مستوى الرؤية البشرية من الأرض فان الأمر يختلف ، ذلك أنها لا ترى هذه الحركة الانسيابية البديعة المتوافقة مع دوران الأرض حول نفسها، ومن ثم يكون هذا الشاهد دليلاً قاطعاً على مصداقية موقف الفائلين بالتفسير العلمي لكتاب الله ... حيث هنالك العشرات والمئات من اللقطات القرآنية التي جاء العلم الحديث لكي يؤكد لها.

ونمضي مع آيات كتاب الله في تأكيد اتقان الصنع ووضع الخلائق والأشياء كل في مكانه المرسوم من خارطة بناء العالم : الإمساك بالسماء أن تقع على الأرض : ﴿... وَيُوسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ (سورة الحج : الآية ٦٥). ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ (سورة المؤمنون : الآية ٧١). ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٧). ﴿وَالْأَرْضَ فَرَسْنَا هَا فَتَمَّوْا الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٨). ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ (سورة الرحمن : الآيتان ١٩-٢٠). ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ لَتَبْلَيُْنَّ فِيهِ أَعْبَادُ اللَّهِ﴾ (سورة القصص : الآيتان ٧١-٧٢).

إن بناء العالم ليس حالة استاتيكية ساكنة ، انما هو الخلق المستمر حيث لا يكفي أن يقول الله (سبحانه وتعالى) للخلائق والأشياء كوني فتكون ولكنه يصيرها من حالٍ إلى حال. فالكينونة والصورورة هما المبدآن اللذان قامت عليهما شبكة السماوات والأرض ... وهذه الرؤية القرآنية لمسألة الخلق تنفي بالضرورة ما يسمى بنظرية الساعة التي يقول أصحابها بأن الله

(سبحانه وتعالى) خلق الكون والعالم ووضع فيهما القوى والعوامل التي تسيرهما ذاتياً وسحب يده (وحاشاه) من التدخل في مسيرتهما ... فما هي إرادة الله (جلّ في علاه) بعد خلق الكون والعالم ، ماضية في فاعليتها ، وحضورها الدائم ، ورقابتها الأبدية التي لا تتدّ عنها صغيرة ولا كبيرة ، مهما دقت وتضاءلت ... وفي خلقها وإبداعها المتواصل دقيقةً بدقيقة ، ويوماً بيوم ، فيما نعلم وفيما لا نعلم ، فيما نرى ونحس ، وفيما لا نرى ونحس ... في المجرات والسدم والنجوم عبر مساراتها ، وكتلتها الكبرى ، وفي النيوترونات والبروتونات وهي تجري بخفاء في مساراتها التي لا ترى داخل الذرات ... إن الله (جلّ في علاه) حاضر بعلمه وإرادته معاً في تسيير شؤون الخليقة ... بخلقه وأمره معاً في توجيهها صوب الوجهة التي يريد لها وحده ، إلى أجلها المسمى في علمه. فأى سخفٍ هذا الذي ينطلق منه أولئك القائلون بنظرية الساعة : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَتَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (سورة النجم : الآية ٢٣).

وها هي آيات القرآن الكريم تدير كاميرتها على هذه الظاهرة من أطرافها كافة ، وهي كثيفة مزدحمة ، ولذا سنكتفي بمتابعة بعض شواهدنا فحسب : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (سورة النحل : الآية ٤٠). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَنْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الحج : الآية ٦٥). ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٠). ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٧). ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (سورة النور : الآية ٤٤). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ١٩). ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٢٠). ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ...﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٧). ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ

قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئْسَلِهِ مَدَدًا ﴿ (سورة الكهف : الآية ١٠٩) . ﴿ ... وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَكَأَنَّ تَضَعُ بِأَبَا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿ (سورة فاطر : الآية ١١) . ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿ ٦٢ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة الزمر : الآيتان ٦٢-٦٣) . ﴿ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٧) . ﴿ ... وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَكَأَنَّ تَضَعُ بِأَبَا يَعْلَمُهُ ... ﴾ (سورة فصلت : الآية ٤٧) . ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٤٧) . ﴿ ... يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الحديد : الآية ٤) . ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ ٣٨ ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَّانِرًا حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿ ٣٩ ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَكَأَنَّ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ سَبْحُونِ ﴿ ٤٠ ﴿ (سورة ياسين : الآية ٤٠) . ﴿ آمَنَ هَذَا الَّذِي يَزْنِقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ زَنْزِقَهُ ... ﴾ (سورة الملك : الآية ٢١) . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (سورة الملك : الآية ٣٠) . ﴿ ... يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٤) . ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ١٧) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٧) . ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَمْوَالَجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٦) .

يكفي أنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ... فكيف تتوقف فاعليته بعد خلق الكون والعالم ؟ يكفي أن الفلك تجري في البحر بأمره ، بهذا الفعل الذي يدل بانفساحه على المدى أنه ماضٍ في الحاضر والمستقبل ... يكفي أن يمسخ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فيما يمثل رقابة إلهية دائمة وماضية إلى أجلها المسمى ... يكفي أنه بعد خلق الطرائق

السبع عقب على ذلك بقوله : ﴿... وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٧).

فكيف يسحب يده وحاشاه وهو يطلق هذه المقولة ؟ يكفي إنه (جلّ جلاله) يقلب الليل والنهار فيما يدل على الفاعلية الدائمة في هذا التقلب المعجز ... يكفي أنه يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وأن ذلك عليه يسير يسير ... يكفي أنه يبدأ الخلق ثم ينشئ النشأة الأخرى وأنه على كل شيء قدير . يكفي أنه ما من أنثى تحمل أو تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر أو ينقص إلا بعلمه ... يكفي أنه خلق كل شيء وأنه على كل شيء وكيل وأن له مقاليد السماوات والأرض ... يكفي أنه ما من ثمرة تخرج من أكمامها إلا بعلمه ... يكفي أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وأنه معنا أينما كنا ، بصير بأعمالنا ، خبيرٌ بنبضات أفئدتنا وقلوبنا ... يكفي أنه يتكفل بإرسال رزقه إلينا صباح مساء ، وبإمدادنا الدائم بالماء الذي هو أساس الحياة ... يكفي أن السماء التي بناها بيديه جل شأنه تتسع يوماً بعد يوم ... يكفي أنه يلاحق الليل والنهار يطلبه حثيثاً ... وأن الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ، وأن له الخلق والأمر ... يكفي أنه (سبحانه وتعالى) خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسنا ومما لا نعلم ... هكذا عبر الأفق الزمني المفتوح ... وأخيراً وليس آخراً أفلا يكفي أن خلقه (سبحانه وتعالى) يتجدد باستمرار ، ويمضي في طريقه مبدعاً معجزات الخلق التي لا أول لها ولا آخر ، وهو القائل (جلّ في علاه) : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ...﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٧). وهو القائل (جلّ في علاه) : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (سورة الكهف : الآية ١٠٩). بعد هذا العطاء الغزير ، والدائم ، والمتجدد ، والماضي إلى يوم الحساب ، ألا يحق أن يتلقى الملاحدة والكفرة والشكوكيون والقائلون بنظريات السخف الطائش القائم على الصدفة والتخلق الذاتي للطبيعة ، بعيداً عن إرادة الله ... ألا يحق أن يتلقى هؤلاء صفةً قويةً لعلها تردهم إلى الصواب : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل : الآية ١٧).

والآن يجيئ الدور لاستكمال الحديث عن منظومة خلق الكون والعالم في المنظور القرآني وذلك بتحليل مثلث الاستخلاف والتسخير والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية) والذي أريد منه بناء الدور الحضاري للإنسان في عمران العالم ... فلقد استخلف الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذا العالم وأناط به مهمة تطويره وإعمارهِ وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من أجل تسوية أرضيته كي تكون أكثر ملاءمةً لحياةٍ مطمئنة تعلو على الضرورات ، بعد أن تتحرر منها ، وتكون أكثر قدرةً على التوجه إلى السماء ، إلى خالقها جل وعلا ، دون أن يحني ظهورها ثقل الجاذبية وضرورات المادة الصلبة ... إن مبدأ الاستخلاف يتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْفًا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ٣٩) . ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْفًا فِي الْأَرْضِ وَمَرَّعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ... ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٦٥) . ﴿ ... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا لَكُمُ خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمُ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٦٩) . ﴿ ... قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٢٩) . ﴿ ... وَيَجْعَلْ لَكُمْ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًُّا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النمل : الآية ٦٢) .

ومسألة الاستخلاف تبدو من خلال هذه الآيات مرتبطةً بالخيط الطويل العادل من طرفيه : العمل والابداع ومجانبة الإفساد في الأرض من جهة ، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله (سبحانه وتعالى) ، والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم من جهةٍ أخرى . والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة بحيث أن افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة ، ويقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والابداع ، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد في مسالكه الصحيحة التي تجعل الإنسان يقف دائماً بمواجهة خالقه ، خليفة مفوضاً لأعمار العالم : ﴿ ... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾ (سورة هود : الآية ٦١) .

ولن يكون بمقدور المسلم تنفيذ مطالب مهمته الاستخلافية ومنحها الضمانات الكافية ، وإعانتها على تحقيق أهدافها ، ما لم يضع خطواته على البداية الصحيحة " للتحضر " فيكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون القريب من أجل الإفادة من طاقاتها المذخورة وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان وبين محيطه. وبدون هذا فان مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ.

أما مبدأ التسخير فيرتبط بسابقه أشد الارتباط ، ويعد بدوره ملمحاً أساسياً من ملامح التصور الإسلامي للكون والعالم والحياة والإنسان ، ويتطلب اعتماد مناهج العلم وآلياته لتحويله إلى أرض الواقع ، والتحقق بعطائه السخي.

إن العالم والطبيعة ، وفق المنظور الإسلامي ، قد سخرا للإنسان تسخيراً ، وأن الله سبحانه وتعالى قد حدد أبعادهما وقوانينهما ونظمهما وأحجامهما بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان العمرانية في العالم ، وقدرته على التعامل معه تعاملًا إيجابياً فاعلاً. وهناك آيات ومقاطع قرآنية عديدة - سبق وأن مرّت بنا - تحدثنا عن هذا التسخير ، وتمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ، ينأى عن التصورات السلبية للعديد من الفلسفات والمذاهب الوضعية التي جرّدت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحرّيته في حوارهِ مع كتلة العالم ، وتطرّف بعضها فأخضعه لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها الدينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لا راد له ، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع لهذا الذي تأمر به.

إننا نشهد في كتاب الله صيغةً أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف في أساسها. صيغة السيد الفاعل الذي سخرت له وأخضعت مسبقاً كتلة العالم لتلبية متطلبات خلافته في الأرض وإعمارهِ للعالم على عين الله ... إن (التسخير) هو الموقف الوسطي الفعال الذي يقدمه القرآن الكريم بصدد التعامل مع العالم بدلاً من الخضوع والتعبد ، أو الغزو والانشقاق للذين هيمنوا على المذاهب الأخرى.

ويجئ (الاستعمار) بدلالاته اللغوية لا الاصطلاحية : ﴿... هُوَ اسْتَعْمَرَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ (سورة هود : الآية ٦١). لكي يستكمل فيه كتاب الله أضلاع المثلث الحضاري لفاعلية الإنسان في العالم وتنميته الدائمة ، ليكون البيئة الصالحة لعبادة الله : ﴿... وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ (سورة الذاريات :

الآيتان ٥٦-٥٧). العبادة بفضائها الواسع وسمائها الكبيرة ، ونبضها الحضاري الذي يرفض الطقوسية ، ويجعل كل فاعلية يمارسها الإنسان مبتغياً فيها وجه الله (جلّ في علاه) ، عبادة يتقرب بها إليه جنباً إلى جنب مع تنمية النشاط العمراني وإعمار العالم.

وأخيراً ، ومن أجل استكمال الحديث عن منظومة خلق الكون والعالم في المنظور القرآني ، لابدّ من الوقوف عند جملة من المسائل التي ترتبط بالظاهرة أشد الارتباط والتي يمكن إجمالها بالملكية ، والهيمنة ، والجد ، والعلم ، والقدرة المطلقة ، ومن ثم سجود الكائنات جميعها ، أي إعلان عبوديتها لله وتسبيحها له (جلّ في علاه). ولنتابع الأمر في كتاب الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة التوبة : الآية ١١٦). ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة يونس : الآية ٥٥). ﴿... لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (سورة يونس : الآية ٦٨). ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة النحل : الآية ٥٢). ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (سورة طه : الآية ٦). ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (سورة سبأ : الآية ١). ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨٣). ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (سورة الصافات : الآية ٥). ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة الزمر : الآيتان ٦٢-٦٣). ﴿لَهُ مَقَالِدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (سورة الشورى : الآية ١٢). ﴿وَبَارِكُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾ (سورة الزخرف : الآية ٨٥). ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ (سورة النجم : الآية ٣١). ﴿بَارِكُ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الملك : الآية ١). ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (سورة النبأ : الآية ٣٧). ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ...﴾ (سورة الأنعام : الآية ٣). ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٣). ﴿قُلْ لَنْ أَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ... ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَكَأَيُّ جَارٍ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ (سورة المؤمنون : الآيات ٨٤-٨٥ ، والآيتان ٨٨-٨٩). ﴿... وَاللَّهُ يَخُكِّدُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة الرعد : الآية ٤١).

هذا عن ملكية الله المطلقة للكون والعالم ، وهيمنته على مقدراتهما ... وأما عن الجدِّ المطلق الذي تنتفي معه أية مساحة على الاطلاق للعبث والفوضى والضرب على غير هدى ، كما يدعي فلاسفة الغرب ومفكروه وكتابه الطليعيون والعبثيون ... وكما ترى وتمارس جماهير الوجوديين الذين يرون الحياة عبثاً وسخفاً ... فما دمنا نموت ، يقول زعيمهم كامو ، فليس لأي شيء معنى ... وغير هؤلاء كثيرون من البهائم التي تقلدهم في ديارنا على غير هدى ، دون أن تحاول لحظة واحدة ، تشغيل عقولها لكي تعيد النظر في هذا السخف الذي خدعوا به لكونه امتطى مركب الفلسفة التي هي في معظمها ظنون وأهواء ... ولنقرأ في كتاب الله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَمَرْنَا أَنْ نَسْخِدَ لَهُمَا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ (سورة الأنبياء : الآيات ١٦-١٨). ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١١٥). ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (سورة ص : الآية ٢٧). ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ (سورة الدخان : الآيتان ٣٨-٣٩). ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣). ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ...﴾ (سورة المؤمنون : الآية ٧١).

وأما عن قدرة الله المطلقة ، والعلم الإلهي الشامل المحيط بمقدرات الكون والعالم ، ومجريات أموره بدءاً من السدم والمجرات والنجوم المنبثة في الكون على مسافات هائلة يعجز عنها التصوّر البشري ، ويلاحق العلم بمسابيره حافاتها القريبة ، وصولاً إلى خفقان النيوترونات

والبروتونات في مجاريها الخفية داخل الذرات ... وما بين هذا وذاك كل ما يخفق في جنبات الكون والعالم ... ومن ثم يعلنها القرآن الكريم متحدثاً عن جبروته ، مديناً أولئك الأنعام الذين غطوا أعينهم بطبقة من الصدا والتراب فأصابهم العمى ولم يعودوا يقدرّون على تقديم اعترافهم بعظمة الله (جلّ في علاه) حيث يقول : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ... ﴾ (سورة الزمر : الآية ٦٧).

ولنرحل في كتاب الله لمطالعة جانب من الشواهد الكثيرة في سوره ومقاطععه وآياته عن هذا العلم الذي لا يند عنه مقدار ذرة في السماوات والأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر ... لنرى : ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٠). ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٧). ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ١٩). ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ٢٠). ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا نَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ قَدْ كُنَّا فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان : الآية ١٦). ﴿ يَعْلَمُ مَا بَلَّغْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٢). ﴿ ... لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَكَأَنَّ فِي الْأَرْضِ وَكَأَنَّ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَكَأَنَّ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٣). ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ١). ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (سورة فاطر : الآية ٣٨). ﴿ ... وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة ياسين : الآية ١٢). ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨٢). ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٧). ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ مَرْزُقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة هود : الآية ٦). ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (سورة الزخرف :

الآية ٨٤). ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٥٩). ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ... ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٥). ﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٧). ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ (سورة النحل : الآيات ١٧-١٨).

بعد هذا كله أفند هـش إذا رأينا كيف تسبح السماوات والأرض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ، وأن تمارس سجودها الدائم لخالقها (جلّ وعلا) ... وأن تعلن بهذا وذاك طاعتها وخضوعها وانقيادها لأمره ؟ ومن ثم تتوالى الآيات وهي تتحدث عن هذا التسبيح والسجود الذي يشمل الخلائق جميعاً ، أشياء وموجودات وكائنات حية ، وهي تعلن بلسان الحال أو المقال تليبيتها لأمر الله وتعظيمها له (سبحانه وتعالى) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ نَبْتًا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (سورة النحل : الآية ٤٨). ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٤٤). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ؟ ﴾ (سورة الحج : الآية ١٨). ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النور : الآية ٤١).

ومن ثم تجيئ هذه الحلقة التي كشفت البحوث العلمية وفلسفة العلم النقاب عن جانب منها بعدما فاء العلم إلى حظيرة الإيمان عبر القرنين الأخيرين ... تجيئ هذه الحلقة لاستكمال المنظور القرآني لبناء الكون والعالم والذي يقوم على هذا القدر المدهش من الدقة والنظام والأحكام ، فيما يتطلب الازعان لخالقه (جلّ جلاله) والخضوع لأمره سجوداً وتسبيحاً ... إننا لنقف هنا خاشعين أمام واحدة من جوانب الإعجاز القرآني ، تلك المجموعة الكريمة من الآيات التي تحدثنا عن (تسبيح) الكون والذرات والحيوان والأشياء للخالق العظيم : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (سورة الحديد : الآية ١ ، الحشر ١ ، الصف ١) .

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾

(سورة الإسراء : الآية ٤٤) . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ... ﴾ (سورة الرعد :

الآية ١٣) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النور : الآية ٤١) . ﴿ ... يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر : الآية ٢٤ وأنظر الجمعة ١ ، التغابن ١) . ﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ... ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ٧٩) . ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِاللَّيْلِ وَالْأَشْرَاقِ ﴾ (سورة ص : الآية ١٨) . ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (سورة الرعد : الآية ١٥) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْتِنًا ظَلَاكُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ (سورة النحل : الآيتان ٤٨-٤٩) . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ... ﴾ (سورة الحج : الآية ١٨) . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَائِمٌ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٦) . ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (سورة الرحمن : الآية ٦) .

إن (التسبيح) أو (السجود) ها هنا لا يقتصر على كون الذرات والأجسام الفضائية تخضع للنواميس التي وضعها الله فيها ، فهي بهذا تسبِّح لله سبحانه وتعالى وتسجد لإرادته. فقد يكون هنالك ما هو أبعد من هذا وأقرب إلى مفهوم التسبيح الحرّ ، والتقدّيس الواعي ... إن هذه الموجودات تمارس تسبيحها وتقديسها بالروح ، وربما بالوعي الذي لا تستطيع استيعاب ماهيته ، وإن هذا ليقودنا ثانيةً إلى مقولة أدينغتن : " إن مادة العالم هي مادة عقلية " كما يقودنا إلى الآية الكريمة : ﴿ ... وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٤٤) .

حقاً ! إن إدراك الطرائق التي تعمل بها الذرات والأجسام لمما يصعب تحقيقه ... ومهما تقدم العلم وخطا خطواته العملاقة ، فسيظل جانب من أكثر جوانب التركيب المادي بعيداً عن التكشف النهائي ، مستعصياً على البوح بالسرّ المكنون.

ومهما يكن من أمر ، فهذا هو العلم الحديث ، في كشوفاته الأخيرة يؤكد على الحقائق الأساسية التالية : ليس بمقدور العلم التوصل إلى الحقائق النهائية ، وليس بمقدوره أن ينفي الدين أو أيّاً من الخبرات الإنسانية ، اللامادية الأكبر حجماً منه ... وأن ما يجله ليس أقل حقيقةً من معطيات العلم نفسه ... ويؤكد بالمقابل أهمية الخبرة الدينية وضرورتها للحياة البشرية ، ويكشف عن البطانة الروحية للعالم المنظور فيلتي ثانياً مع الدين !!

الفصل الثالث

نهاية التاريخ

لم يكن التاريخ في يومٍ من الأيام ملكاً لأية قوة في الأرض ، فهو دائماً يقدم لنا معطياتٍ معاكسة تماماً لما ادعته الماركسية - يوماً - بخصوص فكرة نهاية التاريخ ، حيث تتوقف حركته عند مرحلة البروليتاريا (أي الطبقة العاملة) وتتراجع إلى الأبد معطيات الصراع الطبقي وإفرازاته كالعائلة والدين والوطنية والقيم الأخلاقية في ضوء ما سماه ماركس وانغلز في المانيفست الشيوعي الذي أصدره عام (١٨٤٨م) بالقوانين العلمية لحركة التاريخ حيث يبلغ التاريخ محطته الأخيرة فلا ظالم ولا مظلوم. ثم ما لبثت هذه النظرية التي تتناقض وقوانين الحركة التاريخية أن انهارت وانهارت معها المؤسسة الكبرى للاتحاد السوفياتي بعد إذ تبين عجزها عن الاستمرار .

والآن فان هناك ادعاء مشابه لدى المنظرين في الساحة الغربية الرأسمالية ، يوازي هذا المصير نفسه الذي قالت به الماركسية ولكن يخالفها بزواوية مقدارها مائة وثمانون درجة ، وسيؤول بالتأكيد إلى المصير نفسه الذي آلت إليه الماركسية تنظيراً وتطبيقاً ، وهو ما يسمى بنظرية (نهاية التاريخ) التي كان المفكر الأمريكي (فرنسيس فوكوياما) قد نسج حثياتها في ثمانينيات القرن الماضي وقدمها في كتابه المعروف الذي يحمل الاسم نفسه ، ثم ما لبث أن عاد في أواخر التسعينيات لكي يجري عليها بعض التعديلات بما يجعلها أكثر قبولاً وتوافقاً مع المعطيات والخصوصيات التاريخية للأمم والشعوب.

وتلك هي إحدى إشكاليات العقل الغربي الوضعي التي تتطوي على ما يستحق التقدير والرفض في الوقت نفسه ... التقدير للجرأة التي يملكها الغربيون في نقد وتعديل أنساقهم الفكرية ، لحظة يتبين وجود خطأ ما في جانب من جوانبها ، وقد يقودهم هذا - كما حدث في كثير من الأحيان - إلى رفض النسق الفكري بكليته والانقلاب عليه ، والبحث عن بدائل أكثر إحكاماً. وأما ما يستحق الرفض والنقد في ممارسات العقل الغربي فهو ذلك التقليد الفكري الخاطئ الذي يجعل أي مفكر في الساحة الغربية ، عندما يكتشف حقيقة أو معلومة ما تحمل أهمية معرفية فانه يحاول أن يمطها بأكثر مما تطيق ، من أجل أن يحولها إلى نظرية أو عقيدة تتحكم بالحقائق الكبرى وتصادر العقل البشري وتحاول أن ترغمه على الدخول من عنق زجاجتها الضيق ، فما تلبث أن تقع في الخطأ وتدفع المستعبدين بحكم قوانين ردّ الفعل إلى التمرد عليها واسقاطها من الحساب.

لقد حاول (ماركس وانغلز) - على سبيل المثال - أن يحكما كشفهما بخصوص الصراع الطبقي والتبدل في وسائل الإنتاج ، بمجرى التاريخ البشري ومعطياته كافة بما في ذلك الظاهرة الدينية ... (سيغموند فرويد) فعل الشيء نفسه ازاء كشفه في مجال الأنا التحتية والضغط النفسية ... و(دركايم) مع نظريته في العقل الجمعي و(جان بول سارتر) مع وجوديته ... بل ما حدث ويحدث عبر العقود الأخيرة بخصوص تيارات الحداثة ، البنيوية وما بعد البنيوية والتفكيكية والسيميائية ... وما بعدها ... إلى آخره.

يريد فوكوياما أن يقول بأن تاريخ البشرية ألقى قياده ، أو انتهى بعبارة أدق ، بالخبرة الليبرالية الرأسمالية التي تتزعمها - في اللحظات الراهنة - الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنه ليس ثمة متغيرات تاريخية بعد هذا. لقد ألقى التاريخ عصا تسياره عند الحالة الليبرالية التي هي في زعمه أعلى صيغ الخبرة البشرية وأكثرها انطباقاً مع مطالب الأمم والشعوب ... تماماً كما ادّعت الماركسية على الطرف الآخر. وفي الحالتين فاننا نجد أنفسنا ازاء معطيات مناهضة لقوانين الحركة التاريخية التي أريد لها أن تمضي في تمخضها الدائم فلا تقف أو تسكن عند هذه المرحلة أو تلك ... حتى يوم الدينونة الكبرى !!

إننا نرجع إلى القرآن الكريم لكي نجد أنفسنا ازاء رؤية واقعية محكمة لمجرى التاريخ البشري : ﴿ وَكُوشَاءَ رَبِّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرُؤُنَّ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴾ (سورة هود : الآيتان ١١٨-١١٩). أي أنه (سبحانه وتعالى) خلقهم للتغاير والتدافع والاختلاف ، وفي آية أخرى نقرأ : ﴿ ... وَكُلًّا دَفَعْنَا اللَّهُ لِلنَّاسِ لِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ... ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٥١). أي التدافع الأبدي الذي لولاه لتعرضت الأرض للعفن والفساد ...

ها هو ذا صنم جديد يبرز في الساحة الغربية باسم نظرية (نهاية التاريخ) يستعبد عقول أجيال من المعجبين في الغرب والشرق ، معتقدين أنها الانجيل الذي يجب أن يتبع وأن أي شعب من شعوب العالم في جانبيه الغني والفقير ، ما لم يحذ حذو الخبرة الليبرالية الأمريكية ، بديمقراطيتها المدعاة ، وبرغبتها في التنامي بالأشياء ، والتكاثر بالأموال والمتاع ، والتنمية الاقتصادية التي تمضي إلى غاياتها بعيداً عن منظومة القيم الدينية والخلقية والانسانية ، فلن يكون لها مكان في العالم ... في التاريخ ...

ومرةً أخرى فان هذا الادعاء يذكرنا بمقولات الماركسية التي انسحبت في نهاية الأمر من التاريخ ، بينما ظلت الحركة التاريخية على دفقها وتزاحمها وتمخضها الدائم ... ومرةً أخرى - أيضاً - نرجع إلى كتاب الله لكي نرى أنفسنا ازاء مفهوم (المداولة) الدائم الذي لا يسكن ولا يتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ ... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٤٠).

إنه الدولاب التاريخي الذي يظل يدور ... يرفع قوماً ويضع آخرين ... ولن تظل أمة أو دولة أو حضارة أو امبراطورية على حالها ... انها جميعاً تخضع للحركة ذاتها : الميلاد والنمو والشيخوخة والذبول ... ليس ثمة نهاية للتاريخ في المنظور القرآني القائم على ثلاثية (التغير) و(التدافع) و(التداول) ... انما هي الحركة الدائمة لأن الله (سبحانه وتعالى) أرادها منذ البدء أن تكون تغايراً وتدافعاً وتداولاً ، وهذا هو الذي يحرك التاريخ ، ويعطيه طعمه وملحه ، ويمكنه من الانتقال من حالة إلى حالة أخرى ، وإلا فهي المياه الراكدة التي تأسن وتفقد القدرة على الاحتفاظ بصفاتها ونقائها ...

إن نظرية (نهاية التاريخ) تسعى إلى إلغاء البعد التاريخي للأمم والشعوب ووضعتها عرأة قبالة الصنمية الاقتصادية التي تنزع إلى تسوية الجميع ازاء مطالبها ، لكنها من وراء هذا تزيد أغنياء العالم وطواغيته غنىً وجبروتاً ، وفقراءه ومستضعفيه فقراً واستعباداً ... إنها لعبة ، أو مناورة فكرية أخرى - إذا صح التعبير - في إعطاء خلفيات تنظيرية وايدولوجية لممارسات تتجاوز - ابتداء - منظومة القيم الخلقية ، وثوابت العقائد والأديان ، والمطالب الأساسية للإنسان. ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الصليبية والاستعمارية الرأسمالية ، ومن ورائها - أيضاً - يكمن حلم اليهودية ومشاريع حكماء صهيون.

إلغاء الذاكرة التاريخية ، وتحكيم الصنمية الاقتصادية المتسلحة بكل قوى العلم والتكنولوجيا والتفوق العسكري وحتى السياسي للغرب ... لن يجعل الفقير غنياً ، وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء ... انها لعبة ستجعلنا وكل المستضعفين في الأرض ينسلخون عن تاريخهم وتميزهم ... ويزدادون - وقد تعزوا من كل ما يحميهم ويمنحهم الدفاء - التصاقاً بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمية فلا يزيدهم إلا عرياً وبرداً ... بهذا نكون قد خسرنا مرتين !

والصنمية الاقتصادية ليست إلهاً جديداً تفرزه معطيات عصر الشيئية والتكاثر والنمو الأسطوري في تقنيات الانتاج ... إنه قديم قدم الإنسان نفسه ... صحيح أن تغيراً كبيراً لحق هذا الصنم ، فانفلت - وهو يتضخم - لكي يتحكم بكل شيء في هذا العالم ، تماماً كما حدث مع (فرانكشتاين) ، وأصبحت محاولة السيطرة عليه مستحيلة ، لكنه مع ذلك ليس حالة جديدة في تاريخ الإنسان. لقد غزت هذه الصنمية حتى رجال الدين الرهبان واتباع الديانات السماوية من اليهود الذين : ﴿... أَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾ (سورة البقرة : الآية ٩٣). والنصارى : ﴿... الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (سورة التوبة : الآية ٣٤) ... وغيرهم كثيرون ، والذي يحدث الآن محاولة جديدة لتغطية القبح الفرانكشتايني برداء جميل من التنظير ... وهذه المرة تجيء المحاولة من قلب العالم الرأسمالي بصيغة نظرية جديدة يضعها مفكر أمريكي يدعى (فرنسيس فوكوياما) باسم (نهاية التاريخ). وقبلها بقرن ونصف نفذت المحاولة على يد مؤسسي الماركسية الكبار : ماركس وانغلز ، وبزاوية مضادة تماماً تبلغ مائة وثمانين درجة !!

من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ... والنبض الديني الذي يتعبد الاقتصاد ويتخذها إلهاً، هو نفسه هنا وهناك .. فرعان لحضارة مادية واحدة ، كما يقول (جيوروجيو) في (الساعة الخامسة والعشرون) ... سقطت المحاولة الأولى بعد قرن ونصف من محاولات التجربة والخطأ ... أما نظرية (نهاية التاريخ) فسوف تقترس - بالتأكيد - زمناً آخر من عمر الشعوب قبل أن ينكشف زيفها وضلالها ...

إن تجريد العالم من بطانته الروحية ، والوجود من تجذره في الغيب ، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد سوف يميل بالميزان للمرة العشرين أو الخمسين ، في تاريخ الإنسان ، الذي سيكون في البدء والمنتهى الخاسر الوحيد. أدرك هذا العديد من مفكري الغرب وفلاسفته وباحثيه ... ليوبولد فايس (محمد أسد) مثلاً يؤكد أن عصرنا هذا " بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه ، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها. إيمان يبين لنا كيف نقيم توازناً بين حاجاتنا الروحية والجسدية ، وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة

وتهور " (١). جورج سارتون الذي غرق في دراسة تاريخ العلوم حتى شحمة أذنيه يحكم على " التقدم المادي الخالص : بأنه " مدمر " وأنه " ليس تقدماً على الاطلاق بل تأخر أساسي " ذلك " أن التقدم الصحيح - ومعناه تحسين صالح لأحوال الحياة - لا يمكن أن يبني على وثنية الآلات ولا على العتلات ... ولكن يجب أن يقوم على الدين ... على محبة الله سبحانه وتعالى " (٢).

لقد سيطر على العالم - كما يقول روجيه غارودي في (وعود الإسلام) " نموذج جنوني من النمو ، لا يمكن أن يعاش " وها هي ذي " الصنمية " كما يسميها " تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا : صنم النمو ... صنم التقنية العلمي ... صنم قوة الأسلحة والجيوش ، بمحذوراتها جميعاً ومحرماتها وبرموزها المقدسة وبطقوسها " (٣). ومن وراء هذه الأصنام جميعاً يتربع إله الاقتصاد على جبل النظام العالمي الجديد ، أولمب القرن الحادي والعشرين ، محاولاً أن يهيمن على كل شيء !

تعويم التاريخ ، أو إلغاء الذاكرة التاريخية للأمم والشعوب ستقود - بالضرورة - إلى انزلاقات خطيرة قد تذهب بهذه الأمم والشعوب إلى غير ما كانت تؤد الذهاب إليه ... ولنسوف تمنح الماسونية سلاحاً جديداً. والماسونية لا تريد - هي الأخرى - سوى التحقق بقدر من التسوية قبالة الوهم الإنساني ، حيث ينزع ابن آدم جلده ويتخلى عن هويته ، ويهرع لكي يندمج في واحدة من أكثر ممارسات العقل الجمعي غوايةً وضلالاً ...

" نهاية التاريخ " تجيء أيضاً وكأنها قد وقتت على عقارب ساعة محكمة الصنع ، زمن ما يسمى بالتطبيع مع العدو الصهيوني ... ولنرجع سنواتٍ قليلة إلى الوراء ... لقد بدأت أولى محاولات مسح الذاكرة التاريخية بإجراء تغييرات خفيفة - ربما لجس النبض - في المعطيات التربوية والإعلامية والثقافية لشعوب الإسلام ... لمسة هنا وأخرى هناك ... تأكيد على عناصر

(١) الطريق إلى مكة ، ترجمة : عفيف بعلبكي ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، (بيروت-١٩٥٦م) ، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ، تعريب : د. عمر فروخ ، مكتبة المعارف ، (بيروت-١٩٥٢م) ، ص ٧٢-٧٣.

(٣) وعود الإسلام : ترجمة : ذوقان قرقوط ، الوطن العربي ، (القاهرة-بيروت-١٩٨٤م) ، ص ٢١٧-٢١٨.

الوفاق التاريخي والديني والحضاري بين المسلمين وعدوهم ... وتجاوز لحقات الصراع والغدر والخيانة من أجل " نسيان الماضي " والانفلات من أسر الأحقاد المتأصلة ، والوصول معاً إلى صعيد الألفة والمحبة والقدرة على الاندماج الاجتماعي والثقافي والحضاري ...

بين من ؟ بين القاتل والقتيل ... بين من لا يزال يخفي السكين وراء ظهره ، ينتظر الفرصة وبين الضحية ... وبمرور الوقت أخذت تتشكل لجان شتى لإعادة النظر في المناهج الدراسية في ديار العرب والمسلمين ... لجان ينضوي تحت غطاءها العلمي المخادع خبراء يهود وأمريكان ، جنباً إلى جنب مع تربيين من أبناء العروبة والإسلام أنفسهم.

نقض اليهود لعهدهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سنوات الهجرة الأولى لا لزوم له ... فتنة سوق الصاغة في حي بني قينقاع خارجةً عن المطلوب ... محاولة بني النضير اغتيال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تثير الأحقاد ... غدر بني قريظة زمن حصار الأحزاب القاسي ، حلقة محزنة ... اقتحام خيبر تجدد الضغائن ... وفي كل الأحوال يفضل إلغاء هذه الوقائع من مفردات المناهج التدريسية ، ويفضل أيضاً أن تحل محلها كل الخبرات والتجارب التي تجعل الوجدان المسلم يتقبل اليهودي ويربت على كتفيه.

في إحدى البلدان العربية - على سبيل المثال - أسس " مركز تطوير المناهج " سنة (١٩٩٠م) بأموال معونة أمريكية ، وقد قدم هذا المركز (٢٩) مستشاراً أمريكياً من الاختصاصيين الذين يعملون أصلاً في مركز تطوير التعليم في واشنطن ، وبين هؤلاء المستشارين الأمريكيين اثنان من اليهود.

وقد عمد المركز إلى إعادة النظر في تدريس مادة الحضارة الإسلامية ومادة التربية الدينية وعلوم القرآن الكريم والسيرة النبوية. وقد قُصوا في التاريخ الإسلامي فترة الفتوحات الإسلامية ، وحذفوا تدريس تاريخ الصراع العربي اليهودي ، كما حذفوا من علوم القرآن الكريم تدريس الآيات التي تلعن اليهود أو تشير إلى عداوتهم ومكرهم وحذفوا من السيرة تدريس حروب الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود ... وفي التربية العامة للشعب يتدخل هذا المركز لتوجيه المواد الإعلامية في الإذاعة والتلفزيون والصحف بحيث تتسجم مع ما تقرر في منهج التعليم.

هذه كلها مجرد محاولات تدب على استحياء ، وهي لا تعدو أن تكون رقعاً محدودة في نسيج التاريخ الكبير الذي لا أول له ولا انتهاء ... هنا تصير نظرية فوكوياما عن نهاية التاريخ ،

بقوتها التنظيرية وإغوائها ، وبالتحليلات المدعمة بالأدلة والوقائع التي اعتمدها ، فرصةً لتجاوز مرحلة الترفيع في عملية التطبيع ، والتحول إلى الإجهاز الكامل على التاريخ ، وفتح الطريق على مصراعيه للقاء المسلم واليهودي على صعيدٍ واحد يستوي فيه في الظاهر هذا وذاك ... ولكن فيما وراء القشرة الخادعة تتشكل واحدةً من أبشع عمليات القهر الجماعي في التاريخ.

لقد مارست الماسونية ، بشكل من الأشكال ، اللعبة نفسها ، ومن خلال الإلحاح على التسوية نفذ العقل اليهودي ، لكي يتمركز في المفاصل الحساسة ، ويحوّل المنتمين للحركة إلى أدوات صماء تنفذ ولا تناقش حتى وهي تمارس الانتحار ... ومارستها الشيوعية ... ومن خلال إلحاحها على التسوية ، صعد الانتهازيون والأفاقون ، وضاع العمال ... ازداد الروس غنىً وجبروتاً وجاهاً ، واستعبدت عشرات الأمم والشعوب والجماعات.

ها هي نظرية (نهاية التاريخ) تضع (ألسن) بيد العقل الغربي هذه المرة متمثلاً بأمريكا، وهي بتنظيراتها للنظام العالمي الجديد ... بحكمها بالإعدام على كل ما يربط الإنسان بالعقيدة والأرض والتاريخ ... توظف خبرات الماسونية والشيوعية وتضيف إليها قيماً وأبعاداً أخرى ... وأيضاً ، ومن خلال التسوية المطلقة للأمم والشعوب قبالة المطالب الاقتصادية ، سيزداد القوي قوةً والضعيف ضعفاً ، وستشهد البشرية حلقةً محزنةً أخرى ، من أشد الحلقات تعاسةً وضلالاً ...

من سيكون خاسراً في لعبة فوكوياما ؟ من سيخرج مهزوماً في زمن يتطلب من العربي المسلم استقزاز ذاكرته التاريخية ، عمقه التاريخي ... حشد كل عناصر التأصيل والفاعلية التي تستمد نسغها من العقيدة والتاريخ لمجابهة محاولة الاحتواء الصهيوني الأمريكي ، التي تستهدف تسوية الأميين ، كما يسميهم العهد القديم ، من أجل سوقهم إلى المذبح كالأنعام !؟

فليس عبثاً ، وحاشا لله ، أن يمنح القرآن الكريم المسألة التاريخية أكثر من ثلثي مساحته ، وليس عبثاً أن يقف عندها كبار الفلاسفة ، لكي يستمدوا من معطياتها قوانين الحركة ونواميس السعي البشري في العالم.

وأمتا في اللحظات الراهنة بأمس الحاجة لاستدعاء التاريخ من أجل أن تجد ذاتها ، وتعثر على هويتها الضائعة في هذا العالم ، من أجل أن تتجذر في خصائصها ، وتعمق ملامحها ، وتضع اليد على نقاط التآلق والمعطيات الإنسانية والرصيد الحضاري ، لكي تستعيد ثقافتها بذاتها،

وتبين ملامح دورها الأصيل عبر دؤامات الصراع الحضاري الراهن التي تتطلب ثقلاً نوعياً للمم والشعوب ، وهي تجد نفسها قبالة مدنية الغرب الغالبة ... ازاء حالة من تخلخل الضغط وانعدام التوازن الجوي ، الذي يسحب إلى المناطق المخفضة رياح التشريق والتغريب وأعاصيرها المدمرة. إن (نهاية التاريخ) ، بما تتطوي عليه من إلغاء للتاريخ ، انما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ ... إن التغيرات والاختلاف والتدافع والتنوع ، هي في صميم النشاط البشري عبر مسيرته التاريخية الطويلة ... ازاء هذا فان أية محاولة لإلغاء الذاكرة التاريخية ، بحجة التسوية قبالة المطالب الاقتصادية ، ومقولات التكنولوجيا ، انما هي قفزة في الفضاء ... تهميشات على سطح الجليد الذي لا يظهر منه للعيان سوى واحد من عشرة من عمقه الحقيقي ، والذي لن يلبث طويلاً حتى يتعرض للذوبان ...

لقد جبلت النفس البشرية على الانتماء للتاريخ ... كل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل وبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات ، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات.

باختصار ... إننا إذا أردنا أن نجد ذاتنا فان علينا أن نتجذر في اثنتين : العقيدة والتاريخ ... وليست نظرية " نهاية التاريخ " ازاء هذا كله سوى محاولة مترعة بالمخاطر لفك الارتباط بالجزور وتعويم الإنسان المسلم نفسه.

أهذه هي نهاية التاريخ ؟

الشدوذ الجنسي ، والزواج المثلي ، واللواط ، وفضائح كندي وكلنتون ، وشراء الأصوات ، وتوظيف المال والجنس في اللعبة الانتخابية ، وتحكم اللوبي اليهودي ، وهيمنة المافيات العملاقة والشركات الكبرى ... واختراق المسيحية بالعنف والأساطير اليهودية ... والمسيحية الصهيونية وانتماء كبار زعماء امريكا لأقانيمها وطقوسها ... واستخذاء البيت الأبيض للسياسات العليا للأمم الأمريكية ، وتحويل القدرات المالية والعسكرية إلى ضرع يدر في أفواه شذاذ الآفاق ... والغطرسة التي تستفز الخصوم والحلفاء على السواء ، والتفرد في اتخاذ القرار بعيداً عن الأقطاب الأخرى التي تطمح لأن يكون لها مكان على خارطة العالم.

القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية ، وأسلحة الدمار الشامل ، وعنفوديات امتصاص الأوكسجين من المغاور والكهوف لقتل الإنسان واستئصال الحياة ... آلات الإبادة الجرثومية

والكيمياوية ... والقدرات الأسطورية على تغيير معادلات الطبيعة ، وتحويل البيئات إلى معتقلات كبيرة تصعب فيها استمرارية الحياة.

تصاعد معدلات الجريمة في وتائها الاعتيادية والمنظمة ، والاحصائيات المخيفة لحالات القتل والاغتصاب والسرقه والانتحار ...

الهروب المتزايد إلى المخدرات والحشيش والأفيون ، وتصاعد نسبة الإدمان وامتداد سرطانته المخيف إلى مستويات الأعمار الدنيا في مراحل الدراسة الإعدادية والمتوسطة ، حتى الابتدائية ، وضياح أجيال الأمريكيين الناشئة فيما سبق أن حذر من نتائج المفجعة الرئيس الأمريكي كنيدي عام (١٩٦٣م).

الخيانة الزوجية ، والمعاشرة غير المشروعة للأزواج والزوجات وحالات الطلاق المتزايدة ، والدمار المتصاعد للحياة الأسرية ... ورفض الأبناء لأبائهم وتزايد دور العجزة لاستقبال هؤلاء وايوائهم ... وتقطع الروابط العائلية وغياب الاستقرار والسكن في بيئاتها المخترقة بالريبة والشك والكرهية وشد الأعصاب ...

عمليات الاغتيال والتصفية الجسدية (للكبار) على يد المافيات اليهودية والمالية المتحكمة بمصائر الولايات المتحدة ، بدءاً بأصحاب الأصوات الحرة ، وانتهاء بالرؤساء أنفسهم لحظة خروجهم عن الخط المرسوم ...

التكاثر المحموم بالأشياء ... والعبادة المهووسة لصنميات المال والتنمية بعيداً عن اية قيمة أو ضابط ديني أو خلقي أو إنساني ...

تصعيد وتائر القوة والأسلحة والجيش وتقنيات الردع والهجوم ، فيما يجعل من (أمريكا) ترسانة مخيفة قد تلحق الخراب بهذا الجزء أو ذاك من العالم ، في أية لحظة تفور فيها دوامة الغضب ويستشري سعار التفوق والاستعلاء ... وتحوّل أمريكا إلى دولة استعمارية كبرى ، تسعى لأن تضع العالم كله في جيبها وترغم أممه وشعوبه على أن تكبح لكي يدّر ضرعها في الفم الأمريكي ، بغض النظر عن حالات الفقر والتخلف والدمار التي تعاني منها دول العالم الثالث ، الذي يراد له للمرة الثالثة أن يسخر لسعادة الرجل الأبيض وانتمائه الذاتي ...

وأخيراً ، وليس آخراً ، تأكل ودمار القيم الديمقراطية الأمريكية نفسها ، واختراقها المرة تلو المرة ، بحجة مقاومة الارهاب بعد أن سهر الأمريكيون القدامى على حراستها القرون الطوال.

أهذه هي الحضارة الملائمة لإنسانية الإنسان ومطامح الأمم والشعوب ؟ أهذه هي الحالة الحضارية النموذجية أو السقف الأعلى لسعي البشرية عبر تاريخها الطويل ؟ أهذا هو (النموذج) الذي سينتهي إليه التاريخ ويلقي عنده عصا الترحال ؟ أهذا هو (المثل الأعلى) الذي يتحتم على شعوب العالم أن تلهث وراءه ؟ أهذه هي بتعبير (فرنسيس فوكوياما) : (نهاية التاريخ) حيث لا تبدل بعدها ولا تحوّل ما دام الإنسان قد بلغ الحالة القصوى من التقدم والتحرر؟

تقدّم باتجاه ماذا ؟ وتحرر من ماذا ؟ أليست هي في بدء التحليل ومنتهاه ، وفي ضوء التأثيرات آنفة الذكر ، نكسة كبرى في تاريخ البشرية ؟ حيث يتحكم القطب الأحادي بمصائر العالم ، وحيث يتحول السعي البشري إلى لهاتٍ محموم للتكاثر بالأشياء ... وحيث تنتسج الحياة وتقد عمقها وعذوبتها وغناها ومغزاها ... وحيث تخترق منظومة القيم الإنسانية والخلقية والدينية بحلقات السوء التي تنتشر كالبنور السود ... كالطفح المتقيح ... كالسرطان المخيف في نسيج المجتمعات فتفقد شياً فشيئاً القدرة على مواصلة الحياة ولو في حدودها الدنيا ؟

ثم ماذا لو أصبحت الحياة البشرية زنا ولواطاً وسحاقاً وانتحاراً وسرقة وقتلاً واغتصاباً وإدماناً على الحشيش والمخدرات والمغيبات والأفيون ؟ ماذا لو أصبحت الممارسات السياسية تزويراً ورشوةً وشراء للضمانر وتسخييراً للجنس واحتواء لمفاصل القرار العليا من أجل مصلحة لوبي يهودي ، أو مافيا اقتصادية ، أو رغبةً جازفةً في الانسياق وراء إغراء القوة ، بعيداً عن كل ضوابط الحكمة ومكابحها ؟!

أهذه هي نهاية التاريخ ؟!

إنها المثلث المحكم الذي يمسك اليوم بخناق الحضارة الغربية المعاصرة ويمنحها لونها وخصائصها وأهدافها ... إنه الإنتاج والجنس والاستهلاك ... الحضارة الغربية في أقصى حالاتها تكشفاً ووضوحاً وتركيزاً في الوقت نفسه ... فإذا حاولنا أن نلّم جل مفردات هذه الحضارة وأنشطتها في انساق محددة ، فاننا سوف لا نجد بأكثر من ثلاثة انساق تتدرج في أطرها تلك الأنشطة والمفردات : الإنتاج ، أو التنمية والتكاثر بالأشياء (بما فيها الأسلحة والجيوش) ... والجنس أو الترفيه في أكثر حالاته حسيّةً وماديةً ، والسوبر ماركت أي النزعة الاستهلاكية التي يزيدها الإعلان ، والتكاثر ، والنزوع الحسيّ ، سعاراً وجموحاً.

وتحت مظلة هذه الحضارة ، التي زادت العولمة قدرة على الانتشار والتحكم في العالم كله ،
تمضي كل القوى الفاعلة لتصعيد وتائر هذه الأطراف ، أو الحدود الثلاثة ، التي تمسك اليوم
بخناق الإنسان : الدولة والمؤسسة والمجتمع والفرد على السواء ... كل يعمل من جهته لنفخ
النار فيها ، منفرداً حيناً ، متوافقاً أو منسقاً مع الأطراف الأخرى حيناً آخر .
والعالم يجري كالمجنون ... يركض حتى اللهاث أفراداً وجماعات وشعوباً وأمماً ... الكل
يريد أن يلحق بالمركب الأمريكي الذي يقود حملة السوء هذه ... الكل يريد أن يتكاثر بالأشياء ،
وأن يشبع نهمه الجنسي ، ونزوعه الذي لا حدود له للاستهلاك ، معتقداً على الطريقة الابيقورية
البائدة أن الحياة فرصة للتحقق باللذة ، أو الطريقة الاسبارطية : (التحقق بالقوة) ... بغض
النظر عن ارتباط اللذة والقوة بمنظومة القيم الدينية والخلقية والانسانية أو عدم ارتباطها على
الاطلاق .

ومن عجب أن إحدى الكنائس في إنكلترا ، والتي يفترض فيها أن تقف في مواجهة
الطوفان ، انسأقت وراء الإغراء نفسه ، فأعلنت عن قبول الزواج النمطي في أروقتها من أجل
كسب المزيد من الاتباع ... بمعنى أنها أذعنت هي الأخرى للمنطوق الابيقوري باعتباره الوسيلة
الأكثر فاعلية وتأثيراً في العباد والاتباع ...

ويتساءل المرء : ماذا لو مضى مثلث الشرّ هذا إلى النهايات القصية التي يراد له أن
يمضي إليها ، كيف ستصبح الحياة ؟ وهل ستستحق فعلاً أن تعاش ، وقد فقدت عمقها الروحي
وبعدها الإنساني وضوابطها الأخلاقية ، وضيعت مغزى الوجود البشري في العالم ، وغدت مجرد
لهات وراء التكاثر بالأشياء ، والتحقق بالإشباع الجنسي في أحط صيغة حسية وحيوانية ...
والنزوع إلى الاستهلاك الذي يكس ويكس حتى يجد الإنسان نفسه ، كما يقول (أونسكو) في
إحدى مسرحياته : محاصراً بالأشياء حيث يفقد حريته وقدرته على الاختيار ... انها اللعنة التي
ستمسخ إنسانية الإنسان والحياة البشرية على السواء ...

أهذه هي نهاية التاريخ !؟

فماذا نقول الفيزياء الحديثة بخصوص نهاية التاريخ !؟ نقول إحدى معطياتها أن الكون
يتوسع حتى يبلغ حجماً معيناً يبدأ بعدها بالانكماش وهذا ما يسمى (بالكون المغلق) وإما أن
يستمر بالتوسع بشكل متسارع ، وهذا ما يسمى (بالكون المحذب) بتحدب سالب . ولكن بعد أن

تمت الارصادات في الخلفية المايكروية وجدوا أن الكون مسطح ... وللعلم أنه عندما يكون الكون بشكل (محدب أو اسطواني) ، فهو في الأصل مسطح السطح ! ويمكن أن نسطحه ونبسطة ... لكن المحدب الكروي لا يمتلك سطحاً مبسطاً ، وهذا يعلمه كل من درس الرياضيات فلو كان الكون بشكل اسطواني مسطح السطح - يمكن قرآنيًا - أن يتم طي سطح الكون كطي السجل وينكمش إلى أن تكون شكل الاسطوانة الكونية كخيطة ربيع ومن ثم ينهار. وهذا سيتم - حسب النظرية - التي تبين أن الكون يكون محدباً ، لكن بشكل اسطواني ، وهو في تذبذب ، أي توسع مستمر إلى أن ينتهي إلى حد ، بحيث يبدأ بعدها بالانكماش والطي كطي السجل. وهذه النظرية تتماشى مع ما بيّنه القرآن الكريم ... ومهما يكن من أمر فإن القرآن الكريم ثابتٌ والعلم متغير^(١).

" ويمثل الثقب الأسود طريقاً سريعاً إلى الأبدية ... حيث يثير الإلغاء والتفرد إلى نهاية رحلة الطريق الواحد ، إلى (اللا زمان) و (اللا - متى) ، فذاك اللا - مكان حيث يتوقف الكون المادي "^(٢).

" إن النطاق الواسع لبنى الكون وحركته لافتة للنظر ، حيث عملت مراكمة الجاذبية في الكون على كبح جماح توسعه ، لتجعله يتباطأ مع الزمن. فقد كان التوسع أكثر سرعةً في المرحلة البدائية منه اليوم ، فالكون إذن نتاج تنافس بين التفجر النشط للانفجار الكبير وبين قوة الجاذبية في محاولتها سحب القطع معاً ثانيةً. وبدأ علماء الفلك في السنوات الأخيرة في إدراك مدى دقة التوازن في تلك المنافسة. فلو كان الانفجار الكبير أضعف من ناحية ، لتراجع الكون على نفسه في انفجارٍ كبير ، أما لو كان أقوى من ناحيةٍ أخرى ، لتفرقت المواد الكونية بسرعة ، ولما سمحت بتكون المجرات. أياً كان الوضع فإن هيكلية الكون الملاحظ تبدو معتمدةً بحساسية مفرطة على تعادل دقيق بين التفجر النشط وقوة الجذب "^(٣).

" وفيما الركود أخذ في التناقص ، تنتفخ الشمس لتتحول إلى نجم من نوع يدعو علماء الفلك بـ (العملاق الأحمر) فيما يكافح قلب الشمس يائساً للحفاظ على إنتاج الطاقة ، لكن

(١) هافال عارف بروري : إشارات كونية من القرآن ، ص ٨٨ ، ٩٥-٩٦.

(٢) بول دافيز : الله والفيزياء الحديثة ، ص ١٤٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢١١.

الانكماش يصيبه أكثر فأكثر ، حتى يتدخل تأثير عامل الكم لتثبيته ، وقد تصبح الشمس في هذه المرحلة أكثر انتفاخاً ، بحيث تجتاح الكواكب الداخلية تماماً ، أما الأرض فينزع منها غلافها الجوي ، وتذوب صخورها ، بل تتبخر ، وتبدأ الشمس بعد ذلك في مهمتها الجديدة والغريبة في أنٍ معاً : حيث يأخذ الهيليوم الأقل كفاءةً في الاحتراق ، بواسطة عناصر أثقل وأثقل ، وذلك عوضاً عن الاحتراق النووي لوقود الهيدروجين الغزير الحالي. وأخيراً حين يستهلك كافة الوقود ، تتواضع الشمس لتتكون من عناصر ثقيلة مثل الحديد ، ولن يؤدي أي اندماج نووي بعدها إلى إطلاق الطاقة ، فالحديد هو الشكل النووي الأكثر استقراراً. وتسعى النظم جميعها تبعاً للقانون الثاني للديناميكا الحرارية ، إلى حالاتها الأكثر استقراراً ، حيث ترتفع أثناء هذه المرحلة درجة حرارة مركز الشمس الداخلي على نحو مطرد لتصل إلى بلايين الدرجات. والآن ومع استفاد كافة الوقود تبدأ الشمس المنكوبة بالتقلص ، بفعل ثقلها ، لتسحق المواد خلالها بعنف شديد ، بدرجة ترتفع معها الكثافة إلى بليون جرام لكل سم ، وينخفض حجم الشمس الأخذة في الانكماش ، لينتهي بها الأمر إلى حجم الأرض ، وتبقى خامدةً ، تضمحل خلالها وتبرد ببطء لتنتهي مهمتها وتصبح نجماً قزماً أسود. ويتكرر نفس النمط من الاضطراب والتضخم والموت جوعاً للوقود ، ومن ثم الانهيار في جميع أنحاء المجرة ، وتحترق النجوم الواحدة تلو الأخرى ، كل على طريقته ، بواسطة الدورة النووية ، حتى لا يعدو باستطاعتها التماسك في مواجهة قوة الجاذبية التي لا ترحم^(١).

" وسوف تموت بعض النجوم في مشهدٍ أخاذ ، وأكثر روعة ، فتنفجر بتفجير نفسها إلى قطعٍ صغيرةٍ وينهار قلبها ، على نحو كارثي ، لتتطلق طاقة ضخمة ، أما بقايا تلك النجوم الانتحارية الأخف ، فلن يعدو حطاماً منتشراً ، يحيط بمادة مسحوقة تماماً ، يعادل ضغطها كتلة شمسية بحجم كروي ، يتجاوز بضعة أميال. إن جاذبية هذا الجسم هائلةً للغاية بدرجة أن وزن ملعقة صغيرة من مادتها ، يفوق وزن كافة قارات الأرض. إن قبضتها رهيباً ، لدرجة تفوق قدرة الذرات على الصمود ، بما يدفعها إلى التغضن داخلياً ، لتشكل بحراً من النيوترونات الخالصة. وهذه النجوم النيوترونية مألوفةٌ لدى علماء الفلك الذين يجدونها وسط حطام الانفجار. ولن تستطيع

(١) بول دافيز : المرجع السابق ، ص ٢٣٧.

النجوم الثقيلة الميتة الثابت أمام قوة الجاذبية الساحقة ، حتى وان تحولت إلى كرة من النيوترون ، فسوف تستمر في الانكماش بمعدل متصاعد حتى تنتهي أيامها كثقوب سوداء "(١).

" لقد رسم عالم الفلك أدوارد هاريسون تدهور الكون على النحو التالي : تبدأ النجوم في التلاشي مثل شموع تذوب لتخدم الواحدة تلو الأخرى ، وتموت تدريجياً في عمق الفضاء ، المدن السماوية العظيمة والمجرات المشوشة بذكريات العصور ... لتخترق ومضات من الضوء بين حينٍ وآخر ليل سقوط الكون وتؤجل طفرات من النشاط حكم الكون القاضي بتحوّلها إلى مقبرة للمجرات "(٢).

" سبرت الأبحاث الخاصة بنظم الفيزياء أغوار طرق غريبة ، لمعرفة وضع الاضطراب في حدّه الأعلى ، لتجد أن نظام مجرتنا سوف يبدأ لا محالة في التداي ، مثل انطفاء النجوم ... وفي نهاية المطاف سينتشر مخزون الطاقة الحبيس في النجوم على شكل شعاع فوضوي حول الكون ، فيما تخفت المجرة وتبرد ، ولن تكون المجرات الأخرى بمعزل عن مصير مشابه "(٣).

" أما النجوم الميتة نفسها ، فلا يزال في حوزتها مزيد من النشاط ، لكن نطاق الزمن آخذ في الازدياد بقدر كبير ، وبينما تصطدم بقايا الاحتراق ببعضها البعض ، من حينٍ لآخر ، تتجه الثقوب السوداء بدورها إلى إجلاء كل نجم ، أو كل ما تقابله من مواد ... فيما تضمحل مدارات النجوم ببطء بسبب انبعاث شعاع الجاذبية ، وهو موجات في الفضاء تستنزف الطاقة المدارية لكافة الأجسام الضخمة ... وسوف تميل النجمية إلى الانحراف والاقتراب أكثر فأكثر من مركز المجرة لتضحى بنفسها في النهاية داخل ثقب مستوحش نهم لا يشيع ... لكن النجوم الأخرى الناجية وكذلك الغازات التي تفادت الموت داخل الثقوب السوداء ، فقد ارجئ الحكم بإعدامها جميعاً لبعض الوقت. وفي حال صحّت النظرية الموحدة الكبرى ، فالمواد النووية في هذه السفاسف الكونية غير المستقرة سوف تتبخر بعيداً حيث ينحط النيوترون والبروتون إلى بوزيترون

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٨.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٨.

والبيكترون ليبدأوا في إفناء بعضهم بعضاً ، فضلاً عن أي الكترونات أخرى ، وهكذا تتحلل كافة المواد الصلبة ... " (١).

" وتشير الدراسات إلى مصير موحش للكون الذي نعرفه مفعماً بالروعة والنشاط ... ويبدو أن ثمة شك في توجه جميع البنى الحالية في النهاية لخطر الموت ، مخلفةً صقيع وظلمة ممتدة إلى فضاء شبه خالٍ ، ذي كثافة منخفضة أكثر بكثير من أي وقتٍ مضى ، تسكنه فلة فحسب من النيترونات والفوتونات المعزولة وأشياء أخرى قليلة. وهذا سيناريو يجده الكثيرون من العلماء مشوباً بكآبة ، ليس هناك ما بعدها " (٢).

" وحين ينكشف الكون إلى نسبة لا تتعدى المئة من حجمه الحالي ، سترتفع درجة الحرارة تحت تأثير الضغط إلى نقطة غليان الماء ، وسوف تصبح الأرض ... غير قابلة للسكن ، ولن يتمكن المراقب عندها من تبيين المجرات كلٌّ على حدة ، لأنها تكون قد بدأت في الاندماج معاً ، فيما ينعدم الفضاء بينها تماماً ، وكلما ازدادت وتيرة الانكماش سترتفع درجة الحرارة إلى درجة تبدأ معها السماء نفسها في التوهج مثل الموقد ، فيما تأخذ النجوم ، وهي جزء لا يتجزأ من الفضاء الأبيض الساخن ، في الغليان ، ومن ثم تنفجر " (٣).

" إن الكون الآن على بعد جزء من الثانية من الموت ، فالانكماش الكبير شأن الانفجار الكبير ، وإن على نحوٍ معاكس ، سوف يحطم جسيمات الذرة إلى كواركات ، لتنشأ عبر كافة النظم شظايا مشتقات الذرة للحظة عابرة ، لكن الكون ينكمش في طرفة عين إلى أقل من فضاء ذرة واحدة ، وعليه يفسخ الزمكان نفسه " (٤).

" ويعتقد فيزيائيون كثيرون أن الانكماش الكبير يطرح نهاية الكون ، تماماً كما يعتقدون ان الكون : كل الفضاء والزمن والمادة ، قد خرج إلى حيز الوجود عبر الانفجار الكبير ، وبالتالي سوف يمضي خارجه عبر انكماشٍ كبير. وهذه إبادة كاملة ، لن تدع أو تذر شيئاً ، حيث لا أماكن ، أو دقائق أو أشياء أخرى ، بل (تفرد) ، فيما يستسلم الوجود إلى قوة الجاذبية المدمرة

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) بول دافيز : المرجع السابق ، ص ٢٤١.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

بلا حدود ، وعندها ، لا شيء ، إن الجاذبية كانت مولدة الوجود وهي أيضاً سوف تضعه في القبر» (١).

والآن ها هي ذي نهاية التاريخ في ثلاثيته الكبرى : الكون والعالم والإنسان ، كما يعرفها كتاب الله ... إنه الانقلاب الكوزمولوجي والجيولوجي والبيولوجي الحاسم الذي تتغير به ملامح الكون والعالم والإنسان ، وتعاد صياغتها من جديد ... إنها آخر محطة في قطار رحلتنا ، ورحلة الكون والعالم ، عبر الحياة الدنيا ... وبدء حياة جديدة مغايرة تماماً ، بكل دقائقها وتفصيلها التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، والتي تلقينا في كتاب الله جانباً من معطياتها ، بينما تظل الجوانب الأخرى مخفية عنا لأمر يريد الله (جلّ في علاه).

فلنعين هذا الجانب الذي حدثنا عنه كتاب الله ... إنه باختصار شديد يوم الهول هذا الذي تبدأ صفحته الأولى بالنفخ في الصور ، والذي تنفطر فيه السماء وتنفجر ، وتنسف الجبال ، وتسجر البحار ، وترج الأرض ، وينخسف القمر ، وتجمع الشمس والقمر ، وتطمس النجوم ، وتتكرر ، وتكور الشمس ، وتعطل العشار ، وتحشر الوحوش ، وتنتشر الكواكب ، وتبعثر القبور ، وتمدّ الأرض ، وتلقي ما فيها وتتخلى عنه ، ويصير الناس كالفرش المبعوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ... اليوم الذي ينقر فيه في الناقر ، ويبرق البصر ، ويقول الإنسان أين المفر ؟ اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ...

تلك هي نهاية التاريخ ، وليست ترهات الفلاسفة الوضعيين في الشرق والغرب لا علماء الفيزياء والكوزمولوجي ، ممن يبحرون في الاتجاه الخاطئ ، وهم انما يتبعون الظنون والأهواء ... ولنضع نصب أعيننا ، فان الذي ينهي التاريخ ليس هذا الفيلسوف أو ذاك انما هو الله الذي ﴿ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم: الآية ٢٧) . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٥) . الله الذي يحدثنا كتابه المعجز عنه (جلّ في علاه) بقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... ﴾ (سورة

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

الزمر : الآية ٦٧). بهذه اليد ذات القدرة المطلقة ، والتي تمسك برقبة الكون والعالم ، يجيء الانقلاب الكوني الهائل المزلزل لكي ينهي التاريخ !

فلنتابع ما يقصّه علينا كتاب الله عن يوم الهول هذا : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ (سورة المزمل : الآية ١٤). ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿تَبَعَهَا الرَّادِفَةُ﴾ ﴿٧﴾ (سورة النازعات : الآيتان ٦-٧). ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿٣٤﴾ وَأَمِهِ وَأَبِيهِ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ﴾ ﴿٣٦﴾ (سورة عبس : الآيات ٣٣-٣٦). ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿١﴾ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ﴿٣﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ ﴿٥﴾ (سورة الزلزلة : الآيات ١-٥). ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿١﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿٣﴾ ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ﴾ ﴿٥﴾ (سورة القارعة : الآيات ١-٥). ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ﴿٩﴾ (سورة المعارج : الآيتان ٨-٩). ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ﴿٦﴾ ... ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿٩﴾ وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ (سورة الطور : الآية ٦ ، والآيتان ٩-١٠). ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ آءِ رَبِّكَ مَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٨﴾ (سورة الرحمن : الآيتان ٣٧-٣٨). ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٠٧﴾ (سورة طه : الآيات ١٠٥-١٠٧). ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿١﴾ ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَأَذِنَةٍ﴾ ﴿٢﴾ ﴿خَافِضَةً مَرَّافِعُهَا﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِذَا مَرَجَّتِ الْأَرْضُ مَرَجًا﴾ ﴿٤﴾ ﴿وُبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ ﴿٦﴾ (سورة الواقعة : الآيات ١-٦). ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿١﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿٣﴾ (سورة الحاقة : الآيات ١-٣). ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿١٤﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِبَةٌ﴾ ﴿١٦﴾ (سورة الحاقة : الآيات ١٣-١٦). ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿السَّمَاءُ مُتَطَرِّبَةٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ﴾

مُفْعُولًا ﴿١٨﴾ (سورة المزمل : الآيتان ١٧-١٨). ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ (سورة المدثر: الآيات ٨-١٠). ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ﴿١٠﴾ (سورة القيامة : الآيات ٧-١٠). ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ (سورة المرسلات : الآيات ٨-١٠). ﴿وَقُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسِيرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ (سورة النبأ : الآيات ١٩-٢٠). ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَابُ عْطَلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ (سورة التكوير : الآيات ١-٦). ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكَبُ انشَرَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ (سورة الانفطار : الآيات ١-٤). ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَكَخَلَتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ (سورة الانشقاق : الآيات ١-٥). ﴿كَأَنَّهَا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ... ﴿ (سورة الفجر : الآيات ٢١-٢٣).

يوم الهول هذا الذي تبدأ لحظاته الأولى بالنفخ في الصور والنقر بالناقور ، فيما تتصادى أصواته الرهيبة في جنبات الأرض والكون وتضم الأذان لشدها ، ايذاناً بالانقلاب الكبير والحاسم ... حيث يتخبط الناس كالسكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم يجدون أنفسهم قبالة أهوال القيامة وشدائدها ، ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا... ﴿ (سورة الحج: الآية ٢). ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ (سورة عبس : الآيات ٣٤-٣٦). وحيث يبرق البصر دهشةً وتحيراً وفرعاً مما يرى ... وتتعالى صرخات الخائفين المذعورين من العذاب والهول : أين المفر ؟ ويجيب الجواب الحاسم : ﴿كَأَنَّهَا وَرَمَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ (سورة القيامة : الآيتان ١١-١٢). حيث لا منجى ولا

ملجأ لهم من الله (جلّ في علاه) ... وحيث تزلزل الأرض وتحرك تحريكاً عنيفاً عند النفخة الأولى ايذاناً بخراب العالم ، وترمي كنوزها وموتها عند النفخة الثانية ... وتنفطر لشدة الهول ... وتضطرب وتزلزل ... وتدل بحالها على ما عمل فيها ، فتصير أرضاً مستوية لا نبات ولا بناء فيها ، فليس ثمة في أطرافها كافة من مكان مرتفع وآخر منخفض ... لقد بسطت وسويت كمدّ الأديم ، مستمعةً منقادةً لأمر الله (سبحانه وتعالى) ... يوم تحمل الأرض والجبال فتدك دكةً واحدة : تدق وتكسر بالزلازل التي تجيء متتابعة حتى تجعل كل شيء هباءً منثوراً ... يوم تنزل القارعة لكي تفرع القلوب بأهوالها وافزاعها ، ويصير الناس كالبعوض الذي يتهافت في النار ... وحيث تحل الساعة فيتحقق فيها ما سبق وإن أنكروه.

وبرؤية بانورامية يواصل كتاب الله حديثه عن نهاية التاريخ من منظوره القرآني ، فيحكي عن الجبال والبحار والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم ... كلها تتعرض للهزة الكبرى ذاتها ... للقارعة التي تفرع القلوب بأهوالها ... وحيث تتغير كوزمولوجيا الكون والأرض ، وتتبدل مسارات السدم والمجرات والنجوم ، وتفقد الأفلاك وظيفتها ، وتطلع الشمس من الغرب ، ويختفي ضوء القمر ، وتنسف الجبال وتتفجر البحار بحمم النار ...

فلنتابع هذه المتغيرات الكبرى واحدةً واحدةً كما يقصها علينا كتاب الله : يوم تسير الجبال وتنفس ... تقلع من أماكنها وتزال عن مواضعها ، بسرعة فتصير سراباً لا حقيقة له ... تحمل الأرض فتدك دكةً واحدةً ، وترجف الجبال فتصير هذه كثيباً مهيباً : رملًا مجتمعاً سائلاً منهالاً ... يوم تبس الجبال فتفتت كالسويق الملتوت وتصير كالقاع الصفصاف لا يرى فيه عوج ولا أمت : أي أرضاً ملساء مستوية لا نبات ولا بناء فيها ، فليس ثمة في أطرافها كافة مكان مرتفع وآخر منخفض ... يوم تصير الجبال بسبب من هذا كله كالصوف المصبوغ ألواناً والذي فرقته الأصابع فصار شتاتاً ... يوم تقتلع من أماكنها وتتفتت وتفرقها الرياح ، وتصير غباراً متفرقاً منتشراً ... يوم تسجر البحار فتصير ناراً تضطرم ، وتتفجر فتتشقق جوانبها وتصير بحراً واحداً ... " وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه. وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال أنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها. وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيندفق بعضها على بعض. وإما أن يكون معناه. التهابها وانفجارها ، كما

قال في موضع آخر : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (سورة الانفطار: الآية ٣). فتفجير عناصرها ، وانفصال الايدروجين عن الأوكسجين فيها ، وتفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشد هولاً. أو على أي نحوٍ آخر. وحين يقع هذا فان نيراناً هائلةً لا يتصور مداها تتطلق من البحار. فان تفجير قدرٍ محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الايدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ، فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحوٍ آخر ، فان الإدراك البشري يعجز عن تصوّر هذا الهول ، وتصور جهنم الهائلة التي تتطلق من هذه البحار الواسعة" (١).

يوم يخسف القمر ويذهب ضوءه ، وتجمع الشمس والقمر وتطلعان من المغرب مظلمتين ... وتكور الشمس ويزال ضياؤها وتلف وتطوى " فعندما تتضخم الشمس وتتفخ ، يتحول قطرها من (مليون و ٤٠٠ ألف) كم إلى (٣٠٠ مليون) كم ... وفي فترة قصيرة جداً جداً ، ربما ساعات ! مما يؤدي إلى غيابها وطلوعها عندنا ، وكأنها تطلع من المغرب" (٢).

يوم تطمس النجوم ويمحى نورها ويذهب ضوءها ... يوم تتكدر وتنتشر وتتهافت وتتساقط متفرقةً ، وتضطرب بالصيحة الهائلة ، (نفخة الموت) ... أما السماء التي تنطوي على هذا كله ، فتنمحور وتضطرب ، وتدور كالرحى وتصير في حمرتها المنتشرة في الأفاق كالوردة القانية ... تنشق السماء وتنفطر وتتصدع من الهول ، وتصير ضعيفةً متداعيةً بعد ذلك الاحكام الذي استمرت عليه ملايين السنين ... تنشق وتفتح فيها الطرق والأبواب ... تقتلع كما يقتلع السقف ، وما تلبث أن تتصدع عند قيام الساعة ...

فأي هولٍ هذا الذي سيجابه الإنسان يوم القيامة ، لحظة الإعلان بالنفخ بالصور والنقر بالناقور عن نهاية التاريخ ؟ بل إن هذا الرعب سيلحق حتى الحيوان ، فتترك النوق الحوامل بدون راعٍ ، وتجمع الوحوش من كل مكان لكي تحشر هي الأخرى ... بل إن القبور ذاتها ستنبعث ويقلب ترابها ويخرج موتاهها !!

إننا بانتظار يومٍ رهيبٍ مغيّبٍ عن الأنظار ، لكننا سنراه بأم أعيننا ، يوم الهول ذاك ، وحينها لن ينقذ الفجرة والكفرة والحكام والطواغيت ، شيء على الاطلاق ... إن كتاب الله بطرائقه

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط٣٧ ، (دار الشروق-القاهرة ، ٢٠٠٨م) ، م٣٨٣٩/٦.

(٢) هافال عارف برواري : إشارات كونية من القرآن ، ص ٩٣.

الفنية التجسيدية والتخييلية ، ينقلنا إليه ، بين لحظةٍ وأخرى ، وكأنه واقع اللحظة ، من أجل أن يهز ضمائرنا ، ويسقط عن أفئدتنا ما علق بها من رانٍ وتراب ... لعلنا نعتبر ...

أما عن موعد يوم الهول العظيم هذا فقد اختص به الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ يريدها ، وتركه مغيباً عن الأنظار : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ ﴿ فِيهَا أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ﴿ ٤٦ ﴾ (سورة النازعات : الآيات ٤٢-٤٦) . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٨٧) .

ثمة إشارات قرآنية إلى الأجل المسمى للكون والعالم والتاريخ ، وهذا يكفي : ﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٩) . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (سورة الأحقاف : الآية ٣) . ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٣٨) .

الخاتمة

تلك هي منظومة خلق الكون والعالم ونهاية التاريخ ... بدءاً وصيرورةً وانتهاءً ... محكمة متماسكة ... تتضاءل ازاءها كل المحاولات البشرية القائمة على الظنون والأهواء ، والتحيز ، والرؤى النسبية المأسورة في الزمن والمكان فيما عدا كشوفات الفيزيائيين الذين فاءوا إلى حظيرة الايمان ... ذلك أنها من وضع الله (جلّ جلاله) ، خالق الكون والعالم ، والخاتم على مصير التاريخ البشري ، حيث الكل خاضع لكلمته وعائد إليه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (سورة العنكبوت : الآية ١٩) . ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١١٥) . ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة ياسين : الآية ٨٣) .

وتلك هي كلمة الفصل في ثلاثية خلق الكون والعالم ونهاية التاريخ ... فيبيده (جلّ جلاله) ملكوت كل شيء ... هو الذي خلقه ، وهو وحده الذي يتصرف بمقدراته ومصائره ... وإليه وحده يكون الرجوع !!

الفهرست

تقديم.

الفصل الأول : خلق الكون.

الفصل الثاني : خلق العالم.

الفصل الثالث : نهاية التاريخ.

قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً : الأعمال التاريخية :

أ - محور المنهج والفلسفة :

- ١- التفسير الإسلامي للتاريخ (٦ طبعات) (دار السلام - القاهرة).
- ٢- حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣- ابن خلدون إسلامياً (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٤- في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥- المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦- دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي - عمان).
- ٧- المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم - بيروت).
- ٨- التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (طبعة واحدة) (دار المأمون - عمان).
- ٩- مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (خمس طبعات) (مفكرون للنشر - القاهرة).
- ١٠- في المشروع الحضاري الإسلامي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) (خمس طبعات) (مفكرون للنشر - القاهرة).

ب - محور : السيرة والتراجم :

- ١١- دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس - بيروت).
- ١٢- كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار النفائس - عمان).
- ١٣- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٤- عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٥- نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار السلام - القاهرة).

ج - محور : البحوث والدراسات :

- ١٦- دراسات تاريخية (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٧- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاية السلاجقة في الموصل (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٨- الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام : أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والنتز (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ١٩- الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٠- خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢١- محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (دار السلام - القاهرة).
- ٢٢- رحلة في التاريخ الإسلامي (قيد النشر).
- ٢٣- مائتا سؤال وجواب (قيد النشر).

د - قضايا في التاريخ المعاصر :

- ٢٤- ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٥- لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٦- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٧- الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٨- أولى ملاحم القرن (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٢٩- مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣٠- أمريكا مرة أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

ثانياً : الأعمال الفكرية :

أ - محور : المنظور الإسلامي للمعرفة :

- ٣١- أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٦ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٣٢- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣٣- العلم في مواجهة المادية : قراءة في كتاب (حدود العلم) لسوليفان (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣٤- مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣٥- تهافت العلمانية (٨ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

ب - محور : المنظور الغربي للإسلام :

٣٦- قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٣٧- القرآن الكريم من منظور غربي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣٨- المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (٣ طبعات) (دار السلام - القاهرة).

٣٩- الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٠- غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

٤١- نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس - بيروت).

ج - محور : البحوث والدراسات :

٤٢- مع القرآن في عالمه الرحيب (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٣- حوار في المعمار الكوني : وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٤- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٥- مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٦- متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٧- كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحلیم عويس) (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٤٨- الله أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصور الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

٤٩- رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

٥٠- محاضرات إسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

- ٥١- أخطاء في حياتنا الإسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥٢- دراسات قرآنية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥٣- حواريات إسلامية (قيد النشر).
- ٥٤- تأملات في الدين والحياة (قيد النشر).
- ٥٥- مدخل إلى منظومة بناء الكون والعالم ونهاية التاريخ في المنظور القرآني (قيد النشر).

د - محور : المقالات الإسلامية :

- ٥٦- مقالات إسلامية (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥٧- آفاق قرآنية (٥ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥٨- مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٥٩- في الرؤية الإسلامية (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٠- في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).
- ٦١- من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).
- ٦٢- العالم ينتظر البديل (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٣- آيات قرآنية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٤- أحاديث نبوية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

ثالثاً : الأعمال الأدبية :

أ - محور : الدراسات الأدبية والفنية :

- ٦٥- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٦- الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- صدر الكتابان الأخيران في غلاف واحد تحت عنوان (في الفن التشكيلي والمعماري) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٧- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
- ٦٨- قراءة في كتابات النورسي : رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر - القاهرة).

ب - محور : التنظير :

- ٦٩- في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٠- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٧١- حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٢- متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٣- من يوميات الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

محور : النقد التطبيقي :

- ٧٤- محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٥- في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٦- في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

محور : الإبداع :

أ - المسرحيات :

- ٧٧- المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٨- الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٧٩- المغول (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٠- الهم الكبير (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨١- التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٢- معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٣- خمس مسرحيات ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٤- العبور (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٥- المداولة (قيد النشر).

ب - الروايات :

- ٨٦- الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٧- السيف والكلمة (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٨٨- مذكرات جندي في جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم) (طبعة واحدة) (دار وائل - عمان).

ج - القصص :

- ٨٩- كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٩٠- رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
٩١- المطر الأسود (قيد النشر).
٩٢- السكين في الظهر (قيد النشر).

د - الشعر :

- ٩٣- جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).
٩٤- ابتهالات في زمن الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

هـ - أدب الرحلات :

- ٩٥- من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

و - أدب الحوار :

- ٩٦- ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).
٩٧- الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل - عمان).
٩٨- لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

ز - السيرة الذاتية :

- ٩٩- من مذكرات طالب جامعي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).
١٠٠- لا إله إلا أنت : سيرة ذاتية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).